بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة النساء (٢٥-٣٣) من التفسير الميسّر

وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٥)

ومن لا قدرة له على مهور الحرائر المؤمنات، فله أن ينكح غيرهن، من فتياتكم المؤمنات المملوكات. والله تعالى هو العليم بحقيقة إيمانكم، بعضكم من بعض، فتزوجوهن بموافقة أهلهن، وأعطوهن مهورهن على ما تراضيتم به عن طيب نفس منكم، متعففات عن الحرام، غير مجاهرات بالزنى، ولا مسرات به باتخاذ أخلاء، فإذا تزوجن وأتين بفاحشة الزنى فعليهن من الحدِّ -وهو الجَلْدُ لا الرَّجْمُ- نصف ما على الحرائر. ذلك الذي أبيح مِن نكاح الإماء بالصفة المتقدمة إنما أبيح لمن خاف على نفسه الوقوع في الزنى، وشق عليه الصبر عن الجماع، والصبر عن نكاح الإماء مع العفة أولى وأفضل. والله تعالى غفور لكم، رحيم بكم إذ أذن لكم في نكاحهن عند العجز عن نكاح الحرائر.

يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦)

يريد الله تعالى بهذه التشريعات، أن يوضح لكم معالم دينه القويم، وشرعه الحكيم، ويدلكم على طرق الأنبياء والصالحين من قبلكم في الحلال والحرام، ويتوب عليكم بالرجوع بكم إلى الطاعات، وهو سبحانه عليم بما يصلح شأن عباده، حكيم فيما شرعه لكم.

وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (٢٧)

والله يريد أن يتوب عليكم، ويتجاوز عن خطاياكم، ويريد الذين ينقادون لشهواتهم وملذاتهم أن تنحرفوا عن الدين انحرافًا كبيرًا.

يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا (٢٨)

يريد الله تعالى بما شرعه لكم التيسير، وعدم التشديد عليكم؛ لأنكم خلقتم ضعفاء.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩)

يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، لا يحل لكم أن يأكل بعضكم مال بعض بغير حق، إلا أن يكون وَفْقَ الشرع والكسب الحلال عن تراض منكم، ولا يقتل بعضكم بعضًا فتهلكوا أنفسكم بارتكاب محارم الله ومعاصيه. إن الله كان بكم رحيمًا في كل ما أمركم به، ونهاكم عنه.

وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا (٣٠)

ومن يرتكب ما نهى الله عنه من أخذ المال الحرام كالسرقة والغصب والغش معتديًا متجاوزًا حد الشرع، فسوف يدخله الله نارًا يقاسي حرَّها، وكان ذلك على الله يسيرًا.

إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا (٣١)

إن تبتعدوا -أيها المؤمنون- عن كبائر الذنوب كالإشراك بالله وعقوق الوالدين وقَتْلِ النفس بغير الحق وغير ذلك، نكفِّر عنكم ما دونها من الصغائر، وندخلكم مدخلا كريمًا، وهو الجنَّة.

وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٣٢)

ولا تتمنوا ما فضَّل الله به بعضكم على بعض، في المواهب والأرزاق وغير ذلك، فقد جعل الله للرجال نصيبًا مقدَّرًا من الجزاء بحسب عملهم، وجعل للنساء نصيبًا مما عملن، واسألوا الله الكريم الوهاب يُعْطِكم من فضله بدلا من التمني. إن الله كان بكل شيء عليمًا، وهو أعلم بما يصلح عباده فيما قسمه لهم من خير.

وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٣٣)

ولكل واحد منكم جعلنا ورثة يرثون مما ترك الوالدان والأقربون، والذين تحالفتم معهم بالأيمان المؤكدة على النصرة وإعطائهم شيئًا من الميراث فأعطوهم ما قُدِّر لهم. والميراث بالتحالف كان في أول الإسلام، ثم رُفع حكمه بنزول آيات المواريث. إن الله كان مُطَّلِعًا على كل شيء من أعمالكم، وسيجازيكم على ذلك.

بسم الله الرحمن الرحيم

معاني كلمات سورة النساء (٢٥-٣٣)

الكلمة	المعنى
طَوْلًا	غِنى وسَعة
المُحصَنات	الحرائر
فتياتكم	إمائكم
أهلِهنّ	الذين يملكونهنّ
أجورَهنّ	مهورهنّ
محصَنات	عفيفات
غيرَ مُسافحات	غيرَ مجاهرات بالزنى
ولا متخذات أخْدان	ولا متخذات أصدقاء للزنى سرا
فإذا أُحصِنّ	فإذا تزوّجن
خشِيَ العنَت	خاف الوقوع في الزنى
سُننَ الذين من قبلِكم	طرائقَ الأنبياءِ والصالحينَ من قبلكم
تميلوا ميلا عظيما	تنحرفوا عن الدين انحرافا كبيرا
ولا تقتلوا أنفسكم	لا يقتل أحدكم نفسه ولا أخاه المسلم
كبائر	الذنوب الكبيرة التي ورد فيها وعيد خاص
سيّئاتِكم	صغائرَ ذنوبكم
مُدخلا كريما	الجنّة
مَوالِي	ورثة
والذين عقَدت أيمانُكم	والذين حالفتموهم على النصرة والتوارث

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقف والابتداء في سورة النساء ٢٥-٣٣

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذه الفقرة المتعلقة بالوقف والابتداء في الآيات من سورة النساء من الآية الخامسة والعشرين وحتى الآية الثالثة والثلاثين.

أبدأ بالآية الأولى وهي قول الله تعالى (ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن جواب الشرط لم يأت بعد، أين الشرط؟ في قوله (مَن)، وفعل الشرط (لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات)، جوابه (فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات)، فلا وقف إلا على قوله (من فتياتكم المؤمنات) كما نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة الشرط قد انتهت، وانتهى الحكم المتعلق بجواز نكاح الإماء عند عدم القدرة على نكاح الحرائر، ثم جاءت جملةٌ مستأنفةٌ معترضةٌ في قوله (والله أعلم بإيمانكم) في ذكر أمرٍ آخر، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (والله أعلم بإيمانكم)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، على اعتبار قوله تعالى (بعضكم من بعض) مستأنفًا، لأنه مبتدأ وخبر، ومنع منه البعض على اعتبار أن قوله (بعضكم من بعض) هو من تتمة قوله (والله أعلم بإيمانكم)، وذلك أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يبين أن بعضكم مثل بعضٍ في الإيمان، فلا فرق بينكم وإن افترقتم في الحرية والمملوكية، لكن القول بالوقف أقرب، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (بعضكم من بعض)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة المعترضة قد انتهت هنا، وهي خبرٌ جاء بعدها أمرٌ في قوله (فانكحوهن)، وعاد هنا لما يتعلق بحكم نكاح الإماء، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فانكحوهن بإذن أهلهن)؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، ولم ينص عليه الأكثر، وإذا تأملنا فإن الله سبحانه وتعالى أمر في هذه الجملة بأن يتزوجوا الإماء بإذن من يملكوهن، ثم ذكر في الجملة التي تليها وجوب إعطائهن مهورهن في جملةٍ مستقلةٍ بنفسها ابتدأت بأمر في قوله (وآتوهن أجورهن)، والأمر في هذا محتملٌ، ولعل الأقرب صحة الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وآتوهن أجورهن بالمعروف)؟

الجواب: لا يصح، كما نص على ذلك الأشموني، لأن قوله (محصناتٍ غير مسافحات) حالان من مفعول قوله (وآتوهن) فلم يصح الفصل بينهما، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ولا متخذات أخدان)؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن جملة الأمر (وآتوهن أجورهن) وما ارتبط بها من الحال قد انتهت هنا، ثم جاءت بعد ذلك جملةٌ مبدوءةٌ بـ (إذا) متضمنةٌ معنى الشرط، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب)؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن جملة الشرط قد انتهت هنا، أداة الشرط في قوله (إنْ)، وفعل الشرط (أتين بفاحشةٍ)، وجوابه (فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب)، ثم جاءت جملة مستأنفة مكونةٌ من مبتدأ وخبر في قوله (ذلك لمن خشي العنت منكم)، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ذلك لمن خشي العنت منكم)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن ما بعده جملةٌ مستأنفةٌ فصح الوقف هنا، والله أعلم، وتقدير قوله (وأن تصبروا خيرٌ لكم) أي: والصبر خيرٌ لكم.

وهل يصح الوقف على قوله (وأن تصبروا خيرٌ لكم)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الأمر بالصبر قد انتهى هنا، وجاءت بعده جملةٌ مستأنفةٌ في قوله (والله غفورٌ رحيم) فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (يريد الله ليبين لكم) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله (ويهديكم) فعلٌ منصوبٌ بالعطف على قوله (يبين لكم)، و (يبين) منصوبٌ بـ (أن) المضمرة، فلم يصح الوقف هنا.

وهنا قاعدةٌ عامةٌ: المعطوفات ولو كانت من قبيل عطف الجمل إذا كانت منصوبةً أو مجزومةً أو مجرورةٌ فإنه لا يصح الوقف والفصل بينها، أما إذا كانت مرفوعةً فقد يصح الفصل بينها، لأن الرفع لا يحتاج إلى عامل، وإنما النصب والخفض والجزم تحتاج إلى عوامل، فلذلك لا يصحح علماء الوقف والابتداء وقفًا قبل فعلٍ أو اسمٍ منصوبٍ أو مجرورٍ أو مجزومٍ، والله أعلم.

وكذلك لا يصح الوقف على قوله (ويهديكم سنن الذين من قبلكم) لأن (ويتوب عليكم) فعلٌ منصوبٌ بالعطف على قوله (ليبين لكم).

وهل يصح الوقف على قوله (ويتوب عليكم)؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة التي تضمنت ما يريده الله سبحانه وتعالى من تشريعاته الحكيمة قد انتهت هنا، ثم جاءت جملةٌ مستأنفةٌ في قوله (والله عليمٌ حكيمٌ)، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (والله يريد أن يتوب عليكم) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا الهبطي دون غيره من علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن الله سبحانه وتعالى بين في جملةٍ تامةٍ أنه يريد أن يتوب علينا، ثم بين في جملةٍ معطوفة عليها قائمةٍ بنفسها أن الذين يتبعون الشهوات يريدون أن نميل عن الدين ميلاً عظيمًا في قوله (ويريد الذين يتبعون الشهوات أن يميلوا ميلاً عظيمًا)، وهذه جملةٌ قائمةٌ بنفسها موضحةٌ للمراد منها، فالوقف هنا له وجهٌ، والله أعلم.

الآية التي تليها: (يريد الله أن يخفف عنكم) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة الفعلية قد انتهت عند قوله (أن يخفف عنكم)، ثم جاءت جملةٌ أخرى في قوله (وخُلق الإنسان ضعيفًا)، وهي جملةٌ مستأنفةٌ لكنها متضمنةٌ معنى التعليل، يعني كأن الله قال (يريد الله أن يخفف عنكم) لضعفكم، فمن نظر إلى الارتباط المعنوي لم يصحح الوقف هنا، ومن نظر إلى أنهما جملتان مستقلتان لفظًا صحح الوقف هنا، والأمر في هذا محتملٌ، والله أعلم.

الآية التي تليها: (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا الهبطي دون غيره من علماء الوقف والابتداء، ووضعت علامة الوصل أولى في المصحف الدمشقي هنا، وإذا تأملنا فإنه قد جاء بعد هذه الجملة استثناء في قوله (إلا أن تكون تجارة)، وهذا الاستثناء منقطعٌ، يعني ليس من جنس المستثنى منه في قوله (لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل)، فالتجارة ليست من أكل الأموال بالباطل، إنما هي شيءٌ آخر، فمن نظر إلى هذا الاستثناء المنقطع صحح الوقف هنا، ومن نظر إلى أن الاستثناء ولو كان منقطعًا هو من تتمة الجملة لفظًا لم يصحح الوقف، وهو الذي عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ولا شك أن الوصل هنا أولى، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (إلا أن تكون تجارةً عن تراضٍ منكم)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن النهي وما ارتبط به من الاستثناء قد انتهى هنا، ثم جاءت جملةٌ معطوفةٌ تضمنت نهيًا آخر في أمرٍ مستقلٍ لا علاقة له بالأمر الأول في قوله (ولا تقتلوا أنفسكم)، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ولا تقتلوا أنفسكم)؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن جملة النهي قد انتهت هنا، ثم جاءت جملةٌ استثنائيةٌ مبدوءةٌ بـ (إنّ) في قوله (إن الله كان بكم رحيمًا)، فمن نظر إلى أن هذه الجملة استئنافيةٌ مستقلةٌ صحح الوقف هنا، ومن نظر إلى أن هذه الجملة تعليليةٌ للنهي السابق لم يصحح الوقف هنا، فكأن الله قال: لا تقتلوا أنفسكم لأن الله كان بكم رحيمًا، والأمر في هذا محتملٌ، والوقف أوجه، والله أعلم.

الآية التي تليها: (ومن يفعل ذلك عدوانًا وظلمًا فسوف نصليه نارًا) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة الشرط قد انتهت هنا، أداة الشرط في قوله (مَن)، وفعل الشرط (يفعل ذلك عدوانًا وظلمًا)، وجواب الشرط (فسوف نصليه نارًا)، ثم جاءت جملةٌ مستأنفةٌ مبدوءةٌ بـ (كان)، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

الآية التي تليها: (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله (وندخلكم مدخلاً كريمًا) فعلٌ مجزومٌ، ما الذي جزمه؟ جزمه العطف على جواب الشرط في قوله (نكفر عنكم)، فلم يصح الفصل بينهما، وإن كان من قبيل عطف الجمل، لما

سبق التنبيه عليه من أن الفعل المجزوم والمنصوب لا يصح الوقف قبله ولو كان من قبيل عطف الجمل، والله أعلم.

الآية التي تليها: (ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، وذلك أن جملة النهي قد انتهت هنا، ثم جاءت جملةٌ خبريةٌ مستأنفةٌ مكونةٌ من مبتدأ وخبر في قوله (للرجال نصيبٌ مما اكتسبوا)، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (للرجال نصيبٌ مما اكتسبوا)؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة قد انتهت ببيان حال الرجال، وتضمنت المبتدأ والخبر، ثم جاء ذكر حال النساء بجملةٍ معطوفةٍ متضمنةٍ مبتدأ وخبرا، فمن نظر إلى هذا صحح الوقف هنا، ومن نظر إلى أن المقصود من الآية بيان أن كلا من الرجال والنساء لهم نصيبٌ مما اكتسبوا لم يصحح الوقف هنا حتى ينتهي من بيان أن للنساء نصيبًا مما اكتسبن، والأمر في هذا محتملٌ، والوقف له وجهٌ، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وللنساء نصيبٌ مما اكتسبن)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الله سبحانه وتعالى بيّن بجملةٍ معترضةٍ أن الرجال والنساء لهم نصيبٌ مما اكتسبوا، ثم جاءت جملة أمرٍ بعد هذا الخبر في قوله (واسألوا الله من فضله)، وهذه الجملة معطوفةٌ على جملة (ولا تتمنوا)، فكأنه قال: لا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض، بل اسألوا الله من فضله، لكن لما جاءت بينهما جملةٌ معترضةٌ صح الفصل بينهما، وصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (واسألوا الله من فضله)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة الأمر قد انتهت هنا، ثم جاءت جملةٌ خبريةٌ مستأنفةٌ مبدوءةٌ بـ (إنّ) في قوله (إن الله كان بكل شيءٍ عليمًا)، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

الآية الأخيرة: (ولكلٍ جعلنا موالي مما ترك الوالدان والأقربون) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الله سبحانه وتعالى قد انتهى في الجملة من بيان أن لكل شخصٍ ورثةً وعصبةً يرثون ماله، ثم بين في جملةٍ مستأنفةٍ أنه يجب الالتزام بالعقود والعهود التي التزم الإنسان بها سابقًا، فصح الفصل بينهما، والله اعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة التي تضمنت الالتزام بالعقود تجاه من تحالفوا معهم قد انتهت هنا، ثم جاءت جملةٌ مستأنفةٌ مبدوءةٌ بـ (إنّ) في قوله (إن الله كان على كل شيءٍ شهيدًا) فصح الوقف هنا، والله أعلم.

هذا آخر ما في هذا المقطع، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يعلّمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علّمنا، وأن يزيدنا علمًا وعملاً وهدًى وتقًى، والله تعالى أعلم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله الرحمن الرحيم

فوائد ولطائف سورة النساء ٢٥-٣٣

(ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم...):

قال الطبري: فلينكح من لم يستطع منكم طولا لحرة من فتياتكم المؤمنات. لينكح هذا المقتر الذي لا يجد طولا لحرة، من هذا الموسر فتاته المؤمنة التي قد أبدت الإيمان فأظهرته، وكلوا سرائرهن إلى الله، فإن علم ذلك إلى الله دونكم، والله أعلم بسرائركم وسرائرهن. تفسير الطبري (٨/ ١٩١).

(والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض):

قال البغوي: والله أعلم بإيمانكم، أي: لا تتعرضوا للباطن في الإيمان، وخذوا بالظاهر، فإن الله أعلم بإيمانكم، (بعضكم من بعض)، قيل: بعضكم إخوة لبعض، وقيل: كلكم من نفس واحدة فلا تستنكفوا من نكاح الإماء. تفسير البغوي (١/ ٥٩٩).

(محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان)

عن ابن عباس قوله: (غير مسافحات)، المسافحات المعلنات بالزنا، (ولا متخذات أخدان) ذات الخليل الواحد، قال: كان أهل الجاهلية يحرمون ما ظهر من الزنا، ويستحلون ما خفي، يقولون: أما ما ظهر منه فهو لؤم، وأما ما خفي فلا بأس بذلك، فأنزل الله تبارك وتعالى: (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن). تفسير الطبري (٨/ ١٩٣).

(ذلك لمن خشي العنت منكم):

قال الطبري: الصواب من القول في قوله: (ذلك لمن خشي العنت منكم)، ذلك لمن خاف منكم ضررا في دينه وبدنه. وذلك أن العنت هو ما ضر الرجل... وقد عم الله بقوله: (لمن خشي العنت منكم)، جميع معاني العنت. ويجمع جميع ذلك الزنا، لأنه يوجب العقوبة على صاحبه في الدنيا بما يعنت بدنه، ويكتسب به إثما ومضرة في دينه ودنياه. وقد اتفق أهل التأويل الذين هم أهله، على أن ذلك معناه. فهو

وإن كان في عينه لذة وقضاء شهوة، فإنه بأدائه إلى العنت، منسوب إليه موصوف به، إن كان للعنت سببا. تفسير الطبري (٨/ ٢٠٦-٢٠٧).

وقال السعدي: الحاصل أنه لا يجوز للحر المسلم نكاح أمة إلا بأربعة شروط ذكرها الله: الإيمان بهن، والعفة ظاهرا وباطنا، وعدم استطاعة طول الحرة، وخوف العنت، فإذا تمت هذه الشروط جاز له نكاحهن. ومع هذا فالصبر عن نكاحهن أفضل لما فيه من تعريض الأولاد للرق، ولما فيه من الدناءة والعيب. وهذا إذا أمكن الصبر، فإن لم يمكن الصبر عن المحرم إلا بنكاحهن وجب ذلك. تفسير السعدي (ص: ١٧٤).

(والله غفور رحيم):

قال السعدي: ختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين (الغفور والرحيم) لكون هذه الأحكام رحمة بالعباد وكرما وإحسانا إليهم، فلم يضيق عليهم، بل وسع غاية السعة. ولعل في ذكر المغفرة بعد ذكر الحد إشارة إلى أن الحدود كفارات، يغفر الله بها ذنوب عباده كما ورد بذلك الحديث. تفسير السعدي (ص: ١٧٥).

(يريد الله ليبين لكم):

قال البغوي: (يريد الله ليبين لكم)، أي: أن يبين لكم، كقوله تعالى: (وأمرت لأعدل بينكم) أي: أن أعدل، وقوله: (وأمرنا لنسلم لرب العالمين)، وقال في موضع آخر (وأمرت أن أسلم). تفسير البغوي (١/ ٦٠١).

(ويهديكم سنن الذين من قبلكم):

قال الطبري: (سنن الذين من قبلكم)، يعني: سبل من قبلكم من أهل الإيمان بالله وأنبيائه، ومناهجهم فيما حرم عليكم من نكاح الأمهات والبنات والأخوات، وسائر ما حرم عليكم في الآيتين اللتين بين فيهما ما حرم من النساء. تفسير الطبري (٨/ ٢٠٩).

(ويتوب عليكم):

قال الطبري: (ويتوب عليكم) يقول: يريد الله أن يرجع بكم إلى طاعته في ذلك، مما كنتم عليه من معصيته في فعلكم ذلك قبل الإسلام، وقبل أن يوحي ما أوحى إلى نبيه من ذلك. تفسير الطبري (٨/ ٢٠٩).

وقال السعدي: {ويتوب عليكم} أي: يلطف لكم في أحوالكم وما شرعه لكم حتى تتمكنوا من الوقوف على ما حده الله، والاكتفاء بما أحله، فتقل ذنوبكم بسبب ما يسر الله عليكم، فهذا من توبته على عباده.
ومن توبته عليهم أنهم إذا أذنبوا فتح لهم أبواب الرحمة، وأوزع قلوبهم الإنابة إليه، والتذلل بين يديه، ثم يتوب عليهم بقبول ما وفقهم له، فله الحمد والشكر على ذلك. تفسير السعدي (ص: ١٧٥).

(ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما):

قال السعدي: يريدون أن يصرفوكم عن طاعة الرحمن إلى طاعة الشيطان، وعن التزام حدود مَن السعادة كلها في امتثال أوامره، إلى مَن الشقاوة كلها في اتباعه. فإذا عرفتم أن الله تعالى يأمركم بما فيه صلاحكم وفلاحكم وسعادتكم، وأن هؤلاء المتبعين لشهواتهم يأمرونكم بما فيه غاية الخسار والشقاء، فاختاروا لأنفسكم أولى الداعيين، وتخيروا أحسن الطريقتين. تفسير السعدي (ص: ١٧٥).

(وخُلق الإنسان ضعيفا):

قال طاووس والكلبي وغيرهما: في أمر النساء، لا يصبر عنهن، وقال ابن كيسان: (وخلق الإنسان ضعيفا) يستميله هواه وشهوته. تفسير البغوي (١/ ٦٠٢).
وقال وكيع: يذهب عقله عندهن (النساء). تفسير ابن كثير (٢/ ٢٦٧).

وقال زكريا الأنصاري: (نحن خلقناهم وشددنا أسرهم...) أي: خلقهم. فإن قلت: كيف قال ذلك هنا، وقال في النساء (وخُلق الإنسان ضعيفا)؟

قلت: قال ابن عباس وغيره: المراد به: ضعيف عن الصبر عن النساء، فلذلك أباح الله له نكاح الأمة، وقال الزجاج: معناه يغلبه هواه وشهوته، فلذلك وصف بالضعف. ومعنى قوله (وشددنا أسرهم) ربطنا أوصالهم بعضها إلى بعض بالعروق والأعصاب. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن (١/ ٥٩٣).

(يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم):

عن السدي: أما أكلهم أموالهم بينهم بالباطل فبالربا والقمار والبخس والظلم، (إلا أن تكون تجارة) ليربح في الدرهم ألفا إن استطاع. تفسير الطبري (٨/ ٢١٧).

وقال الطبري: في هذه الآية إبانة من الله تعالى ذكره عن تكذيب قول الجهلة من المتصوفة المنكرين طلب الأقوات بالتجارات والصناعات، والله تعالى يقول: (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم)، اكتسابا منا ذلك بها، كما قال قتادة قوله: (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم) قال: التجارة رزق من رزق الله، وحلال من حلال الله، لمن طلبها بصدقها وبرها. وقد كنا نحدث: أن التاجر الأمين الصدوق مع السبعة في ظل العرش يوم القيامة. تفسير الطبري (٨/ ٢٢٠-٢٢١).

وقال البغوي: (عن تراض منكم) هو أن يجيز كل واحد من المتبايعين صاحبه بعد البيع، فيلزم، وإلا فلهما الخيار ما لم يتفرقا... عن عبد الله بن عمر: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «المتبايعان كل واحد منهما بالخيار على صاحبه، ما لم يتفرقا». تفسير البغوي (١/ ٦٠٢).

وقال السعدي: ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل، وهذا يشمل أكلها بالغصوب والسرقات، وأخذها بالقمار والمكاسب الرديئة. بل لعله يدخل في ذلك أكل مال نفسك على وجه البطر والإسراف، لأن هذا من الباطل وليس من الحق. تفسير السعدي (ص: ١٧٥).

وقال السعدي: وشرط التراضي -مع كونها تجارة- لدلالة أنه يشترط أن يكون العقد غير عقد ربا؛ لأن الربا ليس من التجارة، بل مخالف لمقصودها، وأنه لا بد أن يرضى كل من المتعاقدين، ويأتي به اختيارا. ومن تمام الرضا أن يكون المعقود عليه معلوما، لأنه إذا لم يكن كذلك لا يتصور الرضا مقدورا على تسليمه، لأن غير المقدور عليه شبيه ببيع القمار، فبيع الغرر بجميع أنواعه خال من الرضا فلا ينفذ عقده. وفيها: أنه تنعقد العقود بما دل عليها من قول أو فعل، لأن الله شرط الرضا، فبأي طريق حصل الرضا انعقد به العقد. تفسير السعدي (ص: ١٧٦)

(ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما):

قال الطبري: وأما قوله جل ثناؤه: (إن الله كان بكم رحيما) فإنه يعني: إن الله تبارك وتعالى لم يزل رحيما بخلقه، ومن رحمته بكم كف بعضكم عن قتل بعض، أيها المؤمنون، بتحريم دماء بعضكم على بعض إلا بحقها، وحظر أكل مال بعضكم على بعض بالباطل، إلا عن تجارة يملك بها عليه برضاه وطيب نفسه، ولولا ذلك هلكتم وأهلك بعضكم بعضا قتلا وسلبا وغصبا. تفسير الطبري (٨/ ٢٢٩).

قال البغوي: (ولا تقتلوا أنفسكم)، قال أبو عبيدة: لا تهلكوها، كما قال: (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة)، وقيل: لا تقتلوا أنفسكم بأكل المال بالباطل، وقيل: أراد به قتل المسلم نفسه... عن ثابت بن الضحاك: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من قتل نفسه بشيء في الدنيا عذب به يوم القيامة»... وعن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خرج برجل فيمن كان قبلكم أراب، فجزع منه، فأخرج سكينا فحز بها يده، فما رقأ الدم حتى مات، فقال الله عز وجل: بادرني عبدي بنفسه، فحرمت عليه الجنة».

وقال الحسن: (ولا تقتلوا أنفسكم) يعني: إخوانكم، أي: لا يقتل بعضكم بعضا، إن الله كان بكم رحيما... قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع: «لا ترجعن بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض». تفسير البغوي (١/ ٦٠٢).

قال السعدي: {ولا تقتلوا أنفسكم} أي: لا يقتل بعضكم بعضا، ولا يقتل الإنسان نفسه. ويدخل في ذلك الإلقاء بالنفس إلى التهلكة، وفعل الأخطار المفضية إلى التلف والهلاك، {إن الله كان بكم رحيما} ومن رحمته أن صان نفوسكم وأموالكم، ونهاكم عن إضاعتها وإتلافها، ورتب على ذلك ما رتبه من الحدود.
وتأمل هذا الإيجاز والجمع في قوله: {لا تأكلوا أموالكم}، {ولا تقتلوا أنفسكم} كيف شمل أموال غيرك ومال نفسك، وقتل نفسك وقتل غيرك، بعبارة أخصر من قوله: لا يأكل بعضكم مال بعض، ولا يقتل بعضكم بعضا، مع قصور هذه العبارة على مال الغير ونفس الغير فقط.
مع أن إضافة الأموال والأنفس إلى عموم المؤمنين فيه دلالة على أن المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ومصالحهم كالجسد الواحد، حيث كان الإيمان يجمعهم على مصالحهم الدينية والدنيوية.
تفسير السعدي (ص: ١٧٥-١٧٦).

عن عمرو بن العاص قال: احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيممت، ثم صليت بأصحابي الصبح، فذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال: «يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب؟» فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال، وقلت إني سمعت الله يقول: (ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما)، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يقل شيئا. سنن أبي داود (١/ ٩٢)، مسند أحمد (٢٩/ ٣٤٧).

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من تردى من جبل فقتل نفسه، فهو في نار جهنم يتردى فيه خالدا مخلدا فيها أبدا، ومن تحسى سما فقتل نفسه، فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا، ومن قتل نفسه بحديدة، فحديدته في يده يجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا». صحيح البخاري (٧/ ١٣٩)، صحيح مسلم (١/ ١٠٣).

(إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم):
عن ابن مسعود قال: في خمس آيات من سورة النساء: لهن أحب إليّ من الدنيا جميعا: (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم)، وقوله: (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها)، وقوله:

(إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)، وقوله: (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما)، وقوله: (والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا رحيما). تفسير الطبري (٨/ ٢٥٥-٢٥٦)، المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ٣٣٤).

وعن ابن عباس قال: ثمان آيات نزلت في سورة النساء هي خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت، أولاهن: (يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم)، والثانية: (والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما)، والثالثة: (يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا)، ثم ذكر مثل قول ابن مسعود سواء. تفسير الطبري (٨/ ٢٥٧).

عن عبد الله بن مسعود قال: الكبائر من أول سورة النساء إلى ثلاثين منها. تفسير الطبري (٨/ ٢٣٣).

عن ابن عباس قوله: (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه)، قال: الكبائر: كل ذنب ختمه الله بنار، أو غضب، أو لعنة، أو عذاب. تفسير الطبري (٨/ ٢٤٦).

وقال ابن تيمية: الكبائر هي: ما فيها حد في الدنيا أو في الآخرة: كالزنا والسرقة والقذف التي فيها حدود في الدنيا. وكالذنوب التي فيها حدود في الآخرة وهو الوعيد الخاص. مثل الذنب الذي فيه غضب الله ولعنته أو جهنم؛ ومنع الجنة كالسحر واليمين الغموس والفرار من الزحف وعقوق الوالدين وشهادة الزور وشرب الخمر، ونحو ذلك. هكذا روي عن ابن عباس وسفيان بن عيينة وأحمد بن حنبل وغيرهم من العلماء. مجموع الفتاوى (١١/ ٦٥٨).

وقال ابن القيم: دل القرآن والسنة وإجماع الصحابة والتابعين بعدهم والأئمة، على أن من الذنوب كبائر وصغائر، قال الله تعالى: {إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما}،

وقال تعالى: {الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم}، وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر».

وهذه الأعمال المكفِّرة لها ثلاث درجات:

إحداها: أن تقصر عن تكفير الصغائر لضعفها وضعف الإخلاص فيها والقيام بحقوقها، بمنزلة الدواء الضعيف الذي ينقص عن مقاومة الداء كمية وكيفية.

الثانية: أن تقاوم الصغائر ولا ترتقي إلى تكفير شيء من الكبائر.

الثالثة: أن تقوى على تكفير الصغائر وتبقى فيها قوة تكفر بها بعض الكبائر.

فتأمل هذا فإنه يزيل عنك إشكالات كثيرة. الداء والدواء (ص: ١٢٥).

وقال زكريا الأنصاري: (ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها). إن قلت: كيف قال ذلك، مع أن الصغائر تكفر باجتناب الكبائر، لقوله تعالى: (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم)؟

قلت: الآية الأولى في حق الكافرين، بدليل قوله (فترى المجرمين)، والثانية في حق المؤمنين، لأن اجتناب الكبائر لا يتحقق مع الكفر. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن (١/ ٣٤٢).

وقال السعدي: ويدخل في اجتناب الكبائر فعل الفرائض التي يكون تاركها مرتكبا كبيرة، كالصلوات الخمس، والجمعة، وصوم رمضان. تفسير السعدي (ص: ١٧٦).

عن عثمان قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها، إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم يؤت كبيرة وذلك الدهر كله). صحيح مسلم (١/ ٢٠٦).

وعن أبي هريرة، وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما، يقولان: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر فقال: «والذي نفسي بيده»، ثلاث مرات، ثم سكت، فأكب كل رجل منا يبكي حزينا ليمين رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: «ما من عبد يأتي بالصلوات الخمس، ويصوم رمضان، ويجتنب الكبائر السبع، إلا فتحت له أبواب الجنة يوم القيامة، حتى أنها لتصطفق» ثم تلا: {إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه، نكفر عنكم سيئاتكم}. سنن النسائي (٥/ ٨)، صحيح ابن خزيمة (١/ ١٦٣)، المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ٢٦٢).

بعض الكبائر الواردة في السنة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «اجتنبوا السبع الموبقات»، قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات». صحيح البخاري (٤/ ١٠)، صحيح مسلم (١/ ٩٢).

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» ثلاثا، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين - وجلس وكان متكئا فقال - ألا وقول الزور»، قال: فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت. صحيح البخاري (٣/ ١٧٢)، صحيح مسلم (١/ ٩١).

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، ما الكبائر؟ قال: «الإشراك بالله» قال: ثم ماذا؟ قال: «ثم عقوق الوالدين» قال: ثم ماذا؟ قال: «اليمين الغموس» قلت: وما اليمين الغموس؟ قال: «الذي يقتطع مال امرئ مسلم، هو فيها كاذب». صحيح البخاري (٩/ ١٤).

عن أنس، عن النبي صلى الله عليه وسلم في الكبائر، قال: «الشرك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، وقول الزور» صحيح البخاري (٣/ ١٧٢)، صحيح مسلم (١/ ٩١).

عن عبد الله بن عمرو، رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه» قيل: يا رسول الله، وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: «يسب الرجل أبا الرجل، فيسب أباه، ويسب أمه». صحيح البخاري (٨/ ٣)، صحيح مسلم (١/ ٩٢).

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الذنب عند الله أكبر، قال: «أن تجعل لله ندا وهو خلقك» قلت: ثم أي؟ قال: «ثم أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك» قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني بحليلة جارك» قال: ونزلت هذه الآية تصديقا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: {والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون} . صحيح البخاري (٦/ ١٠٩)، صحيح مسلم (١/ ٩١).

(ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض):

سبب النزول: قالت أم سلمة: يا رسول الله، يغزو الرجال، ولا نغزو، ولنا نصف الميراث؟ فأنزل الله: {ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض} . مسند أحمد (٤٤/ ٣٢٠)، سنن الترمذي (٥/ ٨٧).

عن قتادة قوله: (ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن)، كان أهل الجاهلية لا يورثون المرأة شيئا ولا الصبي شيئا، وإنما يجعلون الميراث لمن يحترف وينفع ويدفع. فلما نجز للمرأة نصيبها وللصبي نصيبه، وجعل للذكر مثل حظ الأنثيين، قال النساء: لو كان جعل أنصباءنا في الميراث كأنصباء الرجال! وقال الرجال: إنا لنرجو أن نفضل على النساء بحسناتنا في الآخرة، كما فضلنا عليهن في الميراث! فأنزل الله: (للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن)، يقول: المرأة تجزى بحسنتها عشر أمثالها، كما يجزى الرجل، قال الله تعالى: (واسألوا الله من فضله). تفسير الطبري (٨/ ٢٦٥).

وقال البغوي: نهى الله تعالى عن التمني لما فيه من دواعي الحسد، والحسد أن يتمنى زوال النعمة عن صاحبه سواء تمناها لنفسه أم لا، وهو حرام، والغبطة أن يتمنى لنفسه مثل ما لصاحبه، وهو جائز. قال الكلبي: لا يتمنى الرجل مال أخيه ولا امرأته ولا خادمه، ولكن ليقل: اللهم ارزقني مثله. تفسير البغوي (١/ ٦٠٩).

وقال ابن جُزي: نزلت نهيا عن ذلك؛ لأن في تمنيهم ردا على حكم الشريعة، فيدخل في النهي تمني مخالفة الأحكام الشرعية كلها. تفسير ابن جزي (١/ ١٩٠)

وقال ابن كثير: عن ابن عباس: قوله: {ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض} قال: ولا يتمنى الرجل فيقول: ليت لو أن لي مال فلان وأهله! فنهى الله عن ذلك، ولكن يسأل الله من فضله. وكذا قال محمد بن سيرين والحسن والضحاك وعطاء نحو ذلك. وهو الظاهر من الآية.

ولا يرد على هذا ما ثبت في الصحيح: (لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، فيقول رجل: لو أن لي مثل مال فلان لعملت مثله. فهما في الأجر سواء)، فإن هذا شيء غير ما نهت الآية عنه، وذلك أن الحديث حضّ على تمني مثل نعمة هذا، والآية نهت عن تمني عين نعمة هذا، فقال: {ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض} أي: في الأمور الدنيوية، وكذا الدينية أيضا، لحديث أم سلمة، وابن عباس. تفسير ابن كثير (٢/ ٢٨٧).

وقال السعدي: ينهى تعالى المؤمنين عن أن يتمنى بعضهم ما فضل الله به غيره من الأمور الممكنة وغير الممكنة. فلا تتمنى النساء خصائص الرجال التي بها فضلهم على النساء، ولا صاحب الفقر والنقص حالة الغنى والكمال تمنيا مجردا؛ لأن هذا هو الحسد بعينه، تمني نعمة الله على غيرك أن تكون لك ويسلب إياها. ولأنه يقتضي السخط على قدر الله والإخلاد إلى الكسل والأماني الباطلة التي لا يقترن بها عمل ولا كسب. وإنما المحمود أمران: أن يسعى العبد على حسب قدرته بما ينفعه من مصالحه الدينية والدنيوية، ويسأل الله تعالى من فضله، فلا يتكل على نفسه ولا على غير ربه. تفسير السعدي (ص: ١٧٦).

وقال الألوسي: لما نهى الله تعالى المؤمنين عن أكل أموال الناس بالباطل وقتل الأنفس عقبه بالنهي عما يؤدي إليه من الطمع في أموالهم، وقيل: نهاهم أولا عن التعرض لأموالهم بالجوارح، ثم عن التعرض لها بالقلب على سبيل الحسد، لتطهر أعمالهم الظاهرة والباطنة. روح المعاني (٣/ ١٩).

(واسألوا الله من فضله):

قال البغوي: (واسألوا الله من فضله) أي: من رزقه، وقال سعيد بن جبير: من عبادته، فهو سؤال التوفيق للعبادة، وقال سفيان بن عيينة: لم يأمر بالمسألة إلا ليعطي. تفسير البغوي (١/ ٦٠٩).

وقال البغوي: من يتمنى شيئا مباحا من أمر دنياه وآخرته، فليكن فزعه فيه إلى الله عز وجل، ومسألته منه، وإن عظمت أمنيته، قال الله عز وجل: {واسألوا الله من فضله} . شرح السنة للبغوي (٥/ ٢٠٨).

وقال ابن كثير: {واسألوا الله من فضله} أي: لا تتمنوا ما فضل به بعضكم على بعض، فإن هذا أمر محتوم، والتمني لا يجدي شيئا، ولكن سلوني من فضلي أعطكم؛ فإني كريم وهاب. وقد روى الترمذي... عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (سلوا الله من فضله؛ فإن الله يحب أن يُسأل، وإن أفضل العبادة انتظار الفرج). تفسير ابن كثير (٢/ ٢٨٧).

(ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالدان والأقربون):

قال ابن زيد في قوله: (ولكل جعلنا موالي)، قال: الموالي: العصبة. هم كانوا في الجاهلية الموالي، فلما دخلت العجم على العرب لم يجدوا لهم اسما، فقال الله تبارك وتعالى: (فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم)، فسموا: الموالي، قال: والمولى اليوم موليان: مولى يرث ويورث، فهؤلاء ذوو الأرحام، ومولى يورث ولا يرث، فهؤلاء العتاقة. وقال: ألا ترون قول زكريا: (وإني خفت الموالي من ورائي)؟ فالموالي ههنا الورثة. تفسير الطبري (٨/ ٢٧١).

(والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم):

عن ابن عباس: {ولكل جعلنا موالي} قال: ورثة، {والذين عقدت أيمانكم} كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري، دون ذوي رحمه؛ للأخوة التي آخى النبي صلى الله عليه وسلم بينهم، فلما نزلت {ولكل جعلنا موالي} نسخت، ثم قال: {والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم} من النصر والرفادة والنصيحة، وقد ذهب الميراث، ويوصي له. صحيح البخاري (٦/ ٤٤).

وقال البغوي: ومحالفتهم أن الرجل كان في الجاهلية يعاقد الرجل فيقول: دمي دمك، وهدمي هدمك، وثأري ثأرك، وحربي حربك، وسلمي سلمك، وترثني وأرثك، وتطلب بي وأطلب بك، وتعقل عني وأعقل عنك، فيكون للحليف السدس من مال الحليف، وكان ذلك ثابتا في ابتداء الإسلام، فذلك قوله تعالى: (فآتوهم نصيبهم) أي: أعطوهم حظهم من الميراث، ثم نُسخ ذلك بقوله تعالى: (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله).

وقال إبراهيم ومجاهد: أراد فآتوهم نصيبهم من النصر والرفد، ولا ميراث لهم، وعلى هذا تكون هذه الآية غير منسوخة لقوله تعالى: (أوفوا بالعقود).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبته يوم فتح مكة: «لا تحدثوا حلفا في الإسلام، وما كان من حلف في الجاهلية فتمسكوا فيه فإنه لم يزده الإسلام إلا شدة»...

وقال سعيد بن المسيب: كانوا يتوارثون بالتبني، وهذه الآية فيه، ثم نسخ. تفسير البغوي (١/ ٦٠٩- ٦١٠).

بسم الله الرحمن الرحيم

العمل بالآيات من سورة النساء ٢٥-٣٣

١- لا تُعجب بنفسك وحسبك ونسبك، فالعبرة بطاعتك وتقواك، ولا تغترّ بصلاحك وإيمانك، فالله أعلم بحقيقة إيمانك، وبما في قلبك ونيتك، وبما تؤول إليه حالك في الدنيا والآخرة، واعلم أنك مهما بلغت من صلاح وتقوى فلن تؤدي شكر بعض نعم الله عليك، فاعترف بتقصيرك، واسأل الله العون على طاعته، وعامل الناس بما يظهر من حالهم، ودعْ سرائرهم إلى الله (والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض).

٢- ما أجمل العفاف في المرأة المؤمنة! وما أعظمه منها في زمن الفتن والملهيات! فذاك أساس صلاحها وعنوان طهارتها، ولذلك لم يُبح الله للرجل إلا زواج العفيفة حرة كانت أو مملوكة (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات)، (محصَنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان).

٣- ما أرحم الله! وما أكرمه! وما ألطفه! يبيّن لنا أحكامه بيانا واضحا حتى لا نخالفها، ويخفف علينا في تشريعاته لضعفنا وعجزنا حتى لا نقع في الحرج والإثم، وبعد هذا كله يوفّقنا للتوبة إن أخطأنا، ويقبل منا توبتنا، فمهما عظمت ذنوبك فتُب إلى الله فإنه يريد أن يتوب عليك، ويحب التوابين (ذلك لمن خشي العنت منكم)، (يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم)، (يريد الله أن يخفف عنكم وخُلق الإنسان ضعيفا).

٤- احذر من موافقة ومتابعة متّبعي الشهوات، الداعين لها، المروّجين لها، واعلم أن المبتلى بالشهوات يودّ أن يكون الناس كلهم مثله حتى يقدر على المجاهرة بها دون حياء من أحد، واعلم أن متّبعي الشهوات قد يزخرفون قولهم بالاستدلال بالمتشابه من أدلة القرآن والسنة ليغترّ بهم الجهلة، فما أعظم فتنتهم في هذا الزمان! واعلم أن متابعتهم في بعض أقوالهم قد يقودك شيئا فشيئا إلى الانسلاخ من الدين، فانجُ بدينك، فإنه رأس مالك، وقدّم ما يريده الله على ما يريده المفتونون بالشهوات (والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتّبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما).

٥- اعلم أن من أعظم فتن هذا الزمان فتنةَ المال، فكم قاد حب المال إلى أكل أموال الناس بالباطل؟ بالربا والسرقة والغصب والقمار والغش والخداع وجحد الحقوق، فالحذر الحذر من ذلك،

واعلم أن حقوق الآدميين يوم القيامة ستؤخذ من حسناتك أحوجَ ما تكون إلى حسنة تنجو بها من النار، واسأل الله السلامة والعافية (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل).

٦- لا يجوز للمسلم أن يقتل نفسه أو أخاه المسلم، ولا أن يعرّض نفسه أو أخاه المسلم للمخاطر التي قد تؤدّي إلى الهلاك لا جادًّا ولا مازحا، فإن عقوبة ذلك عند الله عظيمة (ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما * ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا وكان ذلك على الله يسيرا).

٧- من رحمة الله بنا أنه يغفر لنا صغار سيئاتنا إذا اجتنبنا كبائرها، فاحرص على معرفة كبائر الذنوب واجتنابها، حتى تكون صحيفتك نقية من الذنوب، فتنال إكرام الله ورحمته (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما).

٨- عوّد نفسك على عدم النظر إلى ما عند الآخرين من متاع الدنيا، وما تميّزوا به من الخصائص والمميزات، فإن ذلك لا ينفعك شيئا، ولا تنتقل به النعمة إليك، بل يغرس في قلبك الحسد للناس، والتسخط على قدر الله، وكلاهما مهلك لصاحبه، ولكن عوّد نفسك على النظر إلى من هو دونك من أهل الفقر والبلاء والأمراض، وإذا رأيت نعمة على أحد فافرح بنعمة الله على أخيك، واسأل الله من فضله، فهو الكريم الوهّاب (ولا تتمنّوا ما فضّل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شيء عليما).

٩- اعلم أن الله بكل شيء عليم، وعلى كل شيء شهيد، فهو عليم بما يصلح لك ولغيرك، وبما يحفظ لك دينك قبل دنياك، ثمّ هو سبحانه مطّلع على أعمالك وإراداتك، فراقبه في كل عمل (إن الله كان بكل شيء عليما)، (إن الله كان على كل شيء شهيدا).

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة النساء (٣٤-٤٣) من التفسير الميسّر

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (٣٤)

الرجال قوَّامون على توجيه النساء ورعايتهن، بما خصهم الله به من خصائص القِوامَة والتفضيل، وبما أعطوهن من المهور والنفقات. فالصالحات المستقيمات على شرع الله منهن، مطيعات لله تعالى ولأزواجهن، حافظات لكل ما غاب عن علم أزواجهن بما اؤتمنَّ عليه بحفظ الله وتوفيقه، واللاتي تخشون منهن ترفُّعهن عن طاعتكم، فانصحوهن بالكلمة الطيبة، فإن لم تثمر معهن الكلمة الطيبة، فاهجروهن في الفراش، ولا تقربوهن، فإن لم يؤثر فعل الهِجْران فيهن، فاضربوهن ضربًا لا ضرر فيه، فإن أطعنكم فاحذروا ظلمهن، فإن الله العليَّ الكبير وليُّهن، وهو منتقم ممَّن ظلمهنَّ وبغى عليهن.

وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا (٣٥)

وإن علمتم -يا أولياء الزوجين- شقاقًا بينهما يؤدي إلى الفراق، فأرسلوا إليهما حكمًا عدلا من أهل الزوج، وحكمًا عدلا من أهل الزوجة؛ لينظرا ويحكما بما فيه المصلحة لهما، وبسبب رغبة الحكمين في الإصلاح، واستعمالهما الأسلوب الطيب يوفق الله بين الزوجين. إن الله تعالى عليم، لا يخفى عليه شيء من أمر عباده، خبير بما تنطوي عليه نفوسهم.

وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (٣٦)

واعبدوا الله وانقادوا له وحده، ولا تجعلوا له شريكًا في الربوبية والعبادة، وأحسنوا إلى الوالدين، وأدُّوا حقوقهما، وحقوق الأقربين، والأولاد الذين مات آباؤهم وهم دون سن البلوغ، والمحتاجين الذين لا يملكون ما يكفيهم ويسد حاجتهم، والجار القريب منكم والبعيد، والرفيق في السفر وفي الحضر، والمسافر

المحتاج، والمماليك من فتيانكم وفتياتكم. إن الله تعالى لا يحب المتكبرين من عباده، المفتخرين على الناس.

الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (٣٧)

الذين يمتنعون عن الإنفاق والعطاء مما رزقهم الله، ويأمرون غيرهم بالبخل، ويجحدون نِعَمَ الله عليهم، ويخفون فضله وعطاءه. وأعددنا للجاحدين عذابًا مخزيًا.

وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (٣٨)

وأعتدنا هذا العذاب كذلك للذين ينفقون أموالهم رياءً وسمعةً، ولا يصدقون بالله اعتقادًا وعملا ولا بيوم القيامة. وهذه الأعمال السيئة مما يدعو إليها الشيطان. ومن يكن الشيطان له ملازمًا فبئس الملازم والقرين.

وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ وَكَانَ اللهُ بِهِمْ عَلِيمًا (٣٩)

وأيُّ ضرر يلحقهم لو صدَّقوا بالله واليوم الآخر اعتقادًا وعملا وأنفقوا مما أعطاهم الله باحتساب وإخلاص، والله تعالى عليم بهم وبما يعملون، وسيحاسبهم على ذلك.

إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠)

إن الله تعالى لا ينقص أحدًا من جزاء عمله مقدار ذرة، وإن تكن زنة الذرة حسنة فإنه سبحانه يزيدها ويكثرها لصاحبها، ويتفضل عليه بالمزيد، فيعطيه من عنده ثوابًا كبيرًا هو الجنة.

فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (٤١)

فكيف يكون حال الناس يوم القيامة، إذا جاء الله من كل أمة برسولها ليشهد عليها بما عملت، وجاء بك - أيها الرسول- لتكون شهيدًا على أمتك أنك بلغتهم رسالة ربِّك؟

يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا (٤٢)

يوم يكون ذلك، يتمنى الذين كفروا بالله تعالى وخالفوا الرسول ولم يطيعوه، لو يجعلهم الله والأرض سواء، فيصيرون ترابًا، حتى لا يبعثوا وهم لا يستطيعون أن يُخفوا عن الله شيئًا مما في أنفسهم، إذ ختم الله على أفواههم، وشَهِدَتْ عليهم جوارحهم بما كانوا يعملون.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا (٤٣)

يا أيها الذين صدَّقوا بالله ورسوله وعملوا بشرعه، لا تقربوا الصلاة ولا تقوموا إليها حال السكر حتى تميزوا وتعلموا ما تقولون (وقد كان هذا قبل التحريم القاطع للخمر في كل حال) ، ولا تقربوا الصلاة إن أصابكم الحدث الأكبر، ولا تقربوا كذلك مواضعها وهي المساجد، إلا من كان منكم مجتازًا من باب إلى باب، حتى تتطهروا بالاغتسال. وإن كنتم في حال مرض لا تقدرون معه على استعمال الماء، أو حال سفر، أو جاء أحد منكم من الغائط، أو جامعتم النساء، فلم تجدوا ماء للطهارة فاقصدوا ترابًا طاهرًا، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه. إن الله تعالى كان كثير العفو يتجاوز عن سيئاتكم، ويسترها عليكم.

بسم الله الرحمن الرحيم

معاني كلمات سورة النساء (٣٤-٤٣)

الكلمة	المعنى
قَوَّامُون على النّساء	قائمون بشؤون النساء ومصالحهنّ
قَانِتَات	مطيعات لله ثم لأزواجهنّ
حَافِظَات لِلغَيب	حافظات للعِرض والمال في غَيبة أزواجهن
بِمَا حَفِظَ الله	بحفظ الله وتوفيقه لهنّ
نُشُوزَهُنّ	عِصيانهنّ وترفُّعَهنّ عن طاعتكم
في المضَاجِع	في الفِراش
وإن خِفتُم	وإن علِمتُم أو توقّعتم
والجارِ الجُنُب	والجار البعيد عنك نسَبًا
والصاحب بِالجَنب	والرفيق في الحضر والسفر
وابنِ السّبيل	والمسافر المحتاج
وما مَلَكت أيمانُكُم	وعبيدِكم وإمائِكم
مُختالًا	متكبّرا مُعجَبًا بنفسه
فَخُورًا	كثير المدح لنفسه تعاليا على الناس
قَرِينًا	صاحبا مُلازِما
وماذا عَلَيْهِم؟	وأيُّ ضرر يلحقهم؟
لو تُسوّى بهم الأرض	لو يصيرون ترابا فيكونون هم والأرضَ سواءً
عابِرِي سبيل	مجتازِين من جهة إلى جهة
مِنَ الغَائِط	من قضاء الحاجة
لامَسْتُم النّساء	جامعتم النساء
فتيَمّمُوا	فاقصِدوا
صَعِيدا طَيِّبا	ترابا طاهرا
عفُوّا	كثير العفو عن عباده

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقف والابتداء في سورة النساء ٣٤-٤٣

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذه الفقرة المتعلقة بالوقف والابتداء في الآيات من سورة النساء من الآية الرابعة والثلاثين وحتى الآية الثالثة والأربعين.

أبدأ بالآية الأولى وهي قول الله تعالى (الرجال قوّامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله (وبما أنفقوا من أموالهم) تتمةٌ في بيان سبب قوامة الرجال على النساء، فالله سبحانه وتعالى بيّن سبب هذه القوامة بجملتين، الجملة الأولى في قوله (بما فضّل الله بعضهم على بعض)، والجملة الثانية في قوله (وبما أنفقوا من أموالهم)، فلا يصح الوقف قبل إتمام بيان سبب القوامة، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وبما أنفقوا من أموالهم)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة التي تضمنت قوامة الرجال على النساء وسبب ذلك قد انتهت هنا، ثم جاءت جملةٌ مستأنفةٌ متضمنةٌ مبتدأ وخبرا في قوله (فالصالحات قانتات)، فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (حافظاتٌ للغيب بما حفظ الله)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الله سبحانه وتعالى ذكر صنفين من النساء:

الصنف الأول: في قوله (فالصالحات قانتاتٌ حافظاتٌ للغيب بما حفظ الله)، وانتهى ذكرهن هنا.

والصنف الثاني: في قوله (واللاتي تخافون نشوزهنّ) وهذا الصنف الثاني جاء ذكره بجملةٍ معطوفةٍ لكنها مستقلةٌ، دل على استقلالها أنها قد ارتبط بها كلمات معطوفة تضمنت كيفية التعامل مع هذا الصنف من النساء، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فعِظُوهنّ واهجروهنّ في المضاجع واضربوهنّ)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الصنف الثاني من النساء وهي الناشز التي ابتدأ ذكرها بقوله (واللاتي تخافون نشوزهن) انتهى ما يتعلق بكيفية التعامل معها إذا استمرت في نشوزها، ثم جاءت جملةٌ شرطيةٌ جاء معها فاء التعقيب أو هي فاءٌ استئنافيةٌ في قوله (فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا)،

وهذه حالٌ أخرى تتعلق بهذه المرأة الناشز، وهي حال أنها انتقلت من النشوز إلى الطاعة، فهذه حالٌ مستقلةٌ جاءت في جملةٍ شرطيةٍ، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فلا تبغوا عليهن سبيلا)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة الشرط قد انتهت هنا بفعلها وجوابها، ثم جاءت جملةٌ مستأنفةٌ في قوله (إن الله كان عليًّا كبيرًا)، وهي مبدوءةٌ بـ (إنّ) التي لها الصدارة في الكلام، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكمًا من أهله وحكمًا من أهلها) هل يصح الوقف هنا؟

جوز الوقف هنا السجاوندي وحده دون غيره من علماء الوقف والابتداء، وعلّل ذلك بأن قوله (إنْ) في الجملة التي تليها (إنْ يريدا إصلاحًا) للشرط، يعني أنه قد جاءت جملةٌ شرطيةٌ بعدها، وذلك في قوله (إن يريدا إصلاحًا)، وهذه الجملة الشرطية قد جاءت بعد انتهاء الجملة الشرطية الأولى في قوله (وإن خفتم شقاق بينهما)، جواب الشرط (فابعثوا حكمًا من أهله وحكمًا من أهلها)، وانتهى معها الحكم الأساسي في الإتيان بحكمٍ من الطرفين، ثم جاءت جملةٌ شرطيةٌ جديدةٌ في بيان أن هذين الحكمين إن أرادا الإصلاح وفق الله بينهما، فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

ثم هل يصح الوقف على قوله (إن يريدا إصلاحًا يوفّق الله بينهما)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة الشرط قد انتهت هنا، ثم جاءت جملةٌ مستأنفةٌ مبدوءةٌ بـ (إنّ) فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، على استئناف ما بعده يعني: أن قوله (وبالوالدين إحسانًا) مستأنفٌ على تقدير: وأحسنوا بالوالدين إحسانًا، ووجه هذا الاستئناف أنه قد انتهى حق الله سبحانه وتعالى، وابتدأ ما يتعلق بحقوق المخلوقين، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

ثم لا وقف من قوله (وبالوالدين إحسانًا) إلى قوله (وما ملكت أيمانكم)؛ لأنها كلماتٌ معطوفةٌ على بعضها، وهي متضمنةٌ الأمر بالإحسان المذكور في الجملة الأولى في قوله (وبالوالدين إحسانًا) فلم يصح الفصل بينها، والله أعلم.

ثم يصح الوقف على قوله (وما ملكت أيمانكم) كما نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، لأن الذين جاء الأمر بالإحسان إليهم قد انتهى ذكرهم هنا، ثم جاءت جملةٌ مستأنفةٌ مبدوءةٌ بـ (إنّ) فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ولم يصح الوقف قبل هذا لأن هذه الصفات الثلاث إنما ذموا بجمعهم لها، ثم صح الوقف بعدها في نهاية ذكر هذه الصفات، لأنه جاء بعدها الجزاء بجملةٍ فعليةٍ مستأنفةٍ في قوله (وأعتدنا للكافرين عذابًا مهينًا)، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة التي قبله في قوله (والذين ينفقون أموالهم) تضمنت مبتدأ خبره محذوفٌ تقديره: فأولئك قرينهم الشيطان، كما نص عليه السجاوندي، ثم جاءت جملةٌ شرطيةٌ مستأنفةٌ في قوله (ومن يكن الشيطان له قرينًا فساء قرينًا) فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نصّ عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة الاستفهامية قد انتهت هنا، ثم جاءت جملةٌ مستأنفةٌ مبدوءةٌ بـ (كان)، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (إنّ الله لا يظلم مثقال ذرة) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة (إنّ) قد انتهت هنا، ثم جاءت جملةٌ شرطيةٌ في قوله (وإن تك حسنةً يضاعفها) هذا من ناحيةٍ لفظيةٍ، ومن ناحية معنوية ذكر الله سبحانه وتعالى أنه لا يظلم مثقال ذرة، فلا يحمّل أحدا سيئة لم يعملها، ولا يجازيه بشيء لم يقترفه، ثم بيّن أنه يكرم المؤمنين بمضاعفة حسناتهم، فصح الفصل بين الجملتين، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (وإن تك حسنة يضاعفها)؟

الجواب: لا يصح؛ لأن قوله (ويؤت من لدنه أجرا عظيما) جملة معطوفة على جواب الشرط، مجزومة مثلها، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

ثم لا وقف في قوله (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا)؛ لأنها تضمنت جملة استفهام من أول الآية إلى آخرها.

الآية التي تليها (يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوّى بهم الأرض) هل يصح الوقف هنا؟
نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، على اعتبار أن قوله (ولا يكتمون الله حديثا) جملة مستأنفة غير داخلة في التمني -فيما يودونه- فهم يودون أنهم لو تسوى بهم الأرض فيكونون ترابا، ثم قال (ولا يكتمون الله حديثا) يعني ولا يستطيعون أن يكتموا الله حديثا؛ لأن جوارحهم تشهد عليهم بأعمالهم، فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.
الآية التي تليها (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون) هل يصح الوقف هنا؟
الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأنه جاء بعدها جملة معطوفة عليها في قوله (ولا جنبا إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا)، وهذه الجملة لا تستقيم بنفسها؛ لأنها مرتبطة بقوله (لا تقربوا الصلاة) فتقديرها: ولا تقربوا الصلاة وأنتم في حال الجنابة إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.
وهل يصح الوقف على قوله (حتى تغتسلوا)؟
الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجه ذلك: أن النهي في قوله (لا تقربوا الصلاة) وما ارتبط به من الحالَيْنِ التي نهي عن قربان الصلاة عندها قد انتهى هنا، ثم جاءت جملة شرطية مستأنفة لبيان حكم جديد، وهو ما يتعلق بالتيمم، في قوله (وإن كنتم مرضى) إلى آخر الجملة، فصح الوقف هنا، والله أعلم.
ثم لا وقف من قوله (وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم) إلى هنا، لماذا؟ لأنها كلمات وجمل معطوفة على فعل الشرط، وهي كلها تنتظر جواب الشرط، ولم يأت جواب الشرط إلا في قوله (فتيمموا صعيدا طيبا) فلم يصح الوقف قبل جواب الشرط، ثم بيّن كيفية هذا التيمم في قوله (فامسحوا بوجوهكم وأيديكم) فلم يصح الوقف إلا على قوله (وأيديكم) هنا انتهت جملة الشرط وما ارتبط بها، ثم جاءت جملة مستأنفة مبدوءة بإنّ فصح الوقف هنا، كما نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء.
هذا آخر ما في هذا المقطع، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يعلّمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علّمنا، وأن يزيدنا علمًا وعملاً وهدًى وتقًى، والله تعالى أعلم.
وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله الرحمن الرحيم

فوائد ولطائف سورة النساء ٣٤-٤٣

(الرجال قوّامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم):

سبب النزول: عن الحسن: أن رجلا لطم امرأته، فأتت النبي صلى الله عليه وسلم، فأراد أن يقصّها منه، فأنزل الله: (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم)، فدعاه النبي صلى الله عليه وسلم فتلاها عليه، وقال: (أردت أمرا وأراد الله غيره). تفسير الطبري (٨/ ٢٩١).

عن ابن عباس قوله: (الرجال قوامون على النساء)، يعني: أمراء، عليها أن تطيعه فيما أمرها الله به من طاعته، وطاعته: أن تكون محسنة إلى أهله، حافظة لماله، وفضله عليها: بنفقته وسعيه. تفسير الطبري (٨/ ٢٩٠).

وقال ابن كثير: الرجل قيم على المرأة، أي: هو رئيسها وكبيرها والحاكم عليها ومؤدبها إذا اعوجت {بما فضل الله بعضهم على بعض}، أي: لأن الرجال أفضل من النساء، والرجل خير من المرأة؛ ولهذا كانت النبوة مختصة بالرجال، وكذلك المُلك الأعظم؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: (لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة) رواه البخاري... وكذا منصب القضاء وغير ذلك. تفسير ابن كثير (٢/ ٢٩٢)

وقال السعدي: تفضيل الرجال على النساء من وجوه متعددة: من كون الولايات مختصة بالرجال، والنبوة، والرسالة، واختصاصهم بكثير من العبادات كالجهاد والأعياد والجمع، وبما خصهم الله به من العقل والرزانة والصبر والجلد الذي ليس للنساء مثله، وكذلك خصهم بالنفقات على الزوجات، بل وكثير من النفقات يختص بها الرجال ويتميزون عن النساء. تفسير السعدي (ص: ١٧٧).

(فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله):

عن السدي: (فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله) فأحسنوا إليهن. تفسير الطبري (٨/ ٢٩٧).

وقال ابن تيمية: المرأة إذا تزوجت كان زوجها أملك بها من أبويها، وطاعة زوجها عليها أوجب، قال الله تعالى: {فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله}، وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة، إذا نظرت إليها سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك». وفي صحيح ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحصنت فرجها، وأطاعت بعلها دخلت من أي أبواب الجنة شاءت». وفي الترمذي، عن أم سلمة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أيما امرأة ماتت وزوجها راض عنها دخلت الجنة». أخرجه الترمذي: حديث حسن، وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها» أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن، وأخرجه أبو داود، ولفظه: «لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن لما جعل الله لهم عليهن من الحقوق». الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٣/ ١٤٦).

وقال السعدي: (بما حفظ الله) وذلك بحفظ الله لهن وتوفيقه لهن، لا من أنفسهن، فإن النفس أمارة بالسوء، ولكن من توكل على الله كفاه ما أهمه من أمر دينه ودنياه. تفسير السعدي (ص: ١٧٧).

(واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن):

عن حكيم بن معاوية، عن أبيه: أنه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال: «أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، أو اكتسبت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت». مسند أحمد (٣٣/ ٢١٧)، سنن أبي داود (٢/ ٢٤٤).

عن إياس بن عبد الله بن أبي ذباب، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تضربوا إماء الله» فجاء عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ذئرن النساء على أزواجهن، فرخّص في ضربهن، فأطاف بآل رسول الله صلى الله عليه وسلم نساء كثير يشكون أزواجهن، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لقد طاف بآل محمد نساء كثير يشكون أزواجهن ليس أولئك بخياركم». سنن أبي داود (٢/ ٢٤٥).

وعن محمد بن كعب القرظي قال: إذا رأى الرجل خفة في بصرها، ومدخلها ومخرجها. قال يقول لها بلسانه: قد رأيت منك كذا وكذا، فانتهي! فإن أعتبت، فلا سبيل له عليها. وإن أبت، هجر مضجعها. تفسير الطبري (٨/ ٣٠١)

وقال البغوي: (واهجروهن)، يعني: إن لم ينزعن عن ذلك بالقول فاهجروهن في المضاجع، قال ابن عباس: يوليها ظهره في الفراش ولا يكلمها، وقال غيره: يعتزل عنها إلى فراش آخر. تفسير البغوي (١/ ٦١٣).

وقال أيضا: وظاهر الآية يدل على أن الزوج يجمع عليها بين الوعظ والهجران والضرب، فذهب بعضهم إلى ظاهرها وقال: إذا ظهر منها النشوز جمع بين هذه الأفعال، وحمل الخوف في قوله (واللاتي تخافون نشوزهن)، على العلم كقوله تعالى: (فمن خاف من موص جنفا) أي: علم.
ومنهم من حمل الخوف على الخشية لا على حقيقة العلم، كقوله تعالى: (وإما تخافن من قوم خيانة)، وقال: هذه الأفعال على ترتيب الجرائم، فإن خاف نشوزها بأن ظهرت أمارته منها من المخاشنة وسوء الخلق وعظها، فإن أبدت النشوز هجرها، فإن أصرت على ذلك ضربها. تفسير البغوي (١/ ٦١٣).

وقال ابن كثير: {واضربوهن} أي: إذا لم يرتدعن بالموعظة ولا بالهجران، فلكم أن تضربوهن ضربا غير مبرح... قال الحسن البصري: يعني غير مؤثر. قال الفقهاء: هو ألا يكسر فيها عضوا ولا يؤثر فيها شيئا. تفسير ابن كثير (٢/ ٢٩٥).

(إن الله كان عليا كبيرا):

قال ابن كثير: {إن الله كان عليا كبيرا} تهديد للرجال إذا بغوا على النساء من غير سبب، فإن الله العلي الكبير وليهن، وهو منتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن. تفسير ابن كثير (٢/ ٢٩٦).

(وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها):

قال ابن كثير: ذكر تعالى الحال الأولى، وهو إذا كان النفور والنشوز من الزوجة، ثم ذكر الحال الثانية وهو: إذا كان النفور من الزوجين فقال تعالى: {وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها}. تفسير ابن كثير (٢/ ٢٩٦).

وقال ابن القيم: وقد اختلف السلف والخلف في الحكمين: هل هما حاكمان أو وكيلان؟ على قولين:

أحدهما: أنهما وكيلان، وهو قول أبي حنيفة والشافعي في قول وأحمد في رواية.

والثاني: أنهما حاكمان، وهذا قول أهل المدينة ومالك وأحمد في الرواية الأخرى والشافعي في القول الآخر، وهذا هو الصحيح.

والعجب كل العجب ممن يقول هما وكيلان لا حاكمان، والله تعالى قد نصبهما حكمين، وجعل نصبهما إلى غير الزوجين، ولو كانا وكيلين، لقال: فليبعث وكيلا من أهله ولتبعث وكيلا من أهلها.

وأيضا فلو كانا وكيلين لم يختصا بأن يكونا من الأهل.

وأيضا فإنه جعل الحكم إليهما فقال: {إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما}، والوكيلان لا إرادة لهما إنما يتصرفان بإرادة موكليهما.

وأيضا فإن الوكيل لا يسمى حكما في لغة القرآن، ولا في لسان الشارع ولا في العرف العام ولا الخاص.

وأيضا فالحكم من له ولاية الحكم والإلزام وليس للوكيل شيء من ذلك.

وأيضا فإن الحكم أبلغ من حاكم؛ لأنه صفة مشبهة باسم الفاعل دالة على الثبوت، ولا خلاف بين أهل العربية في ذلك، فإذا كان اسم الحاكم لا يصدق على الوكيل المحض فكيف بما هو أبلغ منه.

وأيضا فإنه سبحانه خاطب بذلك غير الزوجين، وكيف يصح أن يوكل عن الرجل والمرأة غيرهما، وهذا يحوج إلى تقدير الآية هكذا: {وإن خفتم شقاق بينهما} فمروهما أن يوكلا وكيلين: وكيلا من أهله ووكيلا من أهلها، ومعلوم بُعد لفظ الآية ومعناها عن هذا التقدير، وأنها لا تدل عليه بوجه، بل هي دالة على خلافه وهذا بحمد الله واضح.

وبعث عثمان بن عفان عبد الله بن عباس ومعاوية حكمين بين عقيل بن أبي طالب وامرأته فاطمة بنت عتبة بن ربيعة فقيل لهما: إن رأيتما أن تفرقا فرقتما. وصح عن علي بن أبي طالب أنه قال للحكمين بين الزوجين: عليكما إن رأيتما أن تفرقا فرقتما، وإن رأيتما أن تجمعا جمعتما.

فهذا عثمان وعلي وابن عباس ومعاوية جعلوا الحكم إلى الحكمين، ولا يعرف لهم من الصحابة مخالف، وإنما يعرف الخلاف بين التابعين فمن بعدهم، والله أعلم. زاد المعاد في هدي خير العباد (٥/ ١٧٢-١٧٤).

وقال السعدي: {فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها} أي: رجلين مكلفين مسلمين عدلين عاقلين يعرفان ما بين الزوجين، ويعرفان الجمع والتفريق. وهذا مستفاد من لفظ (الحَكَم)؛ لأنه لا يصلح حكما إلا من اتصف بتلك الصفات.

فينظران ما ينقم كل منهما على صاحبه، ثم يلزمان كلا منهما ما يجب، فإن لم يستطع أحدهما ذلك، قنعا الزوج الآخر بالرضا بما تيسر من الرزق والخلق، ومهما أمكنهما الجمع والإصلاح فلا يعدلا عنه.

فإن وصلت الحال إلى أنه لا يمكن اجتماعهما وإصلاحهما إلا على وجه المعاداة والمقاطعة ومعصية الله، ورأيا أن التفريق بينهما أصلح، فرقا بينهما. ولا يشترط رضا الزوج، كما يدل عليه أن الله سماهما حكمين، والحكم يحكم ولو لم يرض المحكوم عليه. تفسير السعدي (ص: ١٧٧).

(وبالوالدين إحسانا):

قال ابن كثير: أوصى بالإحسان إلى الوالدين، فإن الله سبحانه جعلهما سببا لخروجك من العدم إلى الوجود، وكثيرا ما يقرن الله سبحانه بين عبادته والإحسان إلى الوالدين، كقوله: {أن اشكر لي ولوالديك}، وكقوله: {وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا}. تفسير ابن كثير (٢/ ٢٩٨).

وقال السعدي: {وبالوالدين إحسانا} أي: أحسنوا إليهم بالقول الكريم والخطاب اللطيف والفعل الجميل بطاعة أمرهما واجتناب نهيهما والإنفاق عليهما وإكرام من له تعلق بهما وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا بهما. وللإحسان ضدان، الإساءة وعدم الإحسان. وكلاهما منهي عنه. تفسير السعدي (ص: ١٧٨).

(واليتامى):

عن سهل قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا)، وأشار بالسبابة والوسطى، وفرّج بينهما شيئا. صحيح البخاري (٧/ ٥٣).

عن أبي أمامة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من مسح رأس يتيم أو يتيمة لم يمسحه إلا لله كان له بكل شعرة مرت عليها يده حسنات، ومن أحسن إلى يتيمة أو يتيم عنده كنت أنا وهو في الجنة كهاتين وقرن بين إصبعيه). مسند أحمد (٣٦/ ٦١٤).

(والجار ذي القربى والجار الجنب):

عن عائشة رضي الله عنها، قلت: يا رسول الله، إن لي جارين فإلى أيهما أهدي؟ قال: «إلى أقربهما منك بابا». صحيح البخاري (٣/ ٨٨).

عن أبي ذر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا أبا ذر إذا طبخت مرقة، فأكثر ماءها، وتعاهد جيرانك». صحيح مسلم (٤/ ٢٠٢٥).

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه». صحيح البخاري (٨/ ١٠)، صحيح مسلم (٤/ ٢٠٢٥).

عن أبي شريح الخزاعي: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت». صحيح مسلم (١/ ٦٩).

قال ابن كثير: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: (ما تقولون في الزنا؟) قالوا: حرام حرمه الله ورسوله، فهو حرام إلى يوم القيامة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لأن يزني الرجل بعشر نسوة، أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره). قال: (ما تقولون في السرقة؟) قالوا: حرمها الله ورسوله فهي حرام، قال (لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات، أيسر عليه من أن يسرق من جاره). تفرد به أحمد، وله شاهد في الصحيحين من حديث ابن مسعود: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: (أن تجعل لله ندا وهو خلقك). قلت: ثم أي؟ قال: (أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك). قلت: ثم أي؟ قال: (أن تزاني حليلة جارك). تفسير ابن كثير (٢/ ٢٩٩).

وقال السعدي: {والجار ذي القربى} أي: الجار القريب الذي له حقان: حق الجوار وحق القرابة، فله على جاره حق وإحسان راجع إلى العرف. {و} كذلك {الجار الجنب} أي: الذي ليس له قرابة. وكلما كان الجار أقرب بابا كان آكد حقا، فينبغي للجار أن يتعاهد جاره بالهدية والصدقة والدعوة واللطافة بالأقوال والأفعال وعدم أذيته بقول أو فعل. تفسير السعدي (ص: ١٧٨).

(والصاحب بالجنب):

قال ابن تيمية: الصاحب: اسم فاعل من صحبه يصحبه، وذلك يقع على قليل الصحابة وكثيرها لأنه يقال: صحبته ساعة وصحبته شهرا وصحبته سنة، قال الله تعالى: {والصاحب بالجنب} قد قيل: هو الرفيق في السفر وقيل: هو الزوجة، ومعلوم أن صحبة الرفيق وصحبة الزوجة قد تكون ساعة فما فوقها، وقد أوصى الله به إحسانا ما دام صاحبا، وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: (خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره)، وقد دخل في ذلك قليل الصحبة وكثيرها، وقليل الجوار وكثيره. الصارم المسلول على شاتم الرسول (ص: ٥٧٥-٥٧٦).

وقال السعدي: {والصاحب بالجنب} قيل: الرفيق في السفر، وقيل: الزوجة، وقيل: الصاحب مطلقا، ولعله أولى، فإنه يشمل الصاحب في الحضر والسفر ويشمل الزوجة. فعلى الصاحب لصاحبه حق زائد على مجرد إسلامه، من مساعدته على أمور دينه ودنياه، والنصح له؛ والوفاء معه في اليسر والعسر، والمنشط

والمكره، وأن يحب له ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه، وكلما زادت الصحبة تأكد الحق وزاد. تفسير السعدي (ص: ١٧٨).

(وما ملكت أيمانكم):

عن أبي ذر، قال: كان بيني وبين رجل كلام، وكانت أمه أعجمية، فنلت منها، فذكرني إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال لي: «أساببت فلانا؟» قلت: نعم، قال: «أفنلت من أمه؟» قلت: نعم، قال: «إنك امرؤ فيك جاهلية» قلت على حين ساعتي هذه من كبر السن؟ قال: «نعم، هم إخوانكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن جعل الله أخاه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا يكلفه من العمل ما يغلبه، فإن كلفه ما يغلبه فليعنه عليه». صحيح البخاري (٨/ ١٦)، صحيح مسلم (٣/ ١٢٨٣).

عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه، فإن لم يجلسه معه، فليناوله أكلة أو أكلتين، أو لقمة أو لقمتين، فإنه ولي حره وعلاجه». صحيح البخاري (٧/ ٨٢).

قال ابن كثير: {وما ملكت أيمانكم} وصية بالأرقاء؛ لأن الرقيق ضعيف الحيلة أسير في أيدي الناس، ولهذا ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل يوصي أمته في مرض الموت يقول: (الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم). فجعل يرددها حتى ما يفيض بها لسانه. تفسير ابن كثير (٢/ ٣٠١).

وقال السعدي: {وما ملكت أيمانكم} : أي: من الآدميين والبهائم بالقيام بكفايتهم، وعدم تحميلهم ما يشق عليهم، وإعانتهم على ما يتحملون، وتأديبهم لما فيه مصلحتهم. تفسير السعدي (ص: ١٧٨).

وقال أيضا: من قام بهذه المأمورات فهو الخاضع لربه، المتواضع لعباد الله، المنقاد لأمر الله وشرعه، الذي يستحق الثواب الجزيل والثناء الجميل، ومن لم يقم بذلك فإنه عبد معرض عن ربه، غير منقاد لأوامره، ولا متواضع للخلق، بل هو متكبر على عباد الله معجب بنفسه فخور بقوله، ولهذا قال: {إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا} . تفسير السعدي (ص: ١٧٨).

(إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا):

عن أبي هريرة: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «بينما رجل يمشي في حلة، تعجبه نفسه، مرجل جمته، إذ خسف الله به، فهو يتجلجل إلى يوم القيامة». صحيح البخاري (٧/ ١٤١)، صحيح مسلم (٣/ ١٦٥٣).

قال ابن كثير: (مختالا) في نفسه معجبا متكبرا، (فخورا) على الناس، يرى أنه خير منهم، فهو في نفسه كبير، وهو عند الله حقير، وعند الناس بغيض. قال مجاهد في قوله: {إن الله لا يحب من كان مختالا} يعني: متكبرا {فخورا} يعني: يعدّ ما أعطي، وهو لا يشكر الله عز وجل. يعني: يفخر على الناس بما أعطاه الله من نعمه، وهو قليل الشكر لله على ذلك. تفسير ابن كثير (٢/ ٣٠١-٣٠٢).

(الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل):

عن طاووس في قوله: (الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل) قال: البخل أن يبخل الإنسان بما في يديه، والشح: أن يشح على ما في أيدي الناس. قال: يحب أن يكون له ما في أيدي الناس بالحل والحرام، لا يقنع. تفسير الطبري (٨/ ٣٥١).

قال ابن تيمية: {الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل} قد تؤولت في البخل بالمال، والمنع والبخل بالعلم ونحوه، وهي تعم البخل بكل ما ينفع في الدين والدنيا من علم ومال وغير ذلك، كما تأولوا قوله: {ومما رزقناهم ينفقون} النفقة من المال والنفقة من العلم. وقال معاذ في العلم: تعليمه لمن لا يعلمه صدقة. وقال أبو الدرداء: ما تصدق رجل بصدقة أفضل من موعظة يعظ بها جماعة، فيتفرقون وقد نفعهم الله بها. أو كما قال. وفي الأثر: نعمت العطية ونعمت الهدية الكلمة من الخير يسمعها الرجل، ثم يهديها إلى أخ له، أو كما قال: وهذه صدقة الأنبياء وورثتهم العلماء؛ ولهذا كان الله وملائكته وحيتان البحر وطير الهواء يصلون على معلم الناس الخير، كما أن كاتم العلم يلعنه الله ويلعنه اللاعنون. مجموع الفتاوى (١٤/ ٢١٢).

قال ابن كثير: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وأي داء أدوأ من البخل؟). وقال: (إياكم والشح، فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا).

وقوله: {ويكتمون ما آتاهم الله من فضله} فالبخيل جحود لنعمة الله عليه لا تظهر عليه ولا تبين، لا في أكله، ولا في ملبسه، ولا في إعطائه وبذله... {وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا}، والكفر هو الستر والتغطية، فالبخيل يستر نعمة الله عليه ويكتمها ويجحدها، فهو كافر لنعم الله عليه.

وفي الحديث: (إن الله إذا أنعم نعمة على عبد أحب أن يظهر أثرها عليه)، وفي الدعاء النبوي: (واجعلنا شاكرين لنعمتك، مثنين بها عليك قابليها -ويروى: قائليها- وأتممها علينا).

وقد حمل بعض السلف هذه الآية على بخل اليهود بإظهار العلم الذي عندهم، من صفة النبي صلى الله عليه وسلم، وكتمانهم ذلك؛ ولهذا قال: {وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا}...

ولا شك أن الآية محتملة لذلك، والظاهر أن السياق في البخل بالمال، وإن كان البخل بالعلم داخلا في ذلك بطريق الأولى. تفسير ابن كثير (٢/ ٣٠٢-٣٠٣).

(وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا):

قال ابن تيمية: لم يجئ إعداد العذاب المهين في القرآن إلا في حق الكفار كقوله: {الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا}، وقوله: {وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا}، وقوله: {فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين}، {إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين}، {والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين}، {وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين}، {وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين}، {اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين}... وأما العذاب العظيم فقد جاء وعيدا للمؤمنين في قوله: {لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم}، وقوله: {ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم في ما أفضتم فيه عذاب عظيم}، وفي المحارِب {ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم}، وفي القاتل {وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما}، وقوله: {ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم}، وقد قال سبحانه: {ومن يهن الله فما له من مكرم}، وذلك لأن الإهانة إذلال وتحقير

وخزي، وذلك قدر زائد على ألم العذاب، فقد يُعذّب الرجل الكريم ولا يهان. مجموع الفتاوى (١٥/ ٣٦٦-٣٦٧).

(والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر):

قال ابن كثير: ذكر الممسكين المذمومين وهم البخلاء، ثم ذكر الباذلين المرائين الذي يقصدون بإعطائهم السمعة وأن يمدحوا بالكرم، ولا يريدون بذلك وجه الله، وفي الحديث الذي فيه الثلاثة الذين هم أول من تسجر بهم النار، وهم: العالم والغازي والمنفق المراءون بأعمالهم، يقول صاحب المال: ما تركت من شيء تحب أن ينفق فيه إلا أنفقت في سبيلك. فيقول الله: كذبت؛ إنما أردت أن يقال: جواد فقد قيل. أي: فقد أخذت جزاءك في الدنيا وهو الذي أردت بفعلك.

وفي الحديث: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعَدي: (إن أباك رام أمرا فبلغه). وفي حديث آخر: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن عبد الله بن جدعان: هل ينفعه إنفاقه، وإعتاقه؟ فقال: (لا، إنه لم يقل يوما من الدهر: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين). ولهذا قال: (ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر). تفسير ابن كثير (٢/ ٣٠٣).

(إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها):

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف). صحيح مسلم (٢/ ٨٠٧).

وعن أبي عثمان النهدي قال: لقيت أبا هريرة فقلت له: إنه بلغني أنك تقول: إن الحسنة لتضاعف ألف ألف حسنة! قال: وما أعجبك من ذلك؟ فوالله لقد سمعته -يعني النبي صلى الله عليه وسلم- يقول: (إن الله ليضاعف الحسنة ألفي ألف حسنة) مسند أحمد (١٦/ ٤٤٣).

وعن قتادة قال: كان بعض أهل العلم يقول: لأن تفضل حسناتي على سيئاتي ما يزن ذرة أحب إليّ من أن تكون لي الدنيا جميعا. تفسير الطبري (٨/ ٣٦٠).

وقال الزركشي: {وإن تك حسنة يضاعفها} حذفت النون تنبيها على أنها وإن كانت صغيرة المقدار حقيرة في الاعتبار فإن إليه ترتيبها وتضاعيفها، ومثله: {إن تك مثقال حبة من خردل}. البرهان في علوم القرآن (١/ ٤٠٨).

وقال ابن كثير: يخبر تعالى أنه لا يظلم عبدا من عباده يوم القيامة مثقال حبة خردل ولا مثقال ذرة، بل يوفيها به ويضاعفها له إن كانت حسنة، كما قال تعالى {ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين}، وقال تعالى مخبرا عن لقمان أنه قال: {يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير}، وقال تعالى: {يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم. فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره. ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره}.

وفي الصحيحين، من حديث زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة الطويل، وفيه: فيقول الله عز وجل: (ارجعوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، فأخرجوه من النار). وفي لفظ: (أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه من النار، فيخرجون خلقا كثيرا)، ثم يقول أبو سعيد: اقرؤوا إن شئتم: (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما). تفسير ابن كثير (٢/ ٣٠٤).

وقال السعدي: {وإن تك حسنة يضاعفها} أي إلى عشرة أمثالها إلى أكثر من ذلك بحسب حالها ونفعها وحال صاحبها إخلاصا ومحبة وكمالا، {ويؤت من لدنه أجرا عظيما} أي: زيادة على ثواب العمل بنفسه من التوفيق لأعمال أخر وإعطاء البر الكثير والخير الغزير. تفسير السعدي (ص: ١٧٩).

(فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا):

قال ابن القيم: ثبت في الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اقرأ عليّ)، قلت: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: (إني أحب أن أسمعه من غيري)، فقرأت عليه من أول

سورة النساء، حتى إذا بلغت قوله تعالى {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً} قال: (حسبك الآن)، فرفعت رأسي فإذا عيناه تذرفان.

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اجتمعوا أمروا قارئا أن يقرأ وهم يستمعون، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا دخل عليه أبو موسى يقول: يا أبا موسى! ذكّرنا ربنا، فيقرأ أبو موسى، وربما بكى عمر. روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص: ٢٦٧).

(ولا يكتمون الله حديثا):

عن سعيد بن جبير قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال: أشياء تختلف علي في القرآن؟ فقال: ما هو؟ أشك في القرآن؟ قال: ليس بالشك، ولكنه اختلاف! قال: فهات ما اختلف عليك. قال: أسمع الله يقول: (ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين)، وقال: (ولا يكتمون الله حديثا)، وقد كتموا! فقال ابن عباس: أما قوله: (ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين)، فإنهم لما رأوا يوم القيامة أن الله يغفر لأهل الإسلام ويغفر الذنوب، ولا يغفر شركا، ولا يتعاظمه ذنب أن يغفره جحد المشركون فقالوا: (والله ربنا ما كنا مشركين) رجاء أن يغفر لهم، فختم على أفواههم، وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، فعند ذلك: (يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا). تفسير الطبري (٨/ ٣٧٣).

(يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون):

سبب النزول: عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أن رجلا من الأنصار دعاه وعبد الرحمن بن عوف فسقاهما قبل أن تحرم الخمر، فأمّهم علي في المغرب، فقرأ (قل يا أيها الكافرون) فخلط فيها، فنزلت {لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون}. سنن أبي داود (٣/ ٣٢٥)، سنن الترمذي (٥/ ٨٨).

قال السعدي: وهذه الآية الكريمة منسوخة بتحريم الخمر مطلقا، فإن الخمر -في أول الأمر- كان غير محرم، ثم إن الله تعالى عرّض لعباده بتحريمه بقوله: {يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير

ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما}، ثم إنه تعالى نهاهم عن الخمر عند حضور الصلاة كما في هذه الآية، ثم إنه تعالى حرمه على الإطلاق في جميع الأوقات في قوله: {يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه} الآية. تفسير السعدي (ص: ١٧٩).

وقال أيضا: ويؤخذ من المعنى منع الدخول في الصلاة في حال النعاس المفرط، الذي لا يشعر صاحبه بما يقول ويفعل، بل لعل فيه إشارة إلى أنه ينبغي لمن أراد الصلاة أن يقطع عنه كل شاغل يشغل فكره، كمدافعة الأخبثين والتوق لطعام ونحوه، كما ورد في ذلك الحديث الصحيح. تفسير السعدي (ص: ١٧٩).

وقال الألوسي: وفي الآية الكريمة رمز إلى أنه ينبغي للمصلي أن يتحرز عما يلهيه ويشغل قلبه، وأن يزكي نفسه عما يدنسها لأنه إذا وجب تطهير البدن فتطهير القلب أولى. روح المعاني (٣/ ٣٩).

(ولا جنبا إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا):

قال البغوي: لا تقربوا المسجد وأنتم جنب إلا مجتازين فيه للخروج منه، مثل أن ينام في المسجد فيجنب، أو تصيبه جنابة والماء في المسجد، أو يكون طريقه عليه، فيمر به ولا يقيم، وهذا قول عبد الله بن مسعود وسعيد بن المسيب والضحاك والحسن وعكرمة والنخعي والزهري، وذلك أن قوما من الأنصار كانت أبوابهم في المسجد فتصيبهم الجنابة ولا ماء عندهم ولا ممر لهم إلا في المسجد، فرخص لهم في العبور، واختلف أهل العلم فيه فأباح بعضهم المرور فيه على الإطلاق، وهو قول الحسن، وبه قال مالك والشافعي رحمهم الله، ومنع بعضهم على الإطلاق وهو قول أصحاب الرأي، وقال بعضهم: يتيمم للمرور فيه، أما المكث فلا يجوز عند أكثر أهل العلم. تفسير البغوي (١/ ٦٢٧).

وقال ابن كثير: {حتى تغتسلوا} دليل لما ذهب إليه الأئمة الثلاثة: أبو حنيفة ومالك والشافعي: أنه يحرم على الجنب المكث في المسجد حتى يغتسل، أو يتيمم إن عدم الماء، أو لم يقدر على استعماله بطريقة. وذهب الإمام أحمد إلى أنه متى توضأ الجنب جاز له المكث في المسجد، لما روى هو وسعيد بن منصور في سننه بإسناد صحيح: أن الصحابة كانوا يفعلون ذلك. تفسير ابن كثير (٢/ ٣١٣).

(وإن كنتم مرضى):

عن جابر قال: خرجنا في سفر فأصاب رجلا منا حجر فشجه في رأسه، ثم احتلم فسأل أصحابه فقال: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ فقالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء، فاغتسل فمات، فلما قدمنا على النبي صلى الله عليه وسلم أخبر بذلك فقال: «قتلوه قتلهم الله! ألا سألوا إذ لم يعلموا فإنما شفاء العي السؤال، إنما كان يكفيه أن يتيمم (ويعصر أو: يعصب) على جرحه خرقة، ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده». سنن أبي داود (١/ ٩٣).

عن ابن مسعود قوله: (وإن كنتم مرضى أو على سفر)، قال: المريض الذي قد أرخص له في التيمم، هو الكسير والجريح. فإذا أصابت الجنابة الكسير اغتسل، والجريح لا يحل جراحته، إلا جراحة لا يخشى عليها. تفسير الطبري (٨/ ٣٨٦).

وقال البغوي: (وإن كنتم مرضى) جمع مريض، وأراد به مرضا يضره إمساس الماء، مثل الجدري ونحوه، أو كان على موضع الطهارة جراحة يخاف من استعمال الماء فيها التلف أو زيادة الوجع، فإنه يصلي بالتيمم وإن كان الماء موجودا، وإن كان بعض أعضاء طهارته صحيحا والبعض جريحا غسل الصحيح منها وتيمم للجريح. تفسير البغوي (١/ ٦٢٩).

(أو لامستم النساء):

عن سعيد بن جبير قال: ذكروا اللمس، فقال ناس من الموالي: ليس بالجماع. وقال ناس من العرب: اللمس الجماع. قال: فأتيت ابن عباس فقلت: إن ناسا من الموالي والعرب اختلفوا في اللمس، فقالت الموالي: ليس بالجماع، وقالت العرب: الجماع. قال: من أي الفريقين كنت؟ قلت: كنت من الموالي. قال: غُلب فريق الموالي، إن المس واللمس، والمباشرة: الجماع، ولكن الله يكني ما شاء بما شاء. تفسير الطبري (٨/ ٣٨٩).

وقال السعدي: واختلف المفسرون في معنى قوله: {أو لامستم النساء} هل المراد بذلك: الجماع فتكون الآية نصا في جواز التيمم للجنب، كما تكاثرت بذلك الأحاديث الصحيحة؟ أو المراد بذلك مجرد اللمس باليد، ويقيد ذلك بما إذا كان مظنة خروج المذي، وهو المس الذي يكون لشهوة فتكون الآية دالة على نقض الوضوء بذلك. تفسير السعدي (ص: ١٨٠).

(فلم تجدوا ماءً):

قال السعدي: واستدل الفقهاء بقوله: {فلم تجدوا ماء} بوجوب طلب الماء عند دخول الوقت، قالوا: لأنه لا يقال: (لم يجد) لمن لم يطلب، بل لا يكون ذلك إلا بعد الطلب. تفسير السعدي (ص: ١٨٠).

(فتيمموا صعيدا طيبا):

سبب النزول: عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، قالت: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره، حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش انقطع عقد لي، فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على التماسه، وأقام الناس معه وليسوا على ماء، فأتى الناس إلى أبي بكر الصديق، فقالوا: ألا ترى ما صنعت عائشة؟ أقامت برسول الله صلى الله عليه وسلم والناس وليسوا على ماء، وليس معهم ماء، فجاء أبو بكر ورسول الله صلى الله عليه وسلم واضع رأسه على فخذي قد نام، فقال: حبست رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء، فقالت عائشة: فعاتبني أبو بكر، وقال ما شاء الله أن يقول وجعل يطعنني بيده في خاصرتي، فلا يمنعني من التحرك إلا مكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذي، «فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أصبح على غير ماء، فأنزل الله آية التيمم فتيمموا»، فقال أسيد بن الحضير: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر، قالت: فبعثنا البعير الذي كنت عليه، فأصبنا العقد تحته. صحيح البخاري (١/ ٧٤).

عن أبي ذر، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن الصعيد الطيب طهور المسلم، وإن لم يجد الماء عشر سنين، فإذا وجد الماء فليمسه بشرته، فإن ذلك خير). مسند أحمد (٣٥/ ٢٩٨)، سنن الترمذي (١/ ١٨٤).

(فامسحوا بوجوهكم وأيديكم):

قال ابن كثير: التيمم بدل عن الوضوء في التطهر به، لا أنه بدل منه في جميع أعضائه، بل يكفي مسح الوجه واليدين فقط بالإجماع، ولكن اختلف الأئمة في كيفية التيمم على أقوال.

أحدها -وهو مذهب الشافعي في الجديد-: أنه يجب أن يمسح الوجه واليدين إلى المرفقين بضربتين؛ لأن لفظ اليدين يصدق إطلاقهما على ما يبلغ المنكبين، وعلى ما يبلغ المرفقين، كما في آية الوضوء، ويطلق ويراد بهما ما يبلغ الكفين، كما في آية السرقة: {فاقطعوا أيديهما} قالوا: وحمل ما أطلق هاهنا على ما قيد في آية الوضوء أولى لجامع الطهورية...

والقول الثاني: إنه يجب مسح الوجه واليدين إلى الكفين بضربتين، وهو القول القديم للشافعي.

والثالث: أنه يكفي مسح الوجه والكفين بضربة واحدة؛ قال الإمام أحمد... أن رجلا أتى عمر فقال: إني أجنبت فلم أجد ماء؟ فقال عمر: لا تصل. فقال عمار: أما تذكر يا أمير المؤمنين إذ أنا وأنت في سرية فأجنبنا فلم نجد ماء، فأما أنت فلم تصل، وأما أنا فتمعكت في التراب فصليت، فلما أتينا النبي صلى الله عليه وسلم ذكرت ذلك له، فقال: (إنما كان يكفيك) وضرب النبي صلى الله عليه وسلم بيده الأرض، ثم نفخ فيها ومسح بها وجهه وكفيه. تفسير ابن كثير (٢/ ٣١٩-٣٢٠).

وقال السعدي: والحاصل: أن الله تعالى أباح التيمم في حالتين: حال عدم الماء، وهذا مطلقا في الحضر والسفر، وحال المشقة باستعماله بمرض ونحوه. تفسير السعدي (ص: ١٨٠).

(إن الله كان عفوا غفورا):

قال ابن كثير: ومن عفوه عنكم وغفره لكم أن شرع التيمم، وأباح لكم فعل الصلاة به إذا فقدتم الماء، توسعة عليكم ورخصة لكم، وذلك أن هذه الآية الكريمة فيها تنزيه الصلاة أن تفعل على هيئة ناقصة من سكر حتى يصحو المكلف ويعقل ما يقول، أو جنابة حتى يغتسل، أو حدث حتى يتوضأ، إلا أن يكون مريضا أو عادما للماء، فإن الله عز وجل، قد أرخص في التيمم والحالة هذه، رحمة بعباده ورأفة بهم، وتوسعة عليهم، ولله الحمد والمنة. تفسير ابن كثير (٢/ ٣٢١).

بسم الله الرحمن الرحيم

العمل بالآيات من سورة النساء ٣٤-٤٣

١- المرأة المؤمنة الصالحة تقرّ بقوامة الرجل عليها، وولايته عليها، فتطيعه في غير معصية الله، وتحفظه في نفسها بحجابها وعفافها وحفظ بصرها وفرجها، وتحفظ ماله من إتلافه أو تضييعه فيما لا فائدة منه أو لا حاجة إليه، وهي بذلك كله تطيع ربها، وترجو ثوابه الجزيل (الرجال قوّامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله).

٢- يجب عليك أيها الزوج أن تُحسن إلى زوجتك وتكرمها، فإذا حصل منها امتناع عن طاعتك فعِظها أولًا بالتي هي أحسن، وذكّرها بما جعل الله لك من حقٍ عليها، فإن لم تستجب فاهجُرها في البيت، فإن لم تستجب فاضربها ضربا غير مبرّح، ولا تجعل الضرب والعتاب هو العلاجَ الأول لكل مشكلة، فإن أطاعتك فإياك ولومها وتقريعها وتوبيخها والإساءة إليها لما سبق من نُشوزها، واعلم أن الله أقدر عليك منك عليها (واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيرا).

٣- إذا حصل نزاع وخلاف بين الزوجين فإنه يجب تعيين حكم من أهله وحكم من أهلها من أهل العقل والحكمة، فيسمعان منهما ما يريدان، ويحاولان تقريب وجهات النظر، ويسعيان للتوفيق بينهما قدر المستطاع، رجاء ثواب الله سبحانه (وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفّق الله بينهما إن الله كان عليما خبيرا).

٤- احرص على أداء الحقوق العشرة الواردة في قول الله تعالى: (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا) الآية، مبتدئا بتحقيق العبودية لله سبحانه وحده لا شريك له، مثنّيا بالإحسان إلى الوالدين في حياتهما وبعد مماتهما، محسنًا إلى الأقارب والجيران والأصحاب، مختصّا الضعفة من الناس بمزيد من الإحسان، وليكن إحسانك إليهم جميعا بمالك وعلمك ونصحك وخدمتك ودعائك وكف أذاك، واعلم أن الإحسان إلى الناس دليل على الإيمان والتواضع والكرم، والإساءة إليهم من صفات أهل الكفر والخيلاء والفخر والبخل (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن

الله لا يحب من كان مختالا فخورا * الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا).

٥- كن كريما، وابذل ممّا رزقك الله في وجوه الخير والبرّ والإحسان، واحرص على إخفاء الصدقة ما استطعت، حتى تكون مخلصًا لله وحده، واعلم أن الإنفاق رياء وسمعة من خصال أهل الكفر والنفاق، وهو دليل على اتّخاذ الشيطان قرينا وصاحبا ملازما (والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا * وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليما).

٦- الله سبحانه عدل لا يظلم أحدا شيئا، فلا يُنقصه من حسناته شيئا، ولا يحمّله من السيئات ما لم يعمل، وهو سبحانه مع هذا كريم رحيم، ومن رحمته بك أنه يضاعف حسناتك أضعافا كثيرة بحسب نيّتك وإخلاصك ومحبتك ومتابعتك للرسول صلى الله عليه وسلم، فاحرص على كل حسنة وإن صغُرت، فإنك لا تعرف الحسنة التي تنجو بها، وتجنّب كل سيئة وإن صغُرت، فإنك لا تعرف السيئة التي قد تهوي بك في النار سبعين خريفا، وسل الله السلامة والعافية (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما).

٧- يوم القيامة يوم مهول عظيم شديد، يشهد فيه الأنبياء على أممهم، ويشهد فيه المؤمنون أن رسلهم قد بلّغوا رسالة ربهم، ويندم حينها الكافر فيقول: يا ليتني كنت ترابا؛ لأنه لن يقدر على كتمان شيء من أعماله، فاعمل لذلك اليوم، وقدّم لحياتك الحقيقية هناك (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا * يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوّى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا).

٨- الصلاة أعظم العبادات، ومواضعها (المساجد) خير البقاع، فلذلك يجب عليك صيانة الصلاة ومساجدها من أن تأتيها في حال سُكر أو جنابة، أو أن تؤدّيها في حال غفلة وانشغال عنها (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنبا إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا).

٩- من رحمة الله بنا وعفوه عنّا ومغفرته لنا أن شرع لنا التيمم بالتراب في حال عدم وجود الماء أو خوف الضرر من استعماله للوضوء أو الغُسل، فاحمد الله على لطفه ورحمته وتيسيره (وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمّموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفوّا غفورا).

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة النساء (٤٤-٥٥) من التفسير الميسّر

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ (٤٤)

ألم تعلم -أيها الرسول- أمر اليهود الذين أُعطوا حظًّا من العلم مما جاءهم من التوراة، يستبدلون الضلالة بالهدى، ويتركون ما لديهم من الحجج والبراهين، الدالة على صدق رسالة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، ويتمنون لكم -أيها المؤمنون المهتدون- أن تنحرفوا عن الطريق المستقيم؛ لتكونوا ضالين مثلهم.

وَاللهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللهِ نَصِيرًا (٤٥)

والله سبحانه وتعالى أعلم منكم -أيها المؤمنون- بعداوة هؤلاء اليهود لكم، وكفى بالله وليًّا يتولاكم، وكفى به نصيرًا ينصركم على أعدائكم.

مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (٤٦)

من اليهود فريق دأبوا على تبديل كلام الله وتغييره عمَّا هو عليه افتراء على الله، ويقولون للرسول صلى الله عليه وسلم: سمعنا قولك وعصينا أمرك واسمع منَّا لا سمعت، ويقولون: راعنا سمعك أي: افهم عنا وأفهمنا، يلوون ألسنتهم بذلك، وهم يريدون الدعاء عليه بالرعونة حسب لغتهم، والطعن في دين الإسلام. ولو أنهم قالوا: سمعنا وأطعنا، بدل و «عصينا» ، واسمع دون «غير مسمع» ، وانظرنا بدل «راعنا» لكان ذلك خيرًا لهم عند الله وأعدل قولا ولكن الله طردهم من رحمته؛ بسبب كفرهم وجحودهم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، فلا يصدقون بالحق إلا تصديقًا قليلا لا ينفعهم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا (٤٧)

يا أهل الكتاب، صدِّقوا واعملوا بما نزَّلنا من القرآن، مصدقًا لما معكم من الكتب من قبل أن نأخذكم بسوء صنيعكم، فنمحو الوجوه ونحولها قِبَلَ الظهور، أو نلعن هؤلاء المفسدين بمسخهم قردة وخنازير، كما لعنَّا اليهود مِن أصحاب السبت، الذين نُهوا عن الصيد فيه فلم ينتهوا، فغضب الله عليهم، وطردهم من رحمته، وكان أمر الله نافذًا في كل حال.

إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا (٤٨)

إن الله تعالى لا يغفر ولا يتجاوز عمَّن أشرك به أحدًا من مخلوقاته، أو كفر بأي نوع من أنواع الكفر الأكبر، ويتجاوز ويعفو عمَّا دون الشرك من الذنوب، لمن يشاء من عباده، ومن يشرك بالله غيره فقد اختلق ذنبًا عظيمًا.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٤٩)

ألم تعلم -أيها الرسول- أمر أولئك الذين يُثنون على أنفسهم وأعمالهم، ويصفونها بالطهر والبعد عن السوء؟ بل الله تعالى وحده هو الذي يثني على مَن يشاء مِن عباده، لعلمه بحقيقة أعمالهم، ولا يُنقَصون من أعمالهم شيئًا مقدار الخيط الذي يكون في شق نَواة التمرة.

انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا (٥٠)

انظر إليهم -أيها الرسول- متعجبًا من أمرهم، كيف يختلقون على الله الكذب، وهو المنزَّه عن كل ما لا يليق به؟ وكفى بهذا الاختلاق ذنبًا كبيرًا كاشفًا عن فساد معتقدهم.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١)

ألم تعلم -أيها الرسول- أمر أولئك اليهود الذين أُعطوا حظًّا من العلم يصدقون بكل ما يُعبد من دون الله من الأصنام وشياطين الإنس والجن تصديقا يحملهم على التحاكم إلى غير شرع الله، ويقولون للذين كفروا بالله تعالى وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم: هؤلاء الكافرون أقْومُ، وأعدلُ طريقًا من أولئك الذين آمنوا؟

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (٥٢)

أولئك الذين كَثُرَ فسادهم وعمَّ ضلالهم، طردهم الله تعالى من رحمته، ومَن يطرده الله من رحمته فلن تجد له من ينصره، ويدفع عنه سوء العذاب.

أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (٥٣)

بل ألهم حظ من الملك، ولو أوتوه لما أعطوا أحدًا منه شيئًا، ولو كان مقدار النقرة التي تكون في ظهر النَّواة؟

أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا (٥٤)

بل أيحسدون محمدًا صلى الله عليه وسلم على ما أعطاه الله من نعمة النبوة والرسالة، ويحسدون أصحابه على نعمة التوفيق إلى الإيمان، والتصديق بالرسالة، واتباع الرسول، والتمكين في الأرض، ويتمنون زوال هذا الفضل عنهم؟ فقد أعطينا ذرية إبراهيم عليه السلام -من قَبْلُ- الكتب، التي أنزلها الله عليهم وما أوحي إليهم مما لم يكن كتابا مقروءا، وأعطيناهم مع ذلك ملكا واسعا.

فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (٥٥)

فمن هؤلاء الذين أوتوا حظًّا من العلم، مَن صدَّق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وعمل بشرعه، ومنهم مَن أعرض ولم يستجب لدعوته، ومنع الناس من اتباعه. وحسبكم -أيها المكذبون- نار جهنم تسعَّر بكم.

بسم الله الرحمن الرحيم

معاني كلمات سورة النساء (٤٤-٥٥)

الكلمة	المعنى
يُحرّفون الكلم	يُغيّرون لفظه أو معناه
واسمع غير مُسمَع	يدعون على النبي صلى الله عليه وسلم بقولهم: اسمع منّا لا سمِعتَ
ورَاعِنَا	افهم عنّا وأفهمنا قولك
ليًّا بِألسنتهم	يلوون بها ألسنتهم لتكون من الرُّعونة بلغتهم
وانظُرنا	وانتظِرنا
وأقوَم	وأعدَل قولًا
نطْمِسَ وجوهًا	نمحو الحواسّ الموجودة فيها
فنرُدّها على أدبارِها	فنجعلها من جهة الظهر والدُبُر
وكان أمر الله مَفعُولا	وكان قدر الله واقِعا لا محالة
يُزكّون أنفسهم	يُثنون على أنفسهم وأعمالهم
فَتِيلاً	قدر الخيط الذي في شق نواة التمر
بالجِبت والطاغوت	بكل معبود من دون الله
نَقِيرًا	قدر النقطة التي في ظهر نواة التمر

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقف والابتداء في سورة النساء ٤٤-٥٥

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذه الفقرة المتعلقة بالوقف والابتداء في الآيات من سورة النساء من الآية الرابعة والأربعين وحتى الآية الخامسة والخمسين.

أبدأ بالآية الأولى وهي قول الله تعالى (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله (يشترون الضلالة) حالٌ من نائب الفاعل في قوله (أوتوا نصيبًا)، فالذين أوتوا نصيبًا حالهم أنهم يشترون الضلالة، فلا يصح الوقف قبل الحال.

ولا يصح الوقف أيضًا على قوله (يشترون الضلالة)، لأن قوله (ويريدون أن تضلوا السبيل) معطوفٌ على جملة الحال، وهو من تتمة بيان حالهم أنهم جمعوا بين شرائهم للضلالة وإرادتهم أن تضلوا السبيل.

الآية التي تليها: (والله أعلم بأعدائكم) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أنه قد جاء بعده جملةٌ فعليةٌ مستأنفةٌ في قوله (وكفى بالله وليًّا)، بعد انتهاء الجملة الاسمية في قوله (والله أعلم بأعدائكم)، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وكفى بالله وليًّا)؟

جوّز الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، ولم ينصّ عليه الأكثر، وإذا تأملنا فإنه قد جاء بعدها قوله (وكفى بالله نصيرًا)، وهي جملةٌ تامةٌ قائمةٌ بنفسها، لا تحتاج إلى إضمار، وقوله قبلها (وكفى بالله وليًا) أيضًا جملةٌ تامةٌ قائمةٌ بنفسها، وإن كانتا معطوفتين على بعض إلا أن قيامهما بنفسيهما يجوّز الفصل بينهما، والله أعلم.

الآية التي تليها: (من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله (ويقولون سمعنا وعصينا) من تتمة بيان حالهم، فهم يحرّفون الكلم عن مواضعه، وهم كذلك يقولون ما حكى الله عنهم من قولهم (سمعنا وعصينا واسمع غير مسمعٍ وراعنا ليًّا بألسنتهم وطعنًا في الدين)، فلا يصح الوقف إلا على قوله (وطعنًا في الدين)، كما نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أنه قد انتهت الجملة هنا من ذكر أقوالهم وقصدهم مما يقولون، ثم بدأ بعدها

بذكر ما هو أولى بهم أن يقولوه، وجاء ذلك في جملةٍ مستأنفةٍ في قوله (ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا) فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (لكان خيرًا لهم وأقوم)؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، ومنع منه السجاوندي والأشموني لتعلق ما بعده بما قبله استدراكًا في قوله (ولكن لعنهم الله بكفرهم)، فهو استدراكٌ مع حرف العطف الواو، لكن إذا تأملناها معنويًا فإن هذا الاستدراك هو في ذكر سبب عدم هدايتهم بعد أن انتهى من ذكر ما هو أولى بهم أن يقولوه، وبهذه النظرة يصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزّلنا مصدقًا لما معكم) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، نص على ذلك الأشموني، وسببه أنهم أُمروا بالإيمان وهُددوا إن لم يؤمنوا، وهذا التهديد بدأ من قوله (من قبل أن نطمس وجوهًا) فلم يصح الفصل قبل ذكر التهديد الذي جاء في حال عدم إيمانهم.

وهل يصح الوقف على قوله (من قبل أن نطمس وجوهًا فنردّها على أدبارها)؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله (أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت) من تتمة التهديد، فلا وقف إلا على قوله (أصحاب السبت)، كما نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، وذلك أن التهديد قد انتهى هنا، ثم جاءت جملةٌ مستأنفةٌ مبدوءةٌ بـ (كان) في قوله (وكان أمر الله مفعولاً)، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (إن الله لا يغفر أن يُشرَك به) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا الهبطي، وجوّزه الأشموني، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن هاهنا جملة تامة في قوله (إن الله لا يغفر أن يُشرَك به)، وانتهى مع انتهائها الحكم الأول المتعلق بعدم المغفرة للمشرك، ثم جاءت جملة معطوفة في قوله (ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)، وهي جملةٌ مرفوعةٌ، وفيها بيان ما يغفره الله، فمن نظر إلى أنهما جملتين مستقلتين وإن كانتا معطوفتين صحح الوقف هنا، ومن نظر إلى أن قوله (ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) من تتمة بيان ما يغفره الله وما لا يغفره، وأن هذا هو المقصود بالجملة، وليس المقصود مجرد بيان ما لا يغفر، أو مجرد بيان ما يغفر، فإنه لم يصحح الفصل بين الجملتين، وهو الذي عليه أكثر علماء الوقف والابتداء، والأمر في هذا محتملٌ، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أنه قد انتهى هنا ذكر ما يُغفر مما لا يُغفر، ثم جاءت جملةٌ شرطيةٌ مستأنفةٌ في قوله (ومن يشرك بالله فقد افترى إثمًا عظيمًا)، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (ألم تر إلى الذين يزكّون أنفسهم) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة الاستفهام قد انتهت هنا، ثم جاءت جملةٌ مستأنفةٌ مبدوءةٌ بـ (بل) للإضراب في قوله (بل الله يزكي من يشاء)، فصح الفصل بينهما، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (بل الله يزكي من يشاء)؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن الله سبحانه وتعالى رد عليهم تزكيتهم لأنفسهم، وانتهى الرد هنا، ثم جاءت جملةٌ مستأنفةٌ وهي جملة نفي لبيان أن الله لا يظلمهم من أعمالهم شيئًا، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

الآية التي تليها: (انظر كيف يفترون على الله الكذب) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن جملة الأمر قد انتهت هنا، حيث أُمر بأن ينظر كيف يفترون على الله الكذب، ثم جاءت جملةٌ فعليةٌ مستأنفةٌ في قوله (وكفى به إثمًا مبينًا)، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

الآية التي تليها: (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله (ويقولون للذين كفروا) معطوفٌ على جملة الحال في قوله (يؤمنون بالجبت والطاغوت)، فهو من تتمة بيان حالهم، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (أولئك الذين لعنهم الله) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الخبر عنهم قد انتهى بأن الله قد لعنهم، ثم جاءت جملةٌ شرطيةٌ في قوله (ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرًا)، فصح الابتداء بالشرط بعد انتهاء الخبر، والله أعلم.

الآية التي تليها: (أم لهم نصيبٌ من الملك) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن الفاء في قوله (فإذًا لا يؤتون الناس نقيرًا) هي فاءٌ واقعةٌ في جواب شرطٍ مقدرٍ تقديره: فإذا كان لهم نصيبٌ من الملك فإنهم لا يؤتون الناس نقيرًا، فصارت هذه الجملة مرتبطةٌ بما قبلها ارتباطًا وثيقًا، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن جملة الاستفهام قد انتهت هنا، (أم يحسدون الناس) يعني: بل أيحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله؟ ثم جاءت جملةٌ خبريةٌ في قوله (فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة) فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

الآية الأخيرة: (فمنهم من آمن به) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله بعدها (ومنهم من صدّ عنه) هو من تتمة بيان أصنافهم، فبعد أن ذكر أن بعضهم مؤمنٌ به ذكر أن بعضهم صادٌّ عنه، فلم يصح الوقف إلا بعد ذكر الصنفين، فيصح الوقف على قوله (ومنهم من صد عنه)، لانتهاء الجملة الاسمية وما عطف عليها من جملة، ثم جاءت بعدها جملةٌ فعليةٌ مستأنفةٌ في قوله (وكفى بجهنم سعيرًا)، فصح الوقف هنا، كما نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء.

هذا آخر ما في هذا المقطع، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يعلّمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علّمنا، وأن يزيدنا علمًا وعملاً وهدًى وتقًى، والله تعالى أعلم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله الرحمن الرحيم

فوائد ولطائف سورة النساء ٤٤-٥٥

(ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة):

سبب النزول: عن ابن عباس قال: كان رفاعة بن زيد بن التابوت من عظمائهم - يعني من عظماء اليهود = إذا كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم لوى لسانه وقال: راعنا سمعك، يا محمد حتى نفهمك! ثم طعن في الإسلام وعابه، فأنزل الله: (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة) إلى قوله: (فلا يؤمنون إلا قليلا). تفسير الطبري (٨/ ٤٢٨).

وقال ابن القيم: لا يذكر سبحانه الذين أوتوا نصيبا من الكتاب إلا بالذم أيضا، كقوله {ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت} الآية، وقال تعالى {ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل}، وقال {ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يُدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون}.

فالأقسام أربعة: الذين آتيناهم الكتاب، وهذا لا يذكره سبحانه إلا في معرض المدح. والذين أوتوا نصيبا من الكتاب لا يكون قط إلا في معرض الذم. والذين أوتوا الكتاب أعم منه، فإنه قد يتناولهما، ولكن لا يفرد به الممدوحون قط. ويا أهل الكتاب يعم الجنس كله، ويتناول الممدوح منه والمذموم. مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ١٠٤).

(ويريدون أن تضلّوا السبيل * والله أعلم بأعدائكم):

قال الطبري: وهذا من الله تعالى ذكره تحذير منه عباده المؤمنين أن يستنصحوا أحدا من أعداء الإسلام في شيء من أمر دينهم، أو أن يسمعوا شيئا من طعنهم في الحق.

ثم أخبر الله جل ثناؤه عن عداوة هؤلاء اليهود الذين نهى المؤمنين أن يستنصحوهم في دينهم إياهم، فقال جل ثناؤه: (والله أعلم بأعدائكم)، يعني بذلك تعالى ذكره: والله أعلم منكم بعداوة هؤلاء اليهود لكم، أيها المؤمنون. يقول: فانتهوا إلى طاعتي فيما نهيتكم عنه من استنصاحهم في دينكم، فإني أعلم بما هم

عليه لكم من الغش والعداوة والحسد، وأنهم إنما يبغونكم الغوائل، ويطلبون أن تضلوا عن محجة الحق فتهلكوا. تفسير الطبري (٨/ ٤٢٩).

(من الذين هادوا يحرّفون الكلم عن مواضعه):

قال البغوي: (من الذين هادوا) قيل: هي متصلة بقوله: (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب) (من الذين هادوا). وقيل: هي مستأنفة، معناه: من الذين هادوا مَن يحرفون، كقوله تعالى: (وما منا إلا له مقام معلوم) أي: من له مقام معلوم. تفسير البغوي (١/ ٦٤١).

وقال السعدي: {يحرّفون الكلم عن مواضعه} إما بتغيير اللفظ أو المعنى، أو هما جميعا. فمن تحريفهم تنزيل الصفات التي ذكرت في كتبهم التي لا تنطبق ولا تصدق إلا على محمد صلى الله عليه وسلم على أنه غير مراد بها، ولا مقصود بها، بل أريد بها غيره، وكتمانهم ذلك. فهذا حالهم في العلم أشر حال، قلبوا فيه الحقائق، ونزلوا الحق على الباطل، وجحدوا لذلك الحق. تفسير السعدي (ص: ١٨١).

(واسمع غير مُسمَع):

قال ابن كثير: أي: اسمع ما نقول، لا سمعت. رواه الضحاك عن ابن عباس. وقال مجاهد والحسن: واسمع غير مقبول منك. قال ابن جرير: والأول أصح. وهو كما قال. تفسير ابن كثير (٢/ ٣٢٣).

(يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزّلنا مصدقا لما معكم):

قال ابن تيمية: وهذا القرآن الذي يعرف كل أحد أنه الكتاب الذي جاء به (محمد صلى الله عليه وسلم)، مملوء من دعوة أهل الكتاب إلى اتّباعه، ويكفّر من لم يتّبعه منهم ويذمّه ويلعنه؛ والوعيد له، كما في تكفير من لم يتّبعه من المشركين وذمه والوعيد له، كما قال تعالى: {يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم} الآية، وفي القرآن من قوله (يا أهل الكتاب) (يا بني إسرائيل) ما لا يحصى إلا بكلفة. مجموع الفتاوى (٤/ ٢٠٤).

وقال زكريا الأنصاري: قوله تعالى: (يا أيها الذين أوتوا الكتاب...) الآية. قال ذلك هنا، وقال في غيره (يا أهل الكتاب) لموافقة التعبير هنا قبله وبعده بالذين أوتوا، ولأنه تعالى استخفّ بهم هنا قبل، وختم بعد بالطمس وغيره، بخلاف ذلك في غير هذا الموضع. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن (١/ ١١٥).

(من قبل أن نطمس وجوها فنردّها على أدبارها):

قال البغوي: (من قبل أن نطمس وجوها): قال ابن عباس: نجعلها كخفّ البعير.

وقال قتادة والضحاك: نُعْمِيها، والمراد بالوجه العين.

(فنردّها على أدبارها) أي: نطمس الوجوه فنردها على القفا.

وقيل: نجعل الوجوه منابت الشعر كوجوه القردة، لأن منابت شعور الآدميين في أدبار وجوههم.

وقيل: معناه: نمحو آثارها وما فيها من أنف وعين وفم وحاجب ونجعلها كالأقفاء.

وقيل: نجعل عينيه على القفاء فيمشي القهقرى.

روي أن عبد الله بن سلام رضي الله عنه لما سمع هذه الآية جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يأتي أهله ويده على وجهه، وأسلم وقال: يا رسول الله ما كنت أرى أن أصل إليك حتى يتحوّل وجهي في قفاي.

وكذلك كعب الأحبار لما سمع هذه الآية أسلم في زمن عمر رضي الله عنه، فقال: يا رب آمنت، يا رب أسلمت، مخافة أن يصيبه وعيد هذه الآية.

فإن قيل: قد أوعدهم الله بالطمس إن لم يؤمنوا ثم لم يؤمنوا ولم يفعل بهم ذلك؟

قيل: هذا الوعيد باق، ويكون طمس ومسخ في اليهود قبل قيام الساعة.

وقيل: هذا كان وعيدا بشرط، فلما أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه دفع ذلك عن الباقين.

وقيل: أراد به في القيامة.

وقال مجاهد: أراد بقوله: (نطمس وجوها) أي: نتركهم في الضلالة، فيكون المراد طمس وجه القلب، والرد عن بصائر الهدى، (على أدبارها) في الكفر والضلالة، وأصل الطمس: المحو والإفساد والتحويل.

وقال ابن زيد: نمحو آثارهم من وجوههم ونواصيهم التي هم بها، (فنردها على أدبارها) حتى يعودوا إلى حيث جاؤوا منه وهو الشام، وقال: قد مضى ذلك، وتأوّله في إجلاء بني النضير إلى أذرعات وأريحا من أرض الشام. تفسير البغوي (١/ ٦٤١-٦٤٢).

وقال السعدي: {من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها} وهذا جزاء من جنس ما عملوا، كما تركوا الحق، وآثروا الباطل، وقلبوا الحقائق، فجعلوا الباطل حقا والحق باطلا، جوزوا من جنس ذلك بطمس وجوههم كما طمسوا الحق، وردها على أدبارها، بأن تجعل في أقفائهم، وهذا أشنع ما يكون. تفسير السعدي (ص: ١٨١).

(إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء):

عن عبد الله بن عمر: أنه قال: لما نزلت: (يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم) الآية، قام رجل فقال: والشرك يا نبي الله؟ فكره ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما). تفسير الطبري (٨/ ٤٤٩).

عن علي بن أبي طالب، قال: ما في القرآن آية أحب إليّ من هذه الآية {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} . سنن الترمذي (٥/ ٩٧).

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: (إن في سورة النساء لخمس آيات ما يسرني أن لي بها الدنيا وما فيها {إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما}، {إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما}، {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء}، {ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما}، {ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما} . المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ٣٣٤).

وقال ابن تيمية: الصواب الذي عليه أئمة المسلمين أن كل من تاب تاب الله عليه، كما قال الله تعالى: {قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم}، فقد ذكر في هذه الآية أنه يغفر للتائب الذنوب جميعا، ولهذا أطلق وعمّم، وقال في الآية الأخرى: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء}، فهذا في غير التائب، ولهذا قيّد وخصّص. الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٥/ ١٢٨).

وقال الزركشي: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} ختم الآية مرة بقوله: {فقد افترى إثما عظيما}، ومرة بقوله: {ضلالا بعيدا}؛ لأن الأول نزل في اليهود، وهم الذين افتروا على الله ما ليس في كتابه. والثاني نزل في الكفار، ولم يكن لهم كتاب، وكان ضلاهم أشد. البرهان في علوم القرآن (١/ ٨٧).

وقال السعدي: الذنوب التي دون الشرك قد جعل الله لمغفرتها أسبابا كثيرة، كالحسنات الماحية والمصائب المكفرة في الدنيا والبرزخ ويوم القيامة، وكدعاء المؤمنين بعضهم لبعض، وبشفاعة الشافعين. ومن فوق ذلك كله رحمته التي أحق بها أهل الإيمان والتوحيد. تفسير السعدي (ص: ١٨١).

نصوص في فضل التوحيد وخطر الشرك:

عن جابر قال: أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل فقال: يا رسول الله ما الموجبتان؟ قال: «من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله شيئا دخل النار». صحيح مسلم (١/ ٩٤).

عن عبد الله بن مسعود قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم: أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: «أن تجعل لله ندا وهو خلقك». قلت: إن ذلك لعظيم.... صحيح البخاري (٦/ ١٨)، صحيح مسلم (١/ ٩٠).

قال صلى الله عليه وسلم: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» ثلاثا «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور – أو قول الزور –» وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم متكئا، فجلس فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت. صحيح البخاري (٣/ ١٧٢)، صحيح مسلم (١/ ٩١).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الدواوين عند الله ثلاثة: ديوان لا يعبأ الله به شيئا، وديوان لا يترك الله منه شيئا، وديوان لا يغفره الله. فأما الديوان الذي لا يغفره الله، فالشرك بالله، قال الله عز وجل: {إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة}، وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئا، فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه، من صوم يوم تركه، أو صلاة تركها؛ فإن الله يغفر ذلك ويتجاوز إن شاء. وأما الديوان الذي لا يترك الله منه شيئا، فظلم العباد بعضهم بعضا؛ القصاص لا محالة). مسند أحمد (٤٣/ ١٥٦)، المستدرك على الصحيحين للحاكم (٤/ ٦١٩).

عن أنس بن مالك، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: قال الله تبارك وتعالى: (يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، ولا أبالي، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة). سنن الترمذي (٥/ ٤٤٠)، مسند أحمد (٣٥/ ٢٤٣).

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما مجادلة أحدكم في الحق يكون له في الدنيا بأشد مجادلة من المؤمنين لربهم في إخوانهم الذين أدخلوا النار. قال: يقولون: ربنا إخواننا كانوا يصلون معنا، ويصومون معنا، ويحجون معنا، فأدخلتهم النار؟ قال: فيقول: اذهبوا فأخرجوا من عرفتم منهم)، قال: (فيأتونهم فيعرفونهم بصورهم، فمنهم من أخذته النار إلى أنصاف ساقيه، ومنهم من أخذته إلى كعبيه، فيخرجونهم، فيقولون: ربنا قد أخرجنا من أمرتنا. قال: ويقول: أخرجوا من كان في قلبه وزن دينار من الإيمان، ثم قال: من كان في قلبه وزن نصف دينار، حتى يقول: من كان في قلبه وزن ذرة). قال أبو سعيد: فمن لم يصدق فليقرأ هذه الآية: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} إلى {عظيما}. سنن النسائي (٨/ ١١٢).

(ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكّي من يشاء):

قال ابن القيم: {ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم} أي: يعتقدون زكاءها ويخبرون به، كما يزكّي المزكّي الشاهد، فيقول عن نفسه ما يقول المزكّي فيه، كما قال الله تعالى: {بل الله يزكّي من يشاء} أي: هو الذي يجعله زاكيا، ويخبر بطاعة الله فيصير زاكيا، وهذا بخلاف قوله: {قد أفلح من زكاها} فإنه من باب قوله: {هل لك إلى أن تزكى} أي: تعمل بطاعة الله تعالى فتصير زاكيا، ومثله قوله: {قد أفلح من تزكى}. إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/ ٥٠).

وقال ابن كثير: قال الحسن وقتادة: نزلت هذه الآية، وهي قوله: {ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم} في اليهود والنصارى، حين قالوا: {نحن أبناء الله وأحباؤه}.

وقال ابن زيد: نزلت في قولهم: {نحن أبناء الله وأحباؤه}، وفي قولهم: {وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى}.

وقال مجاهد: كانوا يقدّمون الصبيان أمامهم في الدعاء والصلاة يؤمونهم، ويزعمون أنهم لا ذنب لهم. وكذا قال عكرمة، وأبو مالك. روى ذلك ابن جرير.

وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله {ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم}، وذلك أن اليهود قالوا: إن أبناءنا توفوا وهم لنا قربة، وسيشفعون لنا ويزكوننا، فأنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم {ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلا} رواه ابن جرير...

وقال الضحاك: قالوا: ليس لنا ذنوب، كما ليس لأبنائنا ذنوب. فأنزل الله ذلك فيهم.

وقيل: نزلت في ذم التمادح والتزكية.

وقد جاء في الحديث الصحيح عند مسلم، عن المقداد بن الأسود قال: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نحثو في وجوه المداحين التراب.

وفي الحديث الآخر المخرج في الصحيحين... أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يثني على رجل، فقال: (ويحك، قطعت عنق صاحبك). ثم قال: (إن كان أحدكم مادحا صاحبه لا محالة، فليقل: أحسبه كذا، ولا يزكي على الله أحدا). تفسير ابن كثير (٢/ ٣٣٢).

(ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت):

قال البغوي: اختلفوا فيهما:

فقال عكرمة: هما صنمان كان المشركون يعبدونهما من دون الله عز وجل.

وقال أبو عبيدة: هما كل معبود يعبد من دون الله عز وجل، قال الله تعالى: (أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت).

قال عمر: الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان. وهو قول الشعبي ومجاهد.

وقيل: الجبت: الأوثان، والطاغوت: شياطين الأوثان، فلكل صنم شيطان، يعبر عنه، فيغتر به الناس.

وقال محمد بن سيرين ومكحول: الجبت: الكاهن، والطاغوت: الساحر.

وقال سعيد بن جبير وأبو العالية: الجبت: الساحر بلسان الحبشة، والطاغوت: الكاهن.

وروي عن عكرمة: الجبت بلسان الحبشة: شيطان. تفسير البغوي (١/ ٦٤٥).

وقال السعدي: من قبائح اليهود وحسدهم للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، أن أخلاقهم الرذيلة وطبعهم الخبيث، حملهم على ترك الإيمان بالله ورسوله، والتعوض عنه بالإيمان بالجبت والطاغوت، وهو الإيمان بكل عبادة لغير الله، أو حكم بغير شرع الله. فدخل في ذلك السحر والكهانة، وعبادة غير الله، وطاعة الشيطان، كل هذا من الجبت والطاغوت، وكذلك حملهم الكفر والحسد على أن فضلوا طريقة الكافرين بالله -عبدة الأصنام- على طريق المؤمنين. تفسير السعدي (ص: ١٨٢).

قال صلى الله عليه وسلم: (إن العيافة، والطرق، والطيرة من الجبت)، قال عوف: العيافة: زجر الطير، والطرق: الخط يخط في الأرض، والجبت، قال الحسن: إنه الشيطان. مسند أحمد (٣٤/ ٢٠٨)، سنن أبي داود (٤/ ١٦).

(ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا):

عن ابن عباس قال: لما قدم كعب بن الأشرف مكة، قالت له قريش: أنت حبر أهل المدينة وسيدهم؟ قال: نعم. قالوا: ألا ترى إلى هذا الصنبور المنبتر من قومه، يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة وأهل السقاية؟ قال: أنتم خير منه. قال: فأنزلت: (إن شانئك هو الأبتر)، وأنزلت: (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت) إلى قوله: (فلن تجد له نصيرا). تفسير الطبري (٨/ ٤٦٦).

وقال السعدي: هل يفضّل دين قام على عبادة الأصنام والأوثان، واستقام على تحريم الطيبات، وإباحة الخبائث، وإحلال كثير من المحرمات، وإقامة الظلم بين الخلق، وتسوية الخالق بالمخلوقين، والكفر بالله ورسله وكتبه، على دين قام على عبادة الرحمن، والإخلاص لله في السر والإعلان، والكفر بما يعبد من دونه من الأوثان والأنداد والكاذبين، وعلى صلة الأرحام، والإحسان إلى جميع الخلق حتى البهائم، وإقامة العدل والقسط بين الناس، وتحريم كل خبيث وظلم، والصدق في جميع الأقوال والأعمال، فهل هذا إلا من الهذيان، وصاحب هذا القول إما من أجهل الناس وأضعفهم عقلا وإما من أعظمهم عنادا وتمردا ومراغمة للحق، وهذا هو الواقع. تفسير السعدي (ص: ١٨٢).

(أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا):

قال ابن كثير: وهذه الآية كقوله تعالى {قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكتم خشية الإنفاق} أي: خوف أن يذهب ما بأيديكم، مع أنه لا يتصور نفاده، وإنما هو من بخلكم وشحكم؛ ولهذا قال: {وكان الإنسان قتورا} أي: بخيلا. تفسير ابن كثير (٢/ ٣٣٦).

(أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله):

قال البغوي: قال قتادة: المراد بالناس العرب، حسدهم اليهود على النبوة، وما أكرمهم الله تعالى بمحمد صلى الله عليه وسلم.

وقيل: أراد محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

وقال ابن عباس والحسن ومجاهد وجماعة: المراد بالناس رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده، حسدوه على ما أحل الله له من النساء، وقالوا: ما له همّ إلا النكاح، وهو المراد من قوله: (على ما آتاهم الله من فضله).

وقيل: حسدوه على النبوة، وهو المراد من الفضل المذكور في الآية.

(فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة) أراد بآل إبراهيم: داود وسليمان، وبالكتاب: ما أنزل الله عليهم، وبالحكمة النبوة.

(وآتيناهم ملكا عظيما) فمن فسّر الفضل بكثرة النساء فسّر الملك العظيم في حق داود وسليمان عليهما السلام بكثرة النساء، فإنه كان لسليمان ألف امرأة: ثلاثمائة حرة وسبعمائة سرية، وكان لداود مائة امرأة، ولم يكن يومئذ لرسول الله صلى الله عليه وسلم تسع نسوة، فلما قال لهم ذلك سكتوا. تفسير البغوي (١/ ٦٤٦).

وقال القرطبي: الحسد مذموم، وصاحبه مغموم، وهو يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، رواه أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم. وقال الحسن: ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من حاسد، نفَس دائم، وحزن لازم، وعبرة لا تنفد. وقال عبد الله بن مسعود: لا تعادوا نعم الله. قيل له: ومن يعادي نعم الله؟ قال: الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، يقول الله تعالى في بعض الكتب: الحسود عدو نعمتي، متسخط لقضائي، غير راض بقسمتي. ولمنصور الفقيه:

ألا قل لمن ظل لي حاسدا ... أتدري على من أسأت الأدب

أسأت على الله في حكمه ... إذا أنت لم ترض لي ما وهب

ويقال: الحسد أول ذنب عصي الله به في السماء، وأول ذنب عصي به في الأرض، فأما في السماء فحسد إبليس لآدم، وأما في الأرض فحسد قابيل لهابيل... ولقد أحسن من قال:

اصبر على حسد الحسو ... د فإن صبرك قاتله

فالنار تأكل بعضها ... إن لم تجد ما تأكله. تفسير القرطبي (٥/ ٢٥١-٢٥٢).

وقال ابن القيم: الشيطان يقارن الساحر والحاسد ويحادثهما ويصاحبهما، ولكن الحاسد تعينه الشياطين بلا استدعاء منه للشيطان؛ لأن الحاسد شبيه بإبليس، وهو في الحقيقة من أتباعه؛ لأنه يطلب ما يحبه الشيطان من فساد الناس وزوال نعم الله عنهم، كما أن إبليس حسد آدم لشرفه وفضله، وأبى أن يسجد له حسدا، فالحاسد من جند إبليس. بدائع الفوائد (٢/ ٢٣٤).

(وكفى بجهنّم سعيرا):

قال الطبري: وفي هذه الآية دلالة على أن الذين صدوا عما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم، من يهود بني إسرائيل الذين كانوا حوالي مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنما رفع عنهم وعيد الله الذي توعدهم به في قوله: (آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا) في الدنيا، وأخرت عقوبتهم إلى يوم القيامة، لإيمان من آمن منهم، وأن الوعيد لهم من الله بتعجيل العقوبة في الدنيا، إنما كان على مقام جميعهم على الكفر بما أنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم. فلما آمن بعضهم، خرجوا من الوعيد الذي توعده في عاجل الدنيا، وأخرت عقوبة المقيمين على التكذيب إلى الآخرة، فقال لهم: كفاكم بجهنم سعيرا. تفسير الطبري (٨/ ٤٨٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

العمل بالآيات من سورة النساء ٤٤-٥٥

١- احذر اليهود، فإنهم من أشد الناس عداوة للمؤمنين، فقد حذّرك الله منهم، وهو سبحانه أعلم بأعدائك، فهم يسعون في إضلالك عن دينك، وتشكيكك في عقيدتك، والطعن في رسولك، وبث الشبهات حول كتابك، يحرّفون كلام الله، ويفترون الكذب على الله، ويؤذون المسلمين بأقوالهم وأفعالهم، واعلم أنك لن تكفى شرّهم إلا بالالتجاء إلى الله واتخاذه سبحانه وليا ونصيرا لك (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل * والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا).

٢- إذا سمعت كلام الله أو كلام رسوله صلى الله عليه وسلم فحذار من عصيانه ومخالفته، أو تأويله وتحريفه، فتقع في مشابهة اليهود في قولهم وفعلهم (من الذين هادوا يحرّفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا).

٣- إذا أردت تعلّم علم أو تحصيل فائدة أو فتوى فتأدّب مع الشيخ، وأحسن السؤال، واستمع إلى الإجابة بفهم وإنصات، وتلطّف في ذلك كله (ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم).

٤- من أعرض عن كتاب الله وترك العمل به عوقب في الدنيا والآخرة بعقوبات حسية ومعنوية، فقد يُحرم الهداية وتنفتح له أبواب الضلالة، وقد يعاقب بالأمراض الحسية في نفسه وماله وأهله، فاحمد الله على نعمة القرآن، وتمسّك به، واحذر من مخالفته، فإن الله هدّد اليهود على ترك الإيمان بالقرآن تهديدا شديدا فقال: (يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزّلنا مصدّقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردّها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنّا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا).

٥- أعظم شيء يجب أن تخافه على نفسك وتحذر منه الوقوع في الشرك، لأنه أعظم الظلم، وأفرى الفِرى، وكل الذنوب قد يغفرها الله للعبد بالحسنات الماحية أو المصائب المكفّرة أو شفاعة الشافعين أو رحمة أرحم الراحمين، إلا الشرك فإنه لا يُغفر لصاحبه أبدا، ويؤدّي إلى حبوط جميع الأعمال، فتعلّم التوحيد لتعرف الشرك، وتجنّب الوقوع في الشرك الأصغر أو في وسائل الشرك

حتى لا يؤدّي بك ذلك إلى الوقوع في الشرك الأكبر، وقل دوما: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما).

٦- احذر من الثناء على نفسك، فإن الله أعلم بمن اتّقى، بل احرص على فعل الصالحات واجتناب المحرّمات، وكن كعباد الله الذين يصلون ويصومون ويتصدقون ويخافون ألّا يُقبل منهم، ولا تكن كاليهود الذين يفعلون القبائح، ويرتكبون الفضائح ثم يثنون على أنفسهم كذبا وافتراء بأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنهم شعب الله المختار، وأنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملّتهم، وأن النار لن تمسّهم إلا أياما معدودة، فإن الدعاوى لا تُغني عنك من الله شيئا (ألم تر إلى الذين يزكّون أنفسهم بل الله يزكّي من يشاء ولا يُظلمون فتيلا * انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثما مبينا).

٧- بعض الناس تقوده كراهيته لطائفة أو قبيلة أو جماعة إلى محبة مخالفتها في كل شيء، حتى فيما يعلم أنه منكر ومعصية، بل قد يفضّل عليهم من هو شرٌّ منهم حسدا وحقدا، وهذا ظلم عظيم، وصاحبه على خطر كبير، وفيه شبه من اليهود الذين يفعلون كل ما هو مضادّ للإسلام، ولو علموا تحريمه من كتابهم، فهم يؤمنون بالأصنام والسحرة والكهان والشياطين، ويزعمون أن عبدة الأصنام أهدى من عبدة الرحمن، ويعلمون في قرارة أنفسهم أنهم كاذبون، لذلك استحقوا لعنة الله (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا * أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا).

٨- احذر الحسد، فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، وإذا علمت من نفسك حسد الآخرين فابتعد عن مشاهدة نعمهم، ووطّن نفسك على أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك، وأكثر من الدعاء للآخرين بدوام النعمة، واحرص على زرع القناعة في نفسك، واعلم أن الحسد لا يجلب لك نعمة ولا يدفع عنك نقمة، بل لا يزيدك إلا مرضا، وهو من صفات أعداء الله ورسله اليهود (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما).

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة النساء (٥٦-٦٥) من التفسير الميسّر

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦)

إن الذين جحدوا ما أنزل الله من آياته ووحي كتابه ودلائله وحججه، سوف ندخلهم نارًا يقاسون حرَّها، كلما احترقت جلودهم بدَّلْناهم جلودًا أخرى؛ ليستمر عذابهم وألمهم. إن الله تعالى كان عزيزًا لا يمتنع عليه شيء، حكيمًا في تدبيره وقضائه.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا (٥٧)

والذين اطمأنت قلوبهم بالإيمان بالله تعالى والتصديق برسالة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، واستقاموا على الطاعة، سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار، ينعمون فيها أبدًا ولا يخرجون منها، ولهم فيها أزواج طهرها الله مِن كل أذى، وندخلهم ظلا كثيفًا ممتدًا في الجنة.

إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨)

إن الله تعالى يأمركم بأداء مختلف الأمانات، التي اؤتمنتم عليها إلى أصحابها، فلا تفرطوا فيها، ويأمركم بالقضاء بين الناس بالعدل والقسط، إذا قضيتم بينهم، ونِعْمَ ما يعظكم الله به ويهديكم إليه. إن الله تعالى كان سميعًا لأقوالكم، مُطَّلعًا على سائر أعمالكم، بصيرًا بها.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩)

يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، استجيبوا لأوامر الله تعالى ولا تعصوه، واستجيبوا للرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من الحق، وأطيعوا ولاة أمركم في غير معصية الله، فإن اختلفتم في شيء بينكم، فأرجعوا الحكم فيه إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، إن كنتم تؤمنون حق الإيمان بالله تعالى وبيوم الحساب. ذلك الردُّ إلى الكتاب والسنة خير لكم من التنازع والقول بالرأي، وأحسن عاقبة ومآلا.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠)

ألم تعلم -أيها الرسول- أمر أولئك المنافقين الذين يدَّعون الإيمان بما أُنزل إليك -وهو القرآن- وبما أُنزل إلى الرسل من قبلك، وهم يريدون أن يتحاكموا في فَصْل الخصومات بينهم إلى غير ما شرع الله من الباطل، وقد أُمروا أن يكفروا بالباطل؟ ويريد الشيطان أن يبعدهم عن طريق الحق، بعدًا شديدًا. وفي هذه الآية دليل على أن الإيمان الصادق، يقتضي الانقياد لشرع الله، والحكم به في كل أمر من الأمور، فمن زعم أنه مؤمن واختار حكم الطاغوت على حكم الله، فهو كاذب في زعمه.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١)

وإذا نُصح هؤلاء، وقيل لهم: تعالوا إلى ما أنزل الله، وإلى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وهديه، أبصَرْتَ الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، يعرضون عنك إعراضًا.

فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢)

فكيف يكون حال أولئك المنافقين، إذا حلَّت بهم مصيبة بسبب ما اقترفوه بأيديهم، ثم جاؤوك -أيها الرسول- يعتذرون، ويؤكدون لك أنهم ما قصدوا بأعمالهم تلك إلا الإحسان والتوفيق بين الخصوم؟

أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣)

أولئك هم الذين يعلم الله حقيقة ما في قلوبهم من النفاق، فتولَّ عنهم، وحذِّرهم من سوء ما هم عليه، وقل لهم قولا مؤثرًا فيهم زاجرًا لهم.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (٦٤)

وما بعَثْنَا من رسول من رسلنا، إلا ليستجاب له، بأمر الله تعالى وقضائه. ولو أن هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم باقتراف السيئات، جاؤوك -أيها الرسول- في حياتك تائبين سائلين الله أن يغفر لهم ذنوبهم، واستغفرت لهم، لوجدوا الله توابًا رحيمًا.

فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)

أقسم الله تعالى بنفسه الكريمة أن هؤلاء لا يؤمنون حقيقة حتى يجعلوك حكمًا فيما وقع بينهم من نزاع في حياتك، ويتحاكموا إلى سنتك بعد مماتك، ثم لا يجدوا في أنفسهم ضيقًا مما انتهى إليه حكمك، وينقادوا مع ذلك انقيادًا تامـًا، فالحكم بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكتاب والسنة في كل شأن من شؤون الحياة من صميم الإيمان مع الرضا والتسليم.

بسم الله الرحمن الرحيم

معاني كلمات سورة النساء (٥٦-٦٥)

الكلمة	المعنى
نضِجَت	احترقت
عزيزا	قويا قادرا لا يمتنع عليه شيء
حكيما	يضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها
مُطهَّرة	طاهرات من كل أذى حسي أو معنوي
ظِلّا ظَلِيلا	ظِلا ممتدا كثيفا دائما لا حرّ فيه ولا برد
نِعِمّا	نِعم الشيء
وأولي الأمر	والولاةَ والعلماء
وأحسنُ تأويلا	وأحسنُ عاقبة ومآلا
إلى الطاغوت	إلى غير شرع الله
يَصُدّون عنك	يُعرِضون عنك
وتَوفِيقا	وجمعا بين الخصوم
قولًا بَلِيغًا	قولا زاجرا ومؤثّرا
شَجَرَ بينهم	وقع فيه النزاع بينهم
حرَجًا	ضيقًا وشكّا

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقف والابتداء في سورة النساء ٥٦-٦٥

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذه الفقرة المتعلقة بالوقف والابتداء في الآيات من سورة النساء من الآية السادسة والخمسين وحتى الآية الخامسة والستين.

أبدأ بالآية الأولى وهي قول الله تعالى: (إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة (إنّ) قد انتهت هنا، اسمها في قوله (الذين كفروا بآياتنا)، وخبرها (سوف نصليهم نارًا)، ثم جاءت بعدها جملةٌ متضمنةٌ معنى الشرط، وهي مستأنفةٌ في قوله (كلما نضجت جلودهم)، وجواب هذا الشرط في قوله (بدّلناهم جلودًا غيرها ليذوقوا العذاب)، فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

ثم هل يصح الوقف على قوله (ليذوقوا العذاب)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة المتضمنة معنى الشرط قد انتهت هنا وما تعلق بها، ثم جاءت جملةٌ مبدوءةٌ بـ (إنّ) في قوله (إنّ الله كان عزيزًا حكيمًا) فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، نص على ذلك الأشموني، لأن قوله (خالدين فيها أبدًا) حالٌ مما قبله، ولا يصح الوقف قبل الحال، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (خالدين فيها أبدًا)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجزاء الأساسي المتعلق بدخول الجنة والخلود فيها قد انتهى هنا، ثم ذكر شيئًا من نعيم الجنة التفصيلي في جملةٍ مستأنفةٍ في قوله (لهم فيها أزواجٌ مطهرةٌ)، وهذه الجملة متضمنةٌ مبتدأً مؤخرًا وخبرًا مقدمًا، فصح الوقف قبلها، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (لهم فيها أزواجٌ مطهرةٌ)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن قوله بعدها (وندخلهم ظلاً ظليلاً) جملةٌ فعليةٌ معطوفةٌ على جملةٍ اسميةٍ قد انتهت، وهذه الجملة الفعلية هي كذلك من تتمة نعيم الجنة، لكن لما استقلت لفظًا صحّ الوقف قبلها، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (إنّ الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها) هل يصح الوقف هنا؟

حسّن الوقف هنا الأشموني وحده دون غيره من علماء الوقف والابتداء، ونصّ على المنع منه السجاوندي، وعلّل ذلك السجاوندي بأن قوله بعدها (وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا) معطوفٌ على قوله (أن تؤدوا)، ومأمورٌ به أيضًا، أما الأشموني فقد فصّل في ذلك حين حسّن الوقف قال: إن كان الخطاب في الجملة الأولى يعني في قوله (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) لعامة المسلمين، والخطاب في الجملة الثانية خاصٌ لأولي الأمر حسن الوقف هنا، يعني أن الأمر بأداء الأمانات موجهٌ لعامة الناس، والأمر بالحكم بالعدل موجهٌ إلى أولي الأمر خاصةً، وعلى هذا الوجه يحسن الوقف، كما نص عليه الأشموني، ولم ينص عليه البقية لاعتبار أن الأمرين يخاطب بهما عامة الناس وأولوا الأمر كذلك، وهما معطوفان، ولا يتم ما أمروا به إلا على قوله (أن تحكموا بالعدل)، حيث صحح عامة علماء الوقف والابتداء الوقف هنا، لأن بعدها (إنّ الله نعمّا يعظكم به)، ويصح الابتداء بـ (إنّ) عادةً، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (إنّ الله نعمّا يعظكم به)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة (إنّ) الأولى قد انتهت هنا، ثم جاءت جملةٌ ثانيةٌ مستأنفةٌ مبدوءةٌ بـ (إنّ) في قوله (إنّ الله كان سميعًا بصيرًا) فصحّ الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الذين أُمر الناس بطاعتهم قد انتهى ذكرهم هنا، وهو طاعة الله وطاعة الرسول وأولي الأمر منا، ثم جاءت جملةٌ شرطيةٌ في قوله (فإن تنازعتم) ويصح الابتداء بالشرط عادةً فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فإن تنازعتم في شيءٍ فردّوه إلى الله والرسول)؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله بعدها (إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) شرطٌ متعلقٌ بما قبله، فالرد إلى الله والرسول إنما يحصل ممن يؤمن بالله واليوم الآخر، وجواب هذا الشرط محذوفٌ دلّ عليه ما قبله، تقديره: إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر فردوه إلى الله والرسول، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة الشرط وما تعلق بها قد انتهى هنا، ثم جاءت جملةٌ مستأنفةٌ في قوله (ذلك خيرٌ وأحسن تأويلاً)، فصحّ الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) هل يصح الوقف هنا؟

جوّز الوقف هنا الأشموني وحده على استئناف ما بعده، وقال: ليس هو بوقفٍ إن جعل ما بعده في موضع حالٍ من الضمير في (يزعمون)، وهو الصحيح، فإن قوله (يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت) حالٌ من (الذين يزعمون) فحالهم أنهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت، ولا يصح الوقف قبل الحال، فلا وقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت)؟

حسّن الوقف هنا الأشموني، وجعله الأنصاري صالحًا، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن قوله (وقد أمروا أن يكفروا به) في محل نصب حال من فاعل (يريدون)، فهم يريدون أن يتحاكموا وقد أمروا أن يكفروا بهذا الطاغوت الذي يريدون التحاكم إليه، فالأوجه عدم الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وقد أمروا أن يكفروا به)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة التي تضمنت حال هؤلاء المنافقين قد انتهت هنا، وانتهى معها ما ارتبط بها من الجمل الحالية، ثم جاءت جملةٌ معطوفةٌ مستقلةٌ قائمة بنفسها في قوله (ويريد الشيطان أن يضلّهم ضلالاً بعيدًا) فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، نص على ذلك الأشموني، لأنّ جواب (إذا) لم يأت بعد، وجوابها في قوله (رأيت المنافقين يصدون عنك صدودًا)، فلا وقف إلى نهاية الآية.

الآية التي تليها: (فكيف إذا أصابتهم مصيبةٌ بما قدمت أيديهم) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، نص على ذلك الأشموني، ووجهه أن قوله (ثم جاؤوك) هو عطفٌ من تتمة جملة الاستفهام، وذلك أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يبين أنه كيف يكون حالهم إذا أصابتهم مصيبةٌ بسبب ما قدمت أيديهم ثم جاؤوك يحلفون بالله ما أردنا إلا الإحسان والتوفيق، فلا وقف على قوله (أيديهم).

وهل يصح الوقف على قوله (ثم جاؤوك يحلفون)، ويبتدئ فيقول (بالله إن أردنا إلا إحسانًا وتوفيقًا)؟

الجواب: لا يصح، وقد نص الأشموني على أن الوقف هنا وقفٌ فيه تعسفٌ، وذلك أن قوله (يحلفون) مرتبطٌ بقوله (بالله)، فهم يحلفون بالله قائلين (إن أردنا إلا إحسانًا وتوفيقًا)، فلا يصح الوقف على (يحلفون)، ثم تقدير: قائلين بالله إن أردنا إلا إحسانًا وتوفيقًا على اعتبار الباء باء القسم، هذا من التكلف الواضح، والقسم إذا حذف في القرآن لا يكون إلا بالواو، أما إذا كان بالباء فإنه يأتي معها الفعل، فيقول (وأقسموا بالله) (يحلفون بالله)، ولا تأت الباء مع حذف الفعل الذي هو (يحلفون) (وأقسموا) في القرآن أبدًا، كما نص على ذلك الأشموني.

ومثل هذا التعسف والتكلف ما يقرأ به البعض في قوله تعالى (يا بنيّ لا تشرك)، ثم يبتدئ (بالله إن الشرك لظلمٌ عظيمٌ)، على اعتبارها جملة قسم، وهذا كما سبق لا يصح، وفيه تكلفٌ ظاهرٌ، بل الصحيح في الجملة (لا تشرك بالله)، ثم قال (إن الشرك لظلمٌ عظيم).

فلم يصح الوقف على قوله (يحلفون)، وبالتالي لا وقف في هذه الآية إلا في نهايتها، ومن أراد أن يقف فيها وقفًا حسنًا فله أن يقف على قوله (ثم جاؤوك يحلفون)، ثم يعود فيربط من قوله (ثم جاؤوك يحلفون بالله) إلى آخر الآية.

الآية التي تليها: (أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم) هل يصح الوقف هنا؟

جوّز الوقف هنا الأشموني، وجعله الأنصاري صالحًا، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن الله سبحانه وتعالى أخبر خبرًا أنه يعلم ما في قلوبهم، ثم أمر أمرًا فقال (فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغًا)، وهذا يتضمن كيفية التعامل معهم، وبناءً على هذا فإن الوقف هنا محتملٌ، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فأعرض عنهم وعظهم)؟

جوّز الوقف هنا الأشموني والأنصاري دون غيرهما من علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن الله سبحانه وتعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم في كيفية التعامل مع هؤلاء المنافقين بثلاثة أمورٍ: أن يعرض عنهم، وأن يعظهم، وأن يقول لهم في أنفسهم قولاً بليغًا، فالأوجه عدم الفصل بين هذه الأوامر الثلاثة، والله أعلم.

الآية التي تليها: (وما أرسلنا من رسولٍ إلا ليطاع بإذن الله) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن النفي وما ارتبط به من الاستثناء قد انتهى هنا، ثم جاءت جملةٌ شرطيةٌ مبدوءةٌ بـ (لو) الشرطية غير الجازمة في قوله (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم) الآية، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

ثم لا يصح الوقف من قوله (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابًا رحيمًا) إلا هنا في نهاية الآية، وذلك أن قوله (فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول) معطوفٌ على قوله (جاؤوك)، وهو من تتمة بيان ما كان ينبغي عليهم فعله لمّا وقعوا فيما وقعوا فيه من التحاكم إلى الطاغوت، ثم إن جواب الشرط (ولو) لم يأتِ إلا في قوله (لوجدوا الله توابًا رحيمًا)، فهنا انتهت جملة الشرط، والله أعلم.

الآية الأخيرة: (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم) هل يصح الوقف على قوله (فلا)؟

جوّز الوقف هنا الأنصاري والأشموني، على اعتبار أن النفي هنا ردٌّ للكلام المتقدم، فكأنه قال: ليس الأمر كما زعموا من أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك، ثم استأنف القسم فقال (وربك لا يؤمنون)، لكن هذا يظهر أن فيه نوع تكلفٍ، والله أعلم، فإن النفي هنا الأقرب أنه صلة، مثل ما جاء في قوله تعالى (فلا أقسم بمواقع النجوم) وغير ذلك من الآيات التي جاء فيها نفيٌ قبل القسم، وهذا النفي توطئةٌ للنفي الذي جاء في جملة القسم في قوله (لا يؤمنون) وبالتالي لا وقف هنا، والله أعلم.

ثم هل يصح الوقف على قوله (فيما شجر بينهم)؟

الجواب: لا، نص على ذلك السجاوندي، وذلك أن قوله (ثم لا يجدوا في أنفسهم) معطوفٌ على قوله (يحكموك) وهو كذلك منصوبٌ عطفًا على المنصوب (يحكموك) هذا من ناحيةٍ لفظيةٍ، أما من الناحية المعنوية فإن الله سبحانه وتعالى أقسم على نفي الإيمان عنهم إلى غاية، وهذه الغاية هي تحكيم الرسول صلى الله عليه وسلم فيما شجر بينهم، وعدم وجود الحرج في أنفسهم مما قضى به النبي صلى الله عليه وسلم، والتسليم التام لذلك، فهذا كله من تتمة بيان ما يصح الإيمان به وما ينتفي به، فلا وقف إلا في نهاية الآية، ومن أراد أن يقف وقفًا حسنًا فله أن يقف على قوله (فيما شجر بينهم) ثم يعود (حتى يحكموك فيما شجر بينهم) إلى نهاية الآية.

هذا آخر ما في هذا المقطع، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يعلّمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علّمنا، وأن يزيدنا علمًا وعملاً وهدًى وتقًى، والله تعالى أعلم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله الرحمن الرحيم

فوائد ولطائف سورة النساء ٥٦-٦٥

(كلما نضجت جلودهم بدّلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب):

قال البغوي: فإن قيل: كيف تعذب جلود لم تكن في الدنيا ولم تعصه؟

قيل: يعاد الجلد الأول في كل مرة، وإنما قال: (جلودا غيرها) لتبدل صفتها، كما تقول: صنعت من خاتمي خاتما غيره، فالخاتم الثاني هو الأول إلا أن الصناعة والصفة تبدلت. تفسير البغوي (١/ ٦٤٨).

وقال البقاعي: لما كانت النار – على ما نعهده – مفنية ماحقة، استأنف قوله ردا لذلك: {كلما نضجت جلودهم} أي: صارت بِحرّها إلى حالة اللحم النضيج الذي أدرك أن يؤكل، فصارت كاللحم الميت الذي يكون في الجرح، فلا يحس بالألم {بدّلناهم} أي: جعلنا لهم {جلودا غيرها} أي: غير النضيجة بدلا منها بأن أعدناها إلى ما كانت عليه قبل تسليط النار عليها... {ليذوقوا} أي: أصحاب الجلود المقصودون بالعذاب {العذاب} أي: ليدوم لهم تجدد ذوقه، فتتجدد لهم مشاهدة الإعادة بعد البلى كل وقت، كما كانوا يجددون التكذيب بذلك كل وقت، ليكون الجزاء من جنس العمل، فإنه لو لم يعد منهم ما وَهِيَ لأداه وَهْيُه إلى البلى، ولو بَلِيَ منهم شيء لبَلَوا كلهم فانقطع عذابهم. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٣٠٥-٣٠٦).

(وندخلهم ظلا ظليلا):

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن في الجنة شجرة، يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها)، واقرءوا إن شئتم: {وظل ممدود}. صحيح البخاري (٦/ ١٤٦)، صحيح مسلم (٤/ ٢١٧٥).

(إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل):

عن ابن جريج قوله: (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها)، قال: نزلت في عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، قبض منه النبي صلى الله عليه وسلم مفاتيح الكعبة، ودخل به البيت يوم الفتح، فخرج وهو يتلو هذه الآية، فدعا عثمان فدفع إليه المفتاح. تفسير الطبري (٨/ ٤٩١).

عن أنس بن مالك قال: ما خطبنا نبي الله صلى الله عليه وسلم إلا قال: (لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له) مسند أحمد (١٩/ ٣٧٦).

عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور، عن يمين الرحمن عز وجل، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم، وأهليهم وما ولّوا). مسند أحمد (١١/ ٣٢).

وقال ابن تيمية: قال تعالى: {إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل}، وقال: {فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين}، وقال: {فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق}، فأمره أن يحكم بالقسط، وأن يحكم بما أنزل الله، فدل ذلك على أن القسط هو ما أنزل الله، فما أنزل الله هو القسط، والقسط هو ما أنزل الله.
ولهذا وجب على كل من حكم بين اثنين أن يحكم بالعدل، لقوله تعالى: {وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل} فليس لحاكم أن يحكم بظلم أبدا، والشرع الذي يجب على حكام المسلمين الحكم به عدل كله، ليس في الشرع ظلم أصلا، بل حكم الله أحسن الأحكام. والشرع هو ما أنزل الله، فكل من حكم بما أنزل الله فقد حكم بالعدل. منهاج السنة النبوية (٥/ ١٢٨).

وقال ابن تيمية: قال العلماء: نزلت الآية الأولى في ولاة الأمور؛ عليهم أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل، ونزلت الثانية – يعني: (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) – في الرعية من الجيوش وغيرهم؛ عليهم أن يطيعوا أولي الأمر الفاعلين لذلك في قسمهم وحكمهم ومغازيهم وغير ذلك؛ إلا أن يأمروا بمعصية الله، فإذا أمروا بمعصية الله فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق؛ فإن تنازعوا في شيء ردوه إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وإن لم تفعل ولاة الأمر ذلك أطيعوا فيما يأمرون به من طاعة الله ورسوله؛ لأن ذلك من طاعة الله ورسوله،

وأديت حقوقهم إليهم كما أمر الله ورسوله، قال تعالى: {وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان} . وإذا كانت الآية قد أوجبت أداء الأمانات إلى أهلها والحكم بالعدل: فهذان جماع السياسة العادلة والولاية الصالحة. مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٤٥).

وقال ابن كثير: يخبر تعالى أنه يأمر بأداء الأمانات إلى أهلها، وفي حديث الحسن، عن سمرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أدّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك). رواه الإمام أحمد وأهل السنن، وهذا يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان، من حقوق الله عز وجل على عباده، من الصلوات والزكوات والكفارات والنذور والصيام، وغير ذلك مما هو مؤتمن عليه لا يطلع عليه العباد، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض، كالودائع وغير ذلك مما يأتمنون به بعضهم على بعض من غير اطّلاع بينة على ذلك. فأمر الله عز وجل بأدائها، فمن لم يفعل ذلك في الدنيا أخذ منه ذلك يوم القيامة، كما ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لتؤدَّنّ الحقوق إلى أهلها، حتى يقتصّ للشاة الجمّاء من القرناء). تفسير ابن كثير (٢/ ٣٣٨).

وقال السعدي: ذكر الفقهاء أن من اؤتمن أمانة وجب عليه حفظها في حرز مثلها. قالوا: لأنه لا يمكن أداؤها إلا بحفظها؛ فوجب ذلك.

وفي قوله: {إلى أهلها} دلالة على أنها لا تُدفع وتُؤدّى لغير المؤتمِن، ووكيلُه بمنزلته؛ فلو دفعها لغير ربها لم يكن مؤديا لها. تفسير السعدي (ص: ١٨٣).

(يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم):

سبب النزول: عن ابن عباس رضي الله عنهما: {أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم}، قال: «نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس إذ بعثه النبي صلى الله عليه وسلم في سرية». صحيح البخاري (٦/ ٤٦)، صحيح مسلم (٣/ ١٤٦٥).

وقال ابن كثير: قال صلى الله عليه وسلم: (السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة)...

وعن عبادة بن الصامت قال: بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة، في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله. قال: (إلا أن تروا كفرا بواحا، عندكم فيه من الله برهان) أخرجاه.

وفي الحديث الآخر عن أنس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (اسمعوا وأطيعوا وإن أُمّر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة). رواه البخاري.

وعن أبي هريرة قال: أوصاني خليلي أن أسمع وأطيع، وإن كان عبدا حبشيا مجدّع الأطراف. رواه مسلم.

وعن أم الحصين أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب في حجة الوداع يقول: (ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله، فاسمعوا له وأطيعوا) رواه مسلم، وفي لفظ له: (عبدا حبشيا مجدوعا)...

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي، وسيكون خلفاء فيكثرون). قالوا: يا رسول الله، فما تأمرنا؟ قال: (أوفوا ببيعة الأول فالأول، وأعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم) أخرجاه.

وعن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من رأى من أميره شيئا فكرهه فليصبر؛ فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبرا فيموت إلا مات ميتة جاهلية). أخرجاه.

وعن ابن عمر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من خلع يدا من طاعة، لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية). رواه مسلم...

والأحاديث في هذا كثيرة. تفسير ابن كثير (٢/ ٣٤٣-٣٤٤).

وقال السعدي: أَمَر بطاعة أولي الأمر وهم: الولاة على الناس، من الأمراء والحكام والمفتين، فإنه لا يستقيم للناس أمر دينهم ودنياهم إلا بطاعتهم والانقياد لهم، طاعة لله ورغبة فيما عنده، ولكن بشرط ألا يأمروا بمعصية الله، فإن أمروا بذلك فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. ولعل هذا هو السر في حذف الفعل عند الأمر بطاعتهم وذكره مع طاعة الرسول، فإن الرسول لا يأمر إلا بطاعة الله، ومن يطعه فقد أطاع الله، وأما أولو الأمر فشرط الأمر بطاعتهم أن لا يكون معصية. تفسير السعدي (ص: ١٨٣).

(فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر):

قال السعدي: أمر برد كل ما تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه إلى الله وإلى رسوله، أي: إلى كتاب الله وسنة رسوله؛ فإن فيهما الفصل في جميع المسائل الخلافية، إما بصريحهما أو عمومهما؛ أو إيماء، أو تنبيه، أو مفهوم، أو عموم معنى يقاس عليه ما أشبهه، لأن كتاب الله وسنة رسوله عليهما بناء الدين، ولا يستقيم الإيمان إلا بهما. فالرد إليهما شرط في الإيمان، فلهذا قال: {إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر} فدل ذلك على أن من لم يرد إليهما مسائل النزاع فليس بمؤمن حقيقة، بل مؤمن بالطاغوت، كما ذكر في الآية بعدها. تفسير السعدي (ص: ١٨٤).

(ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به):

سبب النزول: عن عامر الشعبي في هذه الآية: قال: كان بين رجل من اليهود ورجل من المنافقين خصومة، فكان المنافق يدعو إلى اليهود، لأنه يعلم أنهم يقبلون الرشوة، وكان اليهودي يدعو إلى المسلمين، لأنه يعلم أنهم لا يقبلون الرشوة. فاصطلحا أن يتحاكما إلى كاهن من جهينة، فأنزل الله فيه هذه الآية: (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك) حتى بلغ (ويسلّموا تسليما). تفسير الطبري (٨/ ٥٠٨).

وقال السعدي: {وقد أمروا أن يكفروا به} فكيف يجتمع هذا والإيمان؟ فإن الإيمان يقتضي الانقياد لشرع الله وتحكيمه في كل أمر من الأمور، فمن زعم أنه مؤمن واختار حكم الطاغوت على حكم الله، فهو كاذب في ذلك. تفسير السعدي (ص: ١٨٤).

(وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدّون عنك صدودا):

قال ابن تيمية: بين سبحانه أن من دعي إلى التحاكم إلى كتاب الله وإلى رسوله فصد عن رسوله كان منافقا، وقال سبحانه: {ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين * وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون * وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين

* أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون * إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا} فبين سبحانه أن من تولى عن طاعة الرسول وأعرض عن حكمه فهو من المنافقين، وليس بمؤمن، وأن المؤمن هو الذي يقول: سمعنا وأطعنا. الصارم المسلول على شاتم الرسول (ص: ٣٧).

(فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا):

قال ابن تيمية: فإن هؤلاء - يعني: المتكلّمين - إذا دعوا إلى ما أنزل الله من الكتاب وإلى الرسول - والدعاء إليه بعد وفاته هو الدعاء إلى سنته - أعرضوا عن ذلك وهم يقولون: إنا قصدنا الإحسان علما وعملا بهذه الطريق التي سلكناها والتوفيق بين الدلائل العقلية والنقلية. مجموع الفتاوى (٥/ ١٨).

وقال ابن كثير: {ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا} أي: يعتذرون إليك ويحلفون: ما أردنا بذهابنا إلى غيرك، وتحاكمنا إلى عداك إلا الإحسان والتوفيق، أي: المداراة والمصانعة، لا اعتقادا منا صحة تلك الحكومة، كما أخبرنا تعالى عنهم في قوله: {فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين}. تفسير ابن كثير (٢/ ٣٤٧).

(وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا):

قال السعدي: أي: انصحهم سرا بينك وبينهم، فإنه أنجح لحصول المقصود، وبالغ في زجرهم وقمعهم عما كانوا عليه، وفي هذا دليل على أن مقترف المعاصي وإن أُعرض عنه فإنه يُنصح سرا، ويبالغ في وعظه بما يظن حصول المقصود به. تفسير السعدي (ص: ١٨٤).

(وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله):

قال البغوي: (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله)، أي: بأمر الله لأن طاعة الرسول وجبت بأمر الله، قال الزجاج: إلا ليطاع بإذن الله لأن الله قد أذن فيه وأمر به. تفسير البغوي (١/ ٦٥٦).

وقال السعدي: يخبر تعالى خبرا في ضمنه الأمر والحث على طاعة الرسول والانقياد له، وأن الغاية من إرسال الرسل أن يكونوا مطاعِين، ينقاد لهم المرسَل إليهم في جميع ما أَمروا به ونَهوا عنه، وأن يكونوا معظّمين تعظيم المطيع للمطاع.

وفي هذا إثبات عصمة الرسل فيما يبلغونه عن الله، وفيما يأمرون به وينهون عنه؛ لأن الله أمر بطاعتهم مطلقا، فلولا أنهم معصومون لا يشرعون ما هو خطأ، لما أمر بذلك مطلقا.

وقوله: {بإذن الله} أي: الطاعة من المطيع صادرة بقضاء الله وقدره، ففيه إثبات القضاء والقدر، والحث على الاستعانة بالله، وبيان أنه لا يمكن الإنسان -إن لم يعنه الله- أن يطيع الرسول. تفسير السعدي (ص: ١٨٤).

(ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما):

عن مجاهد في قول الله: (ظلموا أنفسهم) إلى قوله: (ويسلموا تسليما)، قال: إن هذا في الرجل اليهودي والرجل المسلم اللذين تحاكما إلى كعب بن الأشرف. تفسير الطبري (٨/ ٥١٧).

وقال الطبري: ولو أن هؤلاء المنافقين = الذين وصف صفتهم في هاتين الآيتين، الذين إذا دعوا إلى حكم الله وحكم رسوله صدوا صدودا = (إذ ظلموا أنفسهم) باكتسابهم إياها العظيم من الإثم في احتكامهم إلى الطاغوت، وصدودهم عن كتاب الله وسنة رسوله إذا دعوا إليها = (جاؤوك) يا محمد، حين فعلو ما فعلوا من مصيرهم إلى الطاغوت، راضين بحكمه دون حكمك، جاؤوك تائبين منيبين، فسألوا الله أن يصفح لهم عن عقوبة ذنبهم بتغطيته عليهم، وسأل لهم اللهَ رسولُه صلى الله عليه وسلم مثلَ ذلك. وذلك هو معنى قوله: (فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول). تفسير الطبري (٨/ ٥١٧).

وقال ابن تيمية: وقد يخاطبون الميت عند قبره، أو يخاطبون الحي وهو غائب، كما يخاطبونه لو كان حاضرا حيا، وينشدون قصائد يقول أحدهم فيها: يا سيدي فلانا! أنا في حسبك، أنا في جوارك، اشفع لي إلى الله، سل الله لنا أن ينصرنا على عدونا، سل الله أن يكشف عنا هذه الشدة، أشكو إليك كذا وكذا فسل الله أن

يكشف هذه الكربة. أو يقول أحدهم: سل الله أن يغفر لي. ومنهم من يتأول قوله تعالى: {ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما}. ويقولون: إذا طلبنا منه الاستغفار بعد موته كنا بمنزلة الذين طلبوا الاستغفار من الصحابة، ويخالفون بذلك إجماع الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر المسلمين، فإن أحدا منهم لم يطلب من النبي صلى الله عليه وسلم بعد موته أن يشفع له، ولا سأله شيئا، ولا ذكر ذلك أحد من أئمة المسلمين في كتبهم، وإنما ذكر ذلك من ذكره من متأخري الفقهاء. قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة (١/ ٢٤).

(فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلّموا تسليما):

عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما: أن رجلا من الأنصار خاصم الزبير عند النبي صلى الله عليه وسلم في شراج الحرة التي يسقون بها النخل، فقال الأنصاري: سرّح الماء يمرّ، فأبى عليه، فاختصما عند النبي صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للزبير: «اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك»، فغضب الأنصاري، فقال: أن كان ابن عمتك؟ فتلوّن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: «اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر»، فقال الزبير: والله إني لأحسب هذه الآية نزلت في ذلك: {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم}. صحيح البخاري (٣/ ١١١)، صحيح مسلم (٤/ ١٨٢٩).

وقال البغوي: قوله تعالى: (فلا) أي: ليس الأمر كما يزعمون أنهم مؤمنون ثم لا يرضون بحكمك، ثم استأنف القسم (وربك لا يؤمنون). ويجوز أن تكون (لا) في قوله (فلا) صلة، كما في قوله (فلا أقسم). تفسير البغوي (١/ ٦٥٨).

وقال ابن القيم: أقسم سبحانه بأجلّ مقسم به - وهو نفسه عز وجل - على أنه لا يثبت لهم الإيمان، ولا يكونون من أهله، حتى يحكّموا رسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع موارد النزاع، في جميع أبواب الدين، فإن لفظة (ما) من صيغ العموم، فإنها موصولة تقتضي نفي الإيمان أو يوجد تحكيمه في جميع ما

شجر بينهم. ولم يقتصر على هذا حتى ضم إليه انشراح صدورهم بحكمه، حيث لا يجدون في أنفسهم حرجا - وهو الضيق والحصر - من حكمه، بل يقبلوا حكمه بالانشراح، ويقابلوه بالتسليم، لا أنهم يأخدونه على إغماض، ويشربونه على قذى، فإن هذا مناف للإيمان، بل لابد أن يكون أخذه بقبول ورضا وانشراح صدر.

ومتى أراد العبد أن يعلم هذا فلينظر في حاله، ويطالع قلبه عند ورود حكمه على خلاف هواه وغرضه، أو على خلاف ما قلّد فيه أسلافه من المسائل الكبار وما دونها: {بل الإنسان على نفسه بصيرة * ولو ألقى معاذيره}. فسبحان الله! كم من حزازة في نفوس كثير من الناس من كثير من النصوص، وبوِدّهم أن لو لم ترد؟ وكم من حرارة في أكبادهم منها؟ وكم من شجى في حلوقهم منها ومن موردها؟ ستبدو لهم تلك السرائر بالذي يسوء ويخزي يوم تبلى السرائر.

ثم لم يقتصر سبحانه على ذلك حتى ضم إليه قوله تعالى {ويسلّموا تسليما}، فذكر الفعل مؤكدا بمصدره القائم مقام ذكره مرتين. وهو التسليم والخضوع له والانقياد لما حكم به طوعا ورضا وتسليما، لا قهرا ومصابرة، كما يسلّم المقهور لمن قهره كرها، بل تسليم عبد مطيع لمولاه وسيده الذي هو أحب شيء إليه، يعلم أن سعادته وفلاحه في تسليمه إليه، ويعلم بأنه أولى به من نفسه، وأبرّ به منها، وأقدر على تخليصها.

فمتى علم العبد هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم واستسلم له، وسلّم إليه، انقادت له كل علة في قلبه، ورأى أن لا سعادة له إلا بهذا التسليم والانقياد.

وليس هذا مما يحصّل معناه بالعبارة، بل هو أمر انشق القلب واستقرّ في سويدائه، لا تفي العبارة بمعناه، ولا مطمع في حصوله بالدعوى والأماني.

وكل يدعى وصلا لليلى ... وليلى لا تقر لهم بذاك. الرسالة التبوكية (ص: ٢٤-٢٦).

وقال السعدي: التحكيم في مقام الإسلام، وانتفاء الحرج في مقام الإيمان، والتسليم في مقام الإحسان. فمن استكمل هذه المراتب وكمّلها فقد استكمل مراتب الدين كلها. ومن ترك هذا التحكيم المذكور غير ملتزم له فهو كافر، ومن تركه مع التزامه فله حكم أمثاله من العاصين. تفسير السعدي (ص: ١٨٥).

بسم الله الرحمن الرحيم

العمل بالآيات من سورة النساء ٥٦-٦٥

١- مَن لا يتحمّل في الدنيا لسعة من نار كيف يتحمّل دخول نار جهنم، وهي تُحرق جلده كاملا، وكلما احترق جلده بُدّل جلدا غيره ليذوق العذاب، فاحذر النار، واعلم أنك لا تطيق غمسة واحدة فيها (إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلّما نضجت جلودهم بدّلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما).

٢- كلّما رأيت نعيما في الدنيا تذكّر نعيم الجنّة وما فيها من الأنهار التي تجري من تحت قصورها وأشجارها، وكلّما افتُتِنت بالنساء في الدنيا تذكّر ما في الجنة من الأزواج المطهّرات اللاتي بلغن في الجمال ما لا يدانيه أجمل نساء الدنيا، وكلّما تنعّمت بأجهزة التكييف والتبريد فتذكّر الظلّ الممتدّ الكثيف الدائم في الجنة الذي لا حرّ فيه ولا برد، واعلم أنك لن تدرك ذلك النعيم العظيم إلا بالعمل الصالح في الدنيا، فالبدار البدار (والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا).

٣- احرص على أداء الأمانات إلى أهلها، وذلك بترك الظلم والغش والكذب والرشوة، وأداء الأموال إلى أصحابها من وديعة وأجرة ونفقة، وأداء حقوق الوالدين والأقارب والجيران والأصحاب، وأداء الزكاة لمستحقيها من الفقراء والمساكين وغيرهم، والعدل في الحكم بين الناس، ولو كان المحكوم عليه هو نفسك أو أقرب الناس وأحبّهم إليك، واعلم أنك بذلك تحقّق السعادة لنفسك، وتساهم في صلاح مجتمعك وتكافله وترابطه، واعلم أن الله مطّلع على ذلك كله، وسيحاسبك على أي تقصير أو تفريط في ذلك (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعمّا يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا).

٤- المؤمن حقا هو الذي يطيع الله ويطيع رسوله صلى الله عليه وسلم في كل أمر ما استطاع، وإن حصل نزاع في شيء من أحكام الدين فإنه يردّه إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ويفهمهما وفق فهم الصحابة والتابعين وأئمة الإسلام المعتبَرين، ولا يقدّم على الكتاب والسنة هوى نفسه ولا رأي شيخه ولا عادة مجتمعه ولا أصل جماعته وحزبه، فذلك خير في الحال والمآل، وبه تجتمع الكلمة ويقوى الصف وتتآلف القلوب (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا

الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فرُدّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا).

٥- احرص على طاعة أولي الأمر فيما ليس فيه معصية للرحمن، واحذر الخروج عليهم بقول أو فعل، واحرص على حقن دماء المسلمين وحفظ أمنهم وصون أعراضهم بجمع كلمتهم على ولاة أمرهم (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم).

٦- من مقتضيات الإيمان بالله ورسوله وكتابه التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم في كل أمر من أمور الدين، وقبول الحكم الوارد فيهما، والتسليم التامّ له، بلا شكّ في صلاحيته، أو تردّد في قبوله، فذاك دليل على تحقق الإيمان في القلب، وأما التحاكم إلى غيرهما أو عدم قبول حكمهما أو قبوله مع الشك والتردد فهو دليل على النفاق والضلال واتّباع سبيل الشيطان (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلّهم ضلالا بعيدا)، (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله)، (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلّموا تسليما).

٧- احذر من أولئك المنافقين الذين يصدّون عن تطبيق شريعة الله، ولا تستمع إليهم، ولا تغترّ بلحن قولهم، أو بدعوى أنهم يريدون الإحسان والتوفيق (وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا * فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدّمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا).

٨- عامل مرضى القلوب من أهل النفاق وأرباب البدع وأصحاب المجاهرة بالمعاصي بالإعراض عنهم وعن مجالستهم، والموعظة الحسنة لهم ترغيبا وترهيبا، والقول البليغ الزاجر لهم والمؤثّر فيهم، وليكن نصحك لهم سرا بينك وبينهم فإنه أدعى للقبول (أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا).

٩- إذا وقعت في ظلم نفسك بالمعاصي فبادر بالتوبة والاستغفار مهما تكرّر منك الذنب، ولا تيأس، ولا تقنط من رحمة الله، فإن الله كثير التوبة على من عصاه، رحيم بمن أناب إليه (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما).

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة النساء (٦٦-٧٦) من التفسير الميسّر

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٦٨)

ولو أوجبنا على هؤلاء المنافقين المتحاكمين إلى الطاغوت أن يقتل بعضهم بعضًا، أو أن يخرجوا من ديارهم، ما استجاب لذلك إلا عدد قليل منهم، ولو أنهم استجابوا لما يُنصحون به لكان ذلك نافعًا لهم، وأقوى لإيمانهم، ولأعطيناهم من عندنا ثوابًا عظيمًا في الدنيا والآخرة، ولأرشدناهم ووفقناهم إلى طريق الله القويم.

وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (٦٩)

ومن يستجب لأوامر الله تعالى وهدي رسوله محمد صلى الله عليه وسلم فأولئك الذين عَظُمَ شأنهم وقدرهم، فكانوا في صحبة مَن أنعم الله تعالى عليهم بالجنة من الأنبياء والصديقين الذين كمُل تصديقهم بما جاءت به الرسل، اعتقادًا وقولا وعملا والشهداء في سبيل الله وصالح المؤمنين، وحَسُنَ هؤلاء رفقاء في الجنة.

ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِ وَكَفَى بِاللهِ عَلِيمًا (٧٠)

ذلك العطاء الجزيل من الله وحده. وكفى بالله عليما يعلم أحوال عباده، ومَن يَستحقُّ منهم الثواب الجزيل بما قام به من الأعمال الصالحة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا (٧١)

يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم بالاستعداد لعدوكم، فاخرجوا لملاقاته جماعة بعد جماعة أو مجتمعين.

وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢)

وإنَّ منكم لنفرًا يتأخر عن الخروج لملاقاة الأعداء متثاقلا ويثبط غيره عن عمد وإصرار، فإن قُدِّر عليكم وأُصِبتم بقتل وهزيمة، قال مستبشرًا: قد حفظني الله، حين لم أكن حاضرًا مع أولئك الذين وقع لهم ما أكرهه لنفسي، وسرَّه تخلفه عنكم.

وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧٣)

ولئن نالكم فضل من الله وغنيمة، ليقولن -حاسدًا متحسرًا، كأن لم تكن بينكم وبينه مودة في الظاهر-: يا ليتني كنت معهم فأظفر بما ظَفِروا به من النجاة والنصرة والغنيمة.

فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤)

فليجاهد في سبيل نصرة دين الله، وإعلاء كلمته، الذين يبيعون الحياة الدنيا بالدار الآخرة وثوابها. ومن يجاهد في سبيل الله مخلصًا، فيُقْتَلْ أو يَغْلِبْ، فسوف نؤتيه أجرًا عظيمًا.

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (٧٥)

وما الذي يمنعكم -أيها المؤمنون- عن الجهاد في سبيل نصرة دين الله، ونصرة عباده المستضعفين من الرجال والنساء والصغار الذين اعتُدي عليهم، ولا حيلة لهم ولا وسيلة لديهم إلا الاستغاثة بربهم، يدعونه قائلين: ربنا أخرجنا من هذه القرية -يعني «مكة» - التي ظَلَم أهلها أنفسهم بالكفر والمؤمنين بالأذى، واجعل لنا من عندك وليّا يتولى أمورنا، ونصيرًا ينصرنا على الظالمين؟

الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦)

الذين صدَقُوا في إيمانهم اعتقادًا وعملا يجاهدون في سبيل نصرة الحق وأهله، والذين كفروا يقاتلون في سبيل البغي والفساد في الأرض، فقاتلوا أيها المؤمنون أهل الكفر والشرك الذين يتولَّون الشيطان، ويطيعون أمره، إن تدبير الشيطان لأوليائه كان ضعيفًا.

بسم الله الرحمن الرحيم

معاني كلمات سورة النساء (٦٦-٧٦)

الكلمة	المعنى
اقتُلوا أنفسَكم	ليقتل بعضكم بعضا
وأَشدَّ تَثبيتا	وأكثر تقوية لإيمانهم
والصِّدِّيقين	والذين كمُل تصديقهم بما جاءت به الرسل
خُذُوا حِذرَكم	خذوا سلاحكم وتيقّظوا لعدوّكم
فانفِرُوا ثُبَاتٍ	فاخرجوا للجهاد جماعاتٍ متفرّقين
لَيُبَطِّئَنّ	ليتثاقلنّ وليُثبّطنّ غيره عن الخروج للجهاد
شَهِيدا	حاضِرا
يَشرُون	يبيعون
أو يَغْلِب	أو يَنتَصِر
هذه القرية	مكة
في سبيل الطاغوت	في طريق البغي والفساد في الأرض
كيْدَ الشيطان	تدبيرَ الشيطان ومكرَه

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقف والابتداء في سورة النساء ٦٦-٧٦

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذه الفقرة المتعلقة بالوقف والابتداء في الآيات من سورة النساء من الآية السادسة والستين وحتى الآية السادسة والسبعين.

أبدأ بالآية الأولى وهي قول الله تعالى: (ولو أنا كتبنا عليهم ان اقتلوا أنفسكم) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله: (أو اخرجوا من دياركم) معطوف على (اقتلوا أنفسكم)، وتقديره: ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو كتبنا عليهم أن اخرجوا من دياركم، فلم يصح الوقف هنا.

وهل يصح الوقف على قوله: (أو اخرجوا من دياركم)؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن جواب الشرط لم يأت بعد، أين الشرط؟ في قوله: (لو)، شرط غير جازم، وجوابه (ما فعلوه إلا قليل منهم،) فلا وقف إلا على قوله: (إلا قليل منهم)، كما نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة الشرط غير الجازم قد انتهت هنا، ثم جاءت جملة شرط آخر في قوله: (ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به)، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (لكان خيرا لهم)؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله: (وأشدّ تثبيتا) معطوف على جواب الشرط، تقديره: لكان فعلهم ما يوعظون به خيرا لهم، ولكان أشد تثبيتا.

الآية التي تليها: (وإذا لآتيناهم من لدنّا أجرا عظيما) لا وقف فيها، ولا في الآية التي بعدها: (ولهديناهم صراطا مستقيما).

الآية التي تليها: (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح؛ لأن قوله: (من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) جار ومجرور متعلق بحال من ضمير الغائب (عليهم)، يعني مع الذين أنعم الله عليهم الذين هم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون، فلم يصح الوقف هنا، والله تعالى اعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (والصالحين)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن ذكر الجزاء قد انتهى هنا، ثم جاءت جملة مستأنفة في الثناء على هذا الجزاء الذي هو مرافقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، قال: (وحسن أولئك رفيقا)، فصحّ الفصل بين الجزاء وبين الثناء عليه.

الآية التي تليها: (ذلك الفضل من الله)، هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نصّ عليه جماعة من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن بعده جملة فعلية مستأنفة جاءت بعد جملة اسمية في قوله: (ذلك الفضل من الله)، هذه جملة اسمية، جاء بعدها جملة فعلية في قوله: (وكفى بالله عليما)، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

الآية التي تليها: (يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله: (فانفِرُوا ثُبَات) معطوف على جواب النداء، أين جواب النداء؟ (خذوا حذركم)، فناداهم وطلب منهم أن يأخذوا حذرهم، وأخذ الحذر عطف عليه أمرهم بأن ينفروا ثبات أو ينفروا جميعا، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (وإن منكم لمن ليبطئنّ) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعة من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة (إنّ) قد انتهت هنا باسمها وخبرها، ثم جاءت جملة شرطية في قوله: (فإن أصابتكم مصيبة)، فصح الوقف هنا للفصل بين جملة (إنّ) وبين الجملة الشرطية، والله أعلم.

الآية التي تليها: (ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينهم مودة) هل يصح الوقف هنا؟

جوّز الوقف هنا الأنصاري وحده دون غيره من علماء الوقف والابتداء، ومنع منه الأشموني، وهذا هو الظاهر، المنع من الوقف هنا؛ لأن قوله: (كأن لم تكن بينكم وبينه مودة) إنما هي جملة معترضة بين (ليقولنّ) وبين قولهم، الذي هو معمول القول: (يا ليتني كنت معهم)، وتقدير الجملة: ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما، وقال هذا القول كأنه لم تكن بينكم وبينه مودة من قبل، وبالتالي لا وقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (يا ليتني كنت معهم)؟

الجواب: لا يصح، نص على ذلك ابن الأنباري والنحاس والداني؛ لأن قوله: (فأفوز فوزا عظيما) جواب التمني، تمنى فقال: يا ليتني كنت معهم حتى أفوز فوزا عظيما، فلا وقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نصّ عليه جماعة من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الأمر قد انتهى هنا، حيث أمرهم بأن يقاتلوا في سبيل الله، أمر الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة، ثم جاءت جملة شرطية في قوله: (ومن يقاتل في سبيل الله)، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

الآية التي تليها: (وما لكم لا تقتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها) لا وقف إلا هنا، كما نص عليه جماعة من علماء الوقف والابتداء، أما ما قبله فهو تتمة لجملة واحدة تضمنت الدوافع للقتال في سبيل الله، فكأنه قال: لماذا لا تقاتلون في سبيل الله وحال المستضعفين من الرجال والنساء والولدان أنهم يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها، ويصح الوقف هنا للفصل بين الدعوات التي يدعو بها هؤلاء المستضعفون، فإن الله سبحانه وتعالى ذكر عنهم ثلاث دعوات: قولهم: (ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها) هذا دعاء، (واجعل لنا من لدنك وليا) هذا دعاء، (واجعل لنا من لدنك نصيرا) هذا دعاء، فبعض علماء الوقف والابتداء صحّح الفصل بين هذه الدعوات، والبعض الآخر لم يصحّح الفصل، والأمر في هذا واسع، والله تعالى أعلم.

الآية الأخيرة: (الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله) هل يصح الوقف هنا؟

نصّ على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، ووجهه عندهم: الفصل بين الفئتين المتضادتين، حيث ذكر الله كل فئة بجملة قائمة بنفسها، فذكر الذين آمنوا وأنهم يقاتلون في سبيل الله، وذكر الذين كفروا وأنهم يقاتلون في سبيل الطاغوت، فصحّ الفصل بينهما، والله أعلم.

وهل يصحّ الوقف على قوله: (والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعة من علماء الوقف والابتداء، ووجهه: أن ذكر الفئتين المتضادتين قد انتهى هنا، ثم جاءت جملة واقعة في جواب شرط مقدر في قوله: (فقاتلوا أولياء الشيطان) يعني: فإن كنتم من الذين آمنو فقاتلوا أولياء الشيطان، وهذه الجملة تضمنت أمرا بعد خبر، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (فقاتلوا أولياء الشيطان)؟

الجواب: نعم، نصّ عليه جماعة من علماء الوقف والابتداء، ووجهه: أن الأمر قد انتهى هنا، ثم جاءت جملة مبدوءة بإنّ في قوله: (إنّ كيد الشيطان كان ضعيفا)، وإن كانت هذه الجملة قد تضمنت معنى التعليل للأمر بقتال أولياء الشيطان، فكأنه قال: فإن كيد الشيطان كان ضعيفا، أو لأن كيد الشطان كان ضعيفا، لكن لما استقلت الجملة لفظيا صح الفصل بينهما، والله أعلم.

هذا آخر ما في هذا المقطع، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يعلّمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علّمنا، وأن يزيدنا علمًا وعملاً وهدًى وتقًى، والله تعالى أعلم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله الرحمن الرحيم

فوائد ولطائف سورة النساء ٦٦-٧٦

(ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم):

قال ابن كثير: يخبر تعالى عن أكثر الناس أنهم لو أمروا بما هم مرتكبونه من المناهي لما فعلوه؛ لأن طباعهم الرديئة مجبولة على مخالفة الأمر، وهذا من علمه تبارك وتعالى بما لم يكن لو كان كيف كان يكون. تفسير ابن كثير (٢/ ٣٥٢).

وقال السعدي: يخبر تعالى أنه لو كتب على عباده الأوامر الشاقة على النفوس: من قتل النفوس والخروج من الديار لم يفعله إلا القليل منهم والنادر، فليحمدوا ربهم وليشكروه على تيسير ما أمرهم به من الأوامر التي تسهل على كل أحد، ولا يشق فعلها. تفسير السعدي (ص: ١٨٥).

(ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا * وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما * ولهديناهم صراطا مستقيما):

قال ابن تيمية: وفي الأثر: (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم)، وقد دل القرآن على ذلك في غير موضع كقوله: {ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا * وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما * ولهديناهم صراطا مستقيما} فقد أخبر أنه من فعل ما يؤمر به يهديه الله صراطا مستقيما، وقال تعالى: {يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام}، وقال تعالى: {والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم}، وقال: {إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى}. مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٤٥).

وقال ابن تيمية: قوله (أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا)، وقوله تعالى: {ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله إبراهيم خليلا}، وقوله تعالى: {اعدلوا هو أقرب للتقوى}، وقوله: {ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا} ونظائر هذا كثيرة مما يَذكر فيه أن المأمور به خير وأحسن من المنهي عنه، وإن كان الأول واجبا والثاني محرما. وذلك لأن المأمور به قد يشتمل على مفسدة مرجوحة، والمنهي عنه يشتمل على مصلحة مرجوحة، فيكون باعتبار

ذلك في هذا خير وحسن، وفي هذا شر وسوء، لكن هذا خير وأحسن وإن كان واجبا. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية (٦/ ٢٠-٢١).

وقال ابن تيمية: يجيء الوعظ في القرآن مرادا به الأمر والنهي بترغيب وترهيب. كقوله: {ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به}، وقوله: {يعظكم الله أن تعودوا لمثله}، وقوله: {فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة} أي: يتعظون بها فينتبهون وينزجرون. مجموع الفتاوى (٢/ ٤٥).

وقال ابن القيم: ذكر الله سبحانه في غير موضع من كتابه أن الحسنة الثانية قد تكون من ثواب الحسنة الأولى... كقوله تعالى: {ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما ولهديناهم صراطا مستقيما}، وقال تعالى: {والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا}، وقال: {يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم}. شفاء العليل (ص: ١٦١).

وقال السعدي: أخبر أنهم لو فعلوا ما يوعظون به أي: ما وظف عليهم في كل وقت بحسبه، فبذلوا هممهم، ووفروا نفوسهم للقيام به وتكميله، ولم تطمح نفوسهم لما لم يصلوا إليه ولم يكونوا بصدده، وهذا هو الذي ينبغي للعبد، أن ينظر إلى الحالة التي يلزمه القيام بها فيكملها، ثم يتدرج شيئا فشيئا حتى يصل إلى ما قدر له من العلم والعمل في أمر الدين والدنيا، وهذا بخلاف من طمحت نفسه إلى أمر لم يصل إليه ولم يؤمر به بعد، فإنه لا يكاد يصل إلى ذلك بسبب تفريق الهمة، وحصول الكسل، وعدم النشاط...

ثم رتب ما يحصل لهم على فعل ما يوعظون به، وهو أربعة أمور:

(أحدها) الخيرية في قوله: {لكان خيرا لهم}، أي: لكانوا من الأخيار المتصفين بأوصافهم من أفعال الخير التي أمروا بها، أي: وانتفى عنهم بذلك صفة الأشرار، لأن ثبوت الشيء يستلزم نفي ضده.

(الثاني) حصول التثبيت والثبات وزيادته، فإن الله يثبت الذين آمنوا بسبب ما قاموا به من الإيمان، الذي هو القيام بما وُعظوا به، فيثبتهم في الحياة الدنيا عند ورود الفتن في الأوامر والنواهي والمصائب،

فيحصل لهم ثبات يوفقون لفعل الأوامر وترك الزواجر التي تقتضي النفس فعلها، وعند حلول المصائب التي يكرهها العبد. فيوفق للتثبيت بالتوفيق للصبر أو للرضا أو للشكر. فينزل عليه معونة من الله للقيام بذلك، ويحصل له الثبات على الدين عند الموت وفي القبر. وأيضا فإن العبد القائم بما أمر به، لا يزال يتمرن على الأوامر الشرعية حتى يألفها ويشتاق إليها وإلى أمثالها، فيكون ذلك معونة له على الثبات على الطاعات.

(الثالث) قوله: {وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما} أي: في العاجل والآجل الذي يكون للروح والقلب والبدن، ومن النعيم المقيم مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

(الرابع) الهداية إلى صراط مستقيم. وهذا عموم بعد خصوص، لشرف الهداية إلى الصراط المستقيم، من كونها متضمنة للعلم بالحق، ومحبته وإيثاره والعمل به، وتوقف السعادة والفلاح على ذلك، فمن هدي إلى صراط مستقيم، فقد وفق لكل خير واندفع عنه كل شر وضير. تفسير السعدي (ص: ١٨٥).

(ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين):

سبب النزول: عن سعيد بن جبير قال: جاء رجل من الأنصار إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو محزون، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: (يا فلان، مالي أراك محزونا؟) قال: يا نبي الله، شيء فكرت فيه! فقال: (ما هو؟) قال: نحن نغدو عليك ونروح، ننظر في وجهك ونجالسك، وغدا ترفع مع النبيين فلا نصل إليك! فلم يردّ النبي صلى الله عليه وسلم شيئا، فأتاه جبريل عليه السلام بهذه الآية: (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا). قال: فبعث إليه النبي صلى الله عليه وسلم فبشّره. تفسير الطبري (٨/ ٥٣٤).

وقال ابن كثير: ثبت في صحيح مسلم... عن ربيعة بن كعب الأسلمي أنه قال: كنت أبيت عند النبي صلى الله عليه وسلم فأتيته بوضوئه وحاجته، فقال لي: (سل). فقلت: يا رسول الله، أسألك مرافقتك في الجنة. فقال: (أو غير ذلك؟) قلت: هو ذاك. قال: (فأعنّي على نفسك بكثرة السجود)...

وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله شهدت أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، وصليت الخمس، وأديت زكاة مالي، وصمت شهر رمضان. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من

مات على هذا كان مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة هكذا -ونصب أصبعيه- ما لم يعقّ والديه) تفرد به أحمد...

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من قرأ ألف آية في سبيل الله كُتب يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا، إن شاء الله).

وروى الترمذي... عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء)...

وأعظم من هذا كله بشارة ما ثبت في الصحاح والمسانيد وغيرها، من طرق متواترة عن جماعة من الصحابة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم؟ فقال: (المرء مع من أحبّ) قال أنس: فما فرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث. وفي رواية عن أنس أنه قال: إني أحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأحب أبا بكر وعمر، رضي الله عنهما وأرجو أن يبعثني الله معهم وإن لم أعمل كعملهم...

وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما تتراءون الكوكب الدري الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم). قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: (بلى، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين). أخرجاه في الصحيحين. تفسير ابن كثير (٢/ ٣٥٥-٣٥٦).

وقال ابن كثير: عن عائشة قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما من نبي يمرض إلا خُيّر بين الدنيا والآخرة) وكان في شكواه التي قبض فيها، فأخذته بحة شديدة، فسمعته يقول: {مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين} فعلمت أنه خُيّر... وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الآخر: (اللهم في الرفيق الأعلى) ثلاثا، ثم قضى عليه أفضل الصلاة والتسليم. تفسير ابن كثير (٢/ ٣٥٣).

(ذلك الفضل من الله):

قال الطبري: (ذلك الفضل من الله) يقول: كون من أطاع الله والرسول مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين (الفضل من الله) يقول: ذلك عطاء الله إياهم وفضله عليهم، لا باستيجابهم ذلك لسابقة سبقت لهم.

فإن قال قائل: أو ليس بالطاعة وصلوا إلى ما وصلوا إليه من فضله؟

قيل له: إنهم لم يطيعوه في الدنيا إلا بفضله الذي تفضل به عليهم، فهداهم به لطاعته، فكل ذلك فضل منه تعالى ذكره. تفسير الطبري (٨/ ٥٣٥).

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قاربوا وسددوا، واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله» قالوا: يا رسول الله ولا أنت؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل». صحيح البخاري (٨/ ٩٩)، صحيح مسلم (٤/ ٢١٧٠).

(يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم):

قال السعدي: يأمر تعالى عباده المؤمنين بأخذ حذرهم من أعدائهم الكافرين. وهذا يشمل الأخذ بجميع الأسباب، التي بها يستعان على قتالهم ويستدفع مكرهم وقوتهم، من استعمال الحصون والخنادق، وتعلم الرمي والركوب، وتعلم الصناعات التي تعين على ذلك، وما به يعرف مداخلهم ومخارجهم ومكرهم، والنفير في سبيل الله. تفسير السعدي (ص: ١٨٦).

(وإنّ منكم لمن ليبطّئنّ):

قال البغوي: (وإنّ منكم لمن ليبطئنّ) نزلت في المنافقين، وإنما قال (منكم) لاجتماعهم مع أهل الإيمان في الجنسية والنسب وإظهار الإسلام، إلا في حقيقة الإيمان. تفسير البغوي (١/ ٦٦١).

وقال ابن كثير: ويحتمل أن يكون المراد أنه يتباطأ هو في نفسه، ويبطّئ غيره عن الجهاد، كما كان عبد الله بن أبي بن سلول -قبحه الله- يفعل، يتأخر عن الجهاد، ويثبط الناس عن الخروج فيه. تفسير ابن كثير (٢/ ٣٥٧).

(فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيدا):

قال السعدي: رأى من ضعف عقله وإيمانه أن التقاعد عن الجهاد الذي فيه تلك المصيبة نعمة. ولم يدر أن النعمة الحقيقية هي التوفيق لهذه الطاعة الكبيرة، التي بها يقوى الإيمان، ويسلم بها العبد من العقوبة والخسران، ويحصل له فيها عظيم الثواب ورضا الكريم الوهاب. وأما القعود فإنه وإن استراح قليلا فإنه يعقبه تعب طويل وآلام عظيمة، ويفوته ما يحصل للمجاهدين. تفسير السعدي (ص: ١٨٦).

(ليقولنّ كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما):

قال البغوي: قوله: (كأن لم تكن بينكم وبينه مودة) متصل بقوله (فإن أصابتكم مصيبة) تقديره: فإن أصابتكم مصيبة قال: قد أنعم الله علي إذ لم أكن معهم شهيدا، كأن لم تكن بينكم وبينه مودة. تفسير البغوي (١/ ٦٦٢).

وقال ابن تيمية: هؤلاء المبطئون لم يحبوا لإخوانهم المؤمنين ما يحبون لأنفسهم، بل إن أصابتهم مصيبة فرحوا باختصاصهم، وإن أصابتهم نعمة لم يفرحوا لهم بها، بل أحبوا أن يكون لهم منها حظ، فهم لا يفرحون إلا بدنيا تحصل لهم، أو شر دنيوي ينصرف عنهم، إذ كانوا لا يحبون الله ورسوله والدار الآخرة، ولو كانوا كذلك لأحبوا إخوانهم، وأحبوا ما وصل إليهم من فضله، وتألموا بما يصيبهم من المصيبة، ومن لم يسره ما يسر المؤمنين ويسوءه ما يسوء المؤمنين فليس منهم. ففي الصحيحين عن عامر قال سمعت النعمان بن بشير يخطب ويقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه شيء تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر)، وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا) وشبك بين أصابعه. مجموع الفتاوى (١٠/ ١٢٨).

وقال السعدي: كأنه ليس منكم يا معشر المؤمنين ولا بينكم وبينه المودة الإيمانية التي من مقتضاها أن المؤمنين مشتركون في جميع مصالحهم ودفع مضارهم، يفرحون بحصولها ولو على يد غيرهم من إخوانهم المؤمنين، ويألمون بفقدها، ويسعون جميعا في كل أمر يصلحون به دينهم ودنياهم، فهذا الذي يتمنى الدنيا فقط ليست معه الروح الإيمانية المذكورة. تفسير السعدي (ص: ١٨٦).

(فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة):

قال السعدي: ومن لطف الله بعباده أن لا يقطع عنهم رحمته، ولا يغلق عنهم أبوابها. بل من حصل منه غير ما يليق أمره ودعاه إلى جبر نقصه وتكميل نفسه، فلهذا أمر هؤلاء بالإخلاص والخروج في سبيله فقال: {فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة} هذا أحد الأقوال في هذه الآية، وهو أصحها.

وقيل: إن معناه: فليقاتل في سبيل الله المؤمنون الكاملو الإيمان، الصادقون في إيمانهم {الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة} أي: يبيعون الدنيا رغبة عنها بالآخرة رغبة فيها. فإن هؤلاء الذين يوجه إليهم الخطاب؛ لأنهم الذين قد أعدوا أنفسهم ووطنوها على جهاد الأعداء، لما معهم من الإيمان التام المقتضي لذلك. وأما أولئك المتثاقلون، فلا يعبأ بهم خرجوا أو قعدوا، فيكون هذا نظير قوله تعالى: {قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا} إلى آخر الآيات. وقوله: {فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكّلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين}. تفسير السعدي (ص: ١٨٦-١٨٧).

(ومن يقاتل في سبيل الله فيُقتل أو يَغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما):

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «تكفل الله لمن جاهد في سبيله، لا يخرجه إلا الجهاد في سبيله، وتصديق كلماته بأن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه، مع ما نال من أجر أو غنيمة» صحيح البخاري (٤/ ٨٦)، صحيح مسلم (٣/ ١٤٩٦).

قال الطبري: (فسوف نؤتيه أجرا عظيما)، يقول: فسوف نعطيه في الآخرة ثوابا وأجرا عظيما. وليس لما سمى جل ثناؤه (عظيما) مقدار يعرف مبلغَه عبادُ الله. تفسير الطبري (٨/ ٥٤٢).

وقال السعدي: {ومن يقاتل في سبيل الله} بأن يكون جهادا قد أمر الله به ورسوله، ويكون العبد مخلصا لله فيه قاصدا وجه الله {فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما} زيادة في إيمانه ودينه، وغنيمة، وثناء حسنا، وثواب المجاهدين في سبيل الله الذين أعد الله لهم في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. تفسير السعدي (ص: ١٨٧).

(وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان...):

قال البغوي: (والمستضعفين) أي: عن المستضعفين، وقال ابن شهاب: في سبيل المستضعفين لتخليصهم، وقيل: في تخليص المستضعفين من أيدي المشركين. تفسير البغوي (١/ ٦٦٣).

(الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت):

قال السعدي: هذا إخبار من الله بأن المؤمنين يقاتلون في سبيله، {والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت} الذي هو الشيطان. في ضمن ذلك عدة فوائد:

منها: أنه بحسب إيمان العبد يكون جهاده في سبيل الله وإخلاصه ومتابعته. فالجهاد في سبيل الله من آثار الإيمان ومقتضياته ولوازمه، كما أن القتال في سبيل الطاغوت من شعب الكفر ومقتضياته.

ومنها: أن الذي يقاتل في سبيل الله ينبغي له ويحسن منه من الصبر والجلد ما لا يقوم به غيره، فإذا كان أولياء الشيطان يصبرون ويقاتلون وهم على باطل، فأهل الحق أولى بذلك، كما قال تعالى في هذا المعنى: {إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون} الآية.

ومنها: أن الذي يقاتل في سبيل الله معتمد على ركن وثيق، وهو الحق والتوكل على الله. فصاحب القوة والركن الوثيق يطلب منه من الصبر والثبات والنشاط ما لا يطلب ممن يقاتل عن الباطل، الذي لا حقيقة له ولا عاقبة حميدة. فلهذا قال تعالى: {فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا}. تفسير السعدي (ص: ١٨٧).

(إن كيد الشيطان كان ضعيفا):

قال الطبري: وإنما وصفهم جل ثناؤه بالضعف، لأنهم لا يقاتلون رجاء ثواب، ولا يتركون القتال خوف عقاب، وإنما يقاتلون حمية أو حسدا للمؤمنين على ما آتاهم الله من فضله. والمؤمنون يقاتل من قاتل منهم رجاء العظيم من ثواب الله، ويترك القتال إن تركه على خوف من وعيد الله في تركه، فهو يقاتل على بصيرة بما له عند الله إن قتل، وبما له من الغنيمة والظفر إن سلم. والكافر يقاتل على حذر من القتل، وإياس من معاد، فهو ذو ضعف وخوف. تفسير الطبري (٨/ ٥٤٧).

وقال زكريا الأنصاري: قوله تعالى: (إنّ كيد الشيطان كان ضعيفا) إن قلت: كيف وصف فيه كيد الشيطان بالضعف، وفي قوله (إن كيدكنّ عظيم) وصف كيد النساء بالعِظَم، مع أن كيد الشيطان أعظم؟

قلت: المراد أن كيد الشيطان ضعيف بالنسبة إلى نصرة الله أولياءه، وكيد النساء عظيم بالنسبة إلى الرجال. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن (١/ ١١٨).

بسم الله الرحمن الرحيم

العمل بالآيات من سورة النساء ٦٦-٧٦

١- احمد الله كثيرا على أنه لم يكلّفك ما لا تطيق من قتل نفسك أو قتل إخوانك أو الخروج من ديارك، بل كلّفك من العمل الشيء اليسير، ليتبيّن المستجيب لله من العاصي له، فاحمد الله بقلبك ولسانك، واستجب لأوامره، واجتنب نواهيه تسعد (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم).

٢- تأمل مواعظ القرآن وزواجره، واجعلها نصب عينيك، واعمل بموجبها، لتسلم من صفات المنافقين الذين لا يعملون بما يوعظون به، وتظفر بالخيرية في الدنيا والآخرة، ويقوى إيمانك، وتزداد ثباتا على دينك، وتغنم أجرا عظيما من لدن رب كريم، وتزداد هداية وعلما وعملا (ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا * وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما * ولهديناهم صراطا مستقيما).

٣- حرصك على طاعة الله عز وجل وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ما استطعت يقودك إلى مرافقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين في الجنة، وحسن أولئك رفيقا، وإن لم تعمل بمثل أعمالهم (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا).

٤- اعلم أنك مهما عملت من الصالحات، واجتنبت من المعاصي والمنكرات، فإنك لن تقدر بذلك أداء شكر جميع نعم الله عليك في الدنيا، فضلا عن أن تستوجب بها جنة عرضها السماوات والأرض، لكن الله كريم رحيم يتفضل على أهل الطاعة برحمته، فيكرمهم بجنته، وهو الذي وفّقهم قبلُ لطاعته وسلك بهم سبيل هدايته، وهو سبحانه أعلم بمن يستحق كرامته، فاسأل الله من فضله (ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما).

٥- يجب على المسلمين أن يأخذوا حذرهم من أعدائهم، ويُعدوا العدة لدفع شرهم وكيدهم ومكرهم، بالسيف والسنان، وبالحجة والبيان، وأن لا تلهيهم الدنيا عن ذلك، فإن العدوّ لهم بالمرصاد (يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا).

٦- المنافق لا يهتمّ إلا بمصالحه الدنيوية، فالفوز عنده تحصيل متاع الدنيا، والخسران عنده فقد زينة الحياة الدنيا، وأما الدين فلا يبالي بزيادته أو نقصانه في نفسه أو غيره، يتثاقل عن الطاعات، ولا يكتفي بذلك، بل يثبّط غيره عن فعلها، ولا يعبأ بحال المسلمين، ولا يفرح لفرحهم ونصرهم، ولا يحزن لحزنهم ومصابهم، فاحذر من مشابهته في شيء من ذلك (وإنّ منكم لمن ليبطّئنّ فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيدا * ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما).

٧- الجهاد في سبيل الله وفق ضوابطه الشرعية لا يقوم به ابتغاء وجه الله إلا المؤمنون الصادقون، وهو ذروة سنام الإسلام، ودليل على صدق الإيمان، وأمارة على الزهد في حطام الدنيا، به تبقى هيبة المسلمين، ويدافَع عن المستضعفين من المؤمنين، وأهله موعودون بالأجر العظيم (فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما * وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا).

٨- يجب على المؤمن الذي يقاتل أعداء الله أن يحرص على مجاهدة نفسه في تصحيح نيّته حتى يكون قتاله في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا فيفوز بالأجر العظيم، وأن يعلم أن أولياء الشيطان لا يقاتلون إلا لتحقيق مصالحهم الدنيوية فحسب، فلا بد أن يكون أقوى منهم وأجلد منهم وأصبر منهم؛ لأنه يرجو من الله ما لا يرجون (الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان).

٩- كيد الشيطان ضعيف، يمكنك ردّه بالاستعاذة بالله منه، وذكر الله تعالى، وقراءة القرآن، وطاعة الرحمن، فإياك والاستسلام لكيده، والضعف أمام مكره (إن كيد الشيطان كان ضعيفا).

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة النساء (٧٧-٨٧) من التفسير الميسّر

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧)

ألم تعلم -أيها الرسول- أمر أولئك الذين قيل لهم قبل الإذن بالجهاد: امنعوا أيديكم عن قتال أعدائكم من المشركين، وعليكم أداء ما فرضه الله عليكم من الصلاة، والزكاة، فلما فرض عليهم القتال إذا جماعة منهم قد تغير حالهم، فأصبحوا يخافون الناس ويرهبونهم، كخوفهم من الله أو أشد، ويعلنون عما اعتراهم من شدة الخوف، فيقولون: ربنا لِمَ أَوْجَبْتَ علينا القتال؟ هلا أمهلتنا إلى وقت قريب، رغبة منهم في متاع الحياة الدنيا، قل لهم -أيها الرسول-: متاع الدنيا قليل، والآخرة وما فيها أعظم وأبقى لمن اتقى، فعمل بما أُمر به، واجتنب ما نُهي عنه. لا يظلم ربك أحدًا شيئًا، ولو كان مقدار الخيط الذي يكون في شق نَواة التمرة.

أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨)

أينما تكونوا يلحقكم الموت في أي مكان كنتم فيه عند حلول آجالكم، ولو كنتم في حصون منيعة بعيدة عن ساحة المعارك والقتال. وإن يحصل لهم ما يسرُّهم من متاع هذه الحياة، ينسبوا حصوله إلى الله تعالى، وإن يقع عليهم ما يكرهونه ينسبوه إلى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم جهالة وتشاؤمًا، وما علموا أن ذلك كله من عند الله وحده، بقضائه وقدره، فما بالهم لا يقاربون فَهْمَ أيِّ حديث تحدثهم به؟

مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا (٧٩)

ما أصابك -أيها الإنسان- مِن خير ونعمة فهو من الله تعالى وحده، فضلا وإحسانًا، وما أصابك من جهد وشدة فبسبب عملك السيئ، وما اقترفته يداك من الخطايا والسيئات. وبعثناك -أيها الرسول- لعموم الناس رسولا تبلغهم رسالة ربك، وكفى بالله شهيدًا على صدق رسالتك.

مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (٨٠)

من يستجب للرسول صلى الله عليه وسلم، ويعمل بهديه، فقد استجاب لله تعالى وامتثل أمره، ومن أعرض عن طاعة الله ورسوله فما بعثناك -أيها الرسول- على هؤلاء المعترضين رقيبًا تحفظ أعمالهم وتحاسبهم عليها، فحسابهم علينا.

وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا (٨١)

ويُظْهِر هؤلاء المعرضون -وهم في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم- طاعتهم للرسول وما جاء به، فإذا ابتعدوا عنه وانصرفوا عن مجلسه، دبَّر جماعة منهم ليلا غير ما أعلنوه من الطاعة، وما علموا أن الله يحصي عليهم ما يدبرون، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء، فتول عنهم -أيها الرسول- ولا تبال بهم، فإنهم لن يضروك، وتوكل على الله، وحسبك به وليّـًا وناصرًا.

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢)

أفلا ينظر هؤلاء في القرآن، وما جاء به من الحق، نظر تأمل وتدبر، حيث جاء على نسق محكم يقطع بأنه من عند الله وحده؟ ولو كان مِن عند غيره لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا.

وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا (٨٣)

وإذا جاء هؤلاء الذين لم يستقر الإيمان في قلوبهم أمْرٌ يجب كتمانه متعلقًا بالأمن الذي يعود خيره على الإسلام والمسلمين، أو بالخوف الذي يلقي في قلوبهم عدم الاطمئنان، أفشوه وأذاعوا به في الناس، ولو ردَّ هؤلاء ما جاءهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أهل العلم والفقه لَعَلِمَ حقيقة معناه أهل الاستنباط منهم. ولولا أنْ تَفَضَّلَ الله عليكم ورحمكم لاتبعتم الشيطان ووساوسه إلا قليلا منكم.

فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا (٨٤)

فجاهد -أيها النبي- في سبيل الله لإعلاء كلمته، لا تلزم فعل غيرك ولا تؤاخذ به، وحُضَّ المؤمنين على القتال والجهاد، ورغِّبهم فيه، لعل الله يمنع بك وبهم بأس الكافرين وشدتهم. والله تعالى أشد قوة وأعظم عقوبة للكافرين.

مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا (٨٥)

من يَسْعَ لحصول غيره على الخير يكن له بشفاعته نصيب من الثواب، ومن يَسْعَ لإيصال الشر إلى غيره يكن له نصيب من الوزر والإثم. وكان الله على كل شيء شاهدًا وحفيظًا.

وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا (٨٦)

وإذا سلَّم عليكم المسلم فردُّوا عليه بأفضل مما سلَّم لفظًا وبشاشةً، أو ردوا عليه بمثل ما سلَّم، ولكل ثوابه وجزاؤه. إن الله تعالى كان على كل شيء مجازيًا.

اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا (٨٧)

الله وحده المتفرد بالألوهية لجميع الخلق، ليجمعنكم يوم القيامة، الذي لا شك فيه، للحساب والجزاء. ولا أحد أصدق من الله حديثًا فيما أخبر به.

بسم الله الرحمن الرحيم

معاني كلمات سورة النساء (٧٧-٨٧)

الكلمة	المعنى
كُفُّوا أيديَكم	امتنِعوا عن قتال أعداء الله
فَتِيلا	قدر الخيط الذي في شَقّ نواة التمر
بُروجٍ مُشيّدة	قصور وحصون منيعة مرتفعة
تُصِبهم حسنة	تنزل بهم نعمة
تُصِبهم سيئة	تنزل بهم مصيبة
فَمِن نفْسِك	فبسبب عملك السيّء
حفيظا	حافظا رقيبا
ويقولون طاعة	ويُظهرون الطاعة لك
بَرَزُوا	خرجوا وابتعدوا
بَيَّتَ طائفة منهم	دبّر جماعة منهم ليلا أو في الخفاء
غير الذي تقول	غير ما أظهروه من الطاعة
من الأمن أو الخوف	من مسائل القتال التي فيها أمن المسلمين أو خوفهم
أذاعُوا به	أفشَوْه وأشاعوه بين الناس
أولي الأمر منهم	أهل العلم والولاية منهم
يستنبطونه	يستخرجون علمه وتدبيره
بأسَ الذين كفروا	بطشَهم وشدتَهم
وأشدُّ تَنكِيلا	وأعظم عقوبة
كِفلٌ منها	نصيب من إثمها ووِزرها
مُقِيتا	حفيظا وشهيدا

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقف والابتداء في سورة النساء ٧٧-٨٧

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذه الفقرة المتعلقة بالوقف والابتداء في الآيات من سورة النساء من الآية السابعة والسبعين وحتى الآية السابعة والثمانين.

أبدأ بالآية الأولى وهي قول الله تعالى: (ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن بعدها قوله تعالى: (فلما كتب عليهم القتال) وهذا شرط ينتظر جوابا، لكن من ناحية معنوية قوله تعالى: (ألم تر إلى الذين قيل لهم) تعجب واقع على قوله: (إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية)، فصار تقدير الجملة: ألم تر إلى من قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم لما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية، فهي مرتبطة بما بعدها معنى، وإن انفصلت لفظا بالجملة الشرطية، فالأقرب عدم الوقف مع احتماله، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه: أن جملة التعجب وما ارتبط بها من الشرط قد انتهت هنا، ثم جاءت جملة معطوفة مستقلة في قوله: (وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال)، تضمنت قولهم بعد ذكر فعلهم في الجملة السابقة، وهذا القول هو طلب جديد لتأجيل فرض القتال عليهم، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (لم كتبت علينا القتال)؟

جوّز الوقف هنا السجاوندي والأشموني، ولم ينصّ عليه بقية علماء الوقف والابتداء، وتوجيهه عندهم أن (لولا) في قوله: (لولا أخرتنا إلى أجل قريب) بمعنى هلَّا، فهو استفهام آخر بعد الاستفهام الأول في قوله: (لِمَ كتبت) مع اتحاد المقول، فهم قالوا: (ربنا لم كتبت علينا القتال)، وقالوا أيضا (لولا أخّرتنا إلى أجل قريب)، وهما جملتان تضمنتا استفهامًا لأمرين: الأمر الأول: (لِمَ كتبت علينا القتال) فكأنهم قالوا: لو تركتنا بدون أمر بالقتال. والأمر الثاني: (لولا أخرتنا إلى أجل قريب) طلب تأجيل فرض القتال عليهم إلى

أجل قريب. والأمر في هذا محتمل، والوصل أولى لأنه مقول لهم متضمنٌ أمرا معنويا واحدا، وهو كراهية فرض القتال عليهم، فالأولى عدم الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (إلى أجل قريب)؟

الجواب: نعم، نص عليه بعض علماء الوقف والابتداء، ووجهه: أن قولهم واعتراضهم قد انتهى هنا، ثم جاء الرد عليهم في قوله: (قل متاع الدنيا قليل)، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (قل متاع الدنيا قليل)؟

الجواب الذي جاء على قولهم تضمن ثلاث جمل: الجملة الأولى: (متاع الدنيا قليل)، والجملة الثانية: (والآخرة خير لمن اتقى)، والجملة الثالثة: (ولا تظلمون فتيلا).

فمن العلماء من صحّح الفصل بين هذه الجمل الثلاث؛ لأن كل جملة وإن كانت معطوفة على سابقتها إلا أنها مستقلة بخبر خاص، فقال بداية: متاع الدنيا قليل، ثم قال: الآخرة خير لمن اتقى، ثم قال: لا تظلمون فتيلا، يعني: من جزائكم في الآخرة.

ومنهم من رأى أن هذه الجمل الثلاث تضمنت أمرا واحدا، خلاصته التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة، وأن ما طلبوه من تأجيل القتال إنما هو ركون إلى الدنيا ما كان ينبغي منهم، فهؤلاء نظروا إلى أن خلاصة هذه الجمل واحد، فلم يصححوا الفصل بينها، والأمر في هذا محتمل، وإن كان كثير من علماء الوقف والابتداء صحح الوقف على قوله: (قل متاع الدنيا قليل)، بينما لم يصحح الأكثر الوقف على قوله: (والآخرة خير لمن اتقى)؛ للارتباط الواضح بينها وبين قوله: (ولا تظلمون فتيلا) يعني: في الآخرة، والأمر في هذا كله محتمل، والله أعلم.

الآية التي تليها: (أينما تكونوا يدرككم الموت) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، نص على ذلك الأشموني؛ لأن ما بعده وهو قوله: (ولو كنتم في بروج مشيدة) مبالغة فيما قبله، يعني سيدرككم الموت أين ما كنتم ولو كنتم في حصون منيعة، فلا يصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (ولو كنتم في بروج مشيدة)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه: أن الخبر عن إدراك الموت لهم أينما كانوا قد انتهى هنا، ثم بدأ بوصف حالهم مع النعم والمصائب بجملة شرطية مستأنفة في قوله: (وإن تصبهم حسنة) إلى آخر الجملة، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (يقولوا هذه من عند الله)؟

صحّح الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء للفصل بين النقيضين، فالله سبحانه وتعالى ذكر حالهم مع النعم في جملة شرطية، ثم ذكر حالهم مع المصائب في جملة شرطية أخرى في قوله: (وإن تصبهم سيئة)، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (يقولوا هذه من عندك)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعة من علماء الوقف والابتداء، ووجهه: أن حالهم مع النعم والمصائب قد انتهى هنا، ثم جاء الجواب عليهم في قوله: (قل كل من عند الله)، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (قل كل من عند الله)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه: أن الجواب عليهم قد انتهى هنا، ثم جاءت جملة استفهامية مستأنفة في قوله: (فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا)، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

الآية التي تليها: (ما أصابك من حسنة فمن الله) هل يصح الوقف هنا؟

نصّ على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء؛ للفصل بين النقيضين، فالله سبحانه وتعالى ذكر الأمر الأول في قوله: (ما أصابك من حسنة فمن الله)، ثم ذكر ما يصيبهم من المصائب في جملة معطوفة في قوله: (وما أصابك من سيئة فمن نفسك)، فصح الفصل للفصل بين النقيضين.

وهل يصح الوقف على قوله: (فمن نفسك)؟

الجواب: نعم، نصّ عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه: أنه قد انتهى ذكر الحالين المتناقضين، ثم جاءت جملة مستأنفة لبيان عموم رسالة النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: (وأرسلناك للناس رسولا)، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (وأرسلناك للناس رسولا)؟

الجواب: نعم، نصّ عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه: أنه انتهى من ذكر عموم رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، ثم جاءت جملة فعلية مستأنفة فيها التفات من المتكلم إلى الغائب قال: (وأرسلناك) على صيغة المتحدث، ثم قال: (وكفى بالله) بصيغة الغائب، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

الآية التي تليها: (من يطع الرسول فقد أطاع الله) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نصّ عليه جماعة من علماء الوقف والابتداء، ووجهه: أن جملة الشرط الأولى قد انتهت، ثم جاءت جملة شرط أخرى في بيان حال النقيض من طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله: (ومن تولّى فما أرسلناك عليهم حفيظا)، فصحّ الفصل بين النقيضين، والله أعلم.

الآية التي تليها: (ويقولون طاعة) هل يصح الوقف هنا؟

نصّ على الوقف هنا الهبطي، وجوّزه الأشموني على وجه، وهو استئناف ما بعده، يعني (فإذا برزوا من عندك) جملة شرطية مستأنفة، ويرتفع قوله: (طاعة) على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي: أنهم يقولون: أمْرُنا طاعة، لكن لو تأملناه من ناحية معنوية فإن مقصود الكلام بيان نفاق هؤلاء القوم، وهذا المقصود لا يتم إلا على قوله: (فإذا برزوا من عندك بيّت طائفة منهم غير الذي تقول)، فمن نظر إلى الناحية المعنوية – وهو الذي سار عليه عامة علماء الوقف والابتداء – لم يصحح الوقف هنا، ومن نظر إلى الانفصال اللفظي صحح الوقف هنا، والأمر في هذا محتمل، والأولى عدم الوقف، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (غير الذي تقول)؟

الجواب: نعم، نصّ عليه جماعة من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة الشرط قد انتهت هنا، ثم جاء تهديد لهم في جملة مستأنفة في قوله: (والله يكتب ما يبيّتون)، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (والله يكتب ما يبيّتون)؟

الجواب: نعم، نصّ عليه جماعة من علماء الوقف والابتداء، ووجهه: أنه قد جاء بعده أمر بكيفية التعامل مع هؤلاء القوم في قوله: (فأعرض عنهم وتوكل على الله) بعد الخبر في قوله: (والله يكتب ما يبيّتون)، فاختلفت الجملتان، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (وتوكّل على الله)؟

الجواب: نعم، نصّ عليه جماعة من علماء الوقف والابتداء، ووجهه: أن ما أُمِر به في كيفية التعامل معهم قد انتهى هنا، ثم جاءت جملة فعلية مستأنفة في بيان كفاية الله لمن توكل عليه في قوله: (وكفى بالله وكيلا)، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (أفلا يتدبرون القرآن) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نصّ عليه جماعة من علماء الوقف والابتداء، ووجهه: أن الاستفهام قد انتهى هنا، ثم جاءت جملة شرطية مستأنفة، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

الآية التي تليها: (وإذا جاءهم أمر من الامن أو الخوف أذاعوا به) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نصّ عليه جماعة من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الشرط قد انتهى هنا، ثم جاءت جملة شرطية أخرى في قوله: (ولو رَدّوه) في بيان ما ينبغي فعله، بعد أن بيّن خطأهم في فعلهم وتصرفهم، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (لعلمه الذين يستنبطونه منهم)؟

الجواب: نعم، نصّ عليه جماعة من علماء الوقف والابتداء، ووجهه: أن جملة الشرط الثانية قد انتهت هنا، وما تضمنته مما ينبغي فعله عند مجيء الأمر من الأمن أو الخوف، ثم جاءت جملة شرط جديدة مستأنفة في قوله: (ولولا فضل الله عليكم ورحمته)، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

الآية التي تليها: (فقاتل في سبيل الله) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، ووجهه: أن قوله: (لا تكلف إلا نفسك) جملة مستأنفة معترضة بين أمرين: الأمر الأول: في قوله: (فقاتل في سبيل الله)، والثاني في قوله: (وحرّض المؤمنين)، ومن جعل هذه الجملة جملة حالية تقديرها: فقتل في سبيل الله غير مكلف إلا نفسك لم يصحح الوقف هنا، والأمر في هذا محتمل، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (لا تكلف إلا نفسك)؟

نص على الوقف هنا الهبطي وحده دون غيره من علماء الوقف والابتداء، ووضعت علامة الوقف الجائز هنا في مصحف المدينة، وإذا تأملنا فإن جملة (لا تكلف إلا نفسك) سواء اعتبرناها جملة مستأنفة معترضة بين الامرين أو جملة حالية فإنها قد انتهت هنا، ثم جاء أمر آخر، وهذا الأمر الثاني معطوف على الأمر الأول، لكنه معطوف مستقل ومفصول بينه وبين الأمر الاول بجملة معترضة أو حالية، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (وحرّض المؤمنين)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه: أن الأمر قد انتهى هنا، ثم جاءت جملة مستأنفة استئنافا بيانيا في قوله: (عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا)، وإن كانت متصلة معنى، فإنه لما أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالقتال وبتحريض المؤمنين بين أن الله عسى أن يكف بأس الذين كفروا بقتالكم إياهم، لكنها مستقلة لفظا، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (أن يكف بأس الذين كفروا).

الجواب: نعم، نصّ عليه جماعة من علماء الوقف والابتداء، ووجهه: أن جملة (عسى) قد انتهت هنا، ثم جاءت جملة مستأنفة في بيان أن الله أشد بأسا من الذين كفروا، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نصّ عليه جماعة من علماء الوقف والابتداء، ووجهه: أنه ذكر نقيضين في جملتين شرطيتين معطوفتين، ويصح الفصل بين النقيضين، فذكر في الجملة الأولى من يشفع شفاعة حسنة، وفي الجملة الثانية من يشفع شفاعة سيئة، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (يكن له كفل منها)؟

الجواب: نعم، نصّ عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه: أن ذكر الحالين قد انتهى هنا، وانتهى معه الشرط، ثم جاءت جملة مستأنفة مبدوءة بكان في قوله: (وكان الله على كل شيء مقيتا)، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

الآية التي تليها: (وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نصّ عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه: أن جملة الشرط قد انتهت هنا، ثم جاءت جملة مستأنفة مبدوءة بإنّ في قوله: (إنّ الله كان على كل شيء حسيبا)، فصح الفصل بينهما والله أعلم.

الآية الأخيرة: (الله لا إله إلا هو) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، ووجهه عندهم: أن اللام في قوله (ليجمعنكم) لام القسم، والقسم له الصدارة في جملته، فأقسم الله سبحانه وتعالى أنه سيجمع الناس جميعا ليوم القيامة الذي لاريب فيه، بعد أن أخبر أنه لا إله إلا هو، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه)؟

الجواب: نعم، نصّ عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه: أنه قد جاء بعده جملة استفهامية مستأنفة بعد الخبر المتضمن أن الله سيجمع الناس جميعا إلى يوم القيامة، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

هذا آخر ما في هذا المقطع، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يعلّمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علّمنا، وأن يزيدنا علمًا وعملاً وهدًى وتقًى، والله تعالى أعلم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله الرحمن الرحيم

فوائد ولطائف سورة النساء ٧٧-٨٧

(ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كُتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لِمَ كتبت علينا القتال لولا أخّرتنا إلى أجل قريب):

سبب النزول: عن ابن عباس: أن عبد الرحمن بن عوف، وأصحابا له أتوا النبي صلى الله عليه وسلم بمكة، فقالوا: يا رسول الله، إنا كنا في عز ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة؟ فقال: «إني أمرت بالعفو، فلا تقاتلوا» فلما حولنا الله إلى المدينة، أمرنا بالقتال، فكفوا، فأنزل الله عز وجل: {ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة} الآية. سنن النسائي (٦/ ٢)، تفسير الطبري (٨/ ٥٤٩).

وقال ابن كثير: كانوا يتحرقون ويودون لو أمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم، ولم يكن الحال إذ ذاك مناسبا لأسباب كثيرة، منها: قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدد عدوهم، ومنها: كونهم كانوا في بلدهم، وهو بلد حرام، وأشرف بقاع الأرض، فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداء لائقا. فلهذا لم يؤمر بالجهاد إلا بالمدينة، لما صارت لهم دار ومنعة وأنصار. تفسير ابن كثير (٢/ ٣٥٩).

وقال الألوسي: لعل أمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة تنبيها على أن الجهاد مع النفس مقدم، وما لم يتمكن المسلم في الانقياد لأمر الله تعالى بالجود بالمال لا يكاد يتأتى منه الجود بالنفس، والجود بالنفس أقصى غاية الجود. روح المعاني (٣/ ٨٣).

وقال السعدي: {لولا أخرتنا إلى أجل قريب} أي: هلا أخرت فرض القتال مدة متأخرة عن الوقت الحاضر، وهذه الحال كثيرا ما تعرض لمن هو غير رزين، واستعجل في الأمور قبل وقتها، فالغالب عليه أنه لا يصبر عليها وقت حلولها، ولا ينوء بحملها، بل يكون قليل الصبر. تفسير السعدي (ص: ١٨٨).

(قل متاع الدنيا قليل والآخرة خيرٌ لمن اتّقى ولا تظلمون فتيلا):

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه في اليمّ، فلينظر بم ترجع؟» صحيح مسلم (٤/ ٢١٩٣).

قال ابن القيم: {قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا} جمعت بين التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة والحض على فعل الخير والزجر عن فعل الشر إذ قوله: {ولا تظلمون فتيلا} يتضمن حثهم على كسب الخير، وزجرهم عن كسب الشر. بدائع الفوائد (٤/ ٨).

وقال ابن كثير: قرأ الحسن: {قل متاع الدنيا قليل} قال: رحم الله عبدا صحبها على حسب ذلك، ما الدنيا كلها أولها وآخرها إلا كرجل نام نومة، فرأى في منامه بعض ما يحب، ثم انتبه.

وقال ابن معين: كان أبو مُسهر ينشد:

ولا خير في الدنيا لمن لم يكن له ... من الله في دار المقام نصيب

فإن تُعجِب الدنيا رجالا فإنها ... متاع قليل والزوال قريب. تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦٠).

وقال البقاعي: {قل متاع الدنيا قليل} أي: ولو فرض أنه مد في آجالكم إلى أن تملوا الحياة، فإن كل منقطع قليل، مع أن نعيمها غير محقق الحصول، وإن حصل كان منغصا بالكدورات، {والآخرة خير لمن اتقى} أي: لأنها لا يفنى نعيمها، مع أنه محقق، ولا كدر فيه، وهي شر من الدنيا لمن لم يتّق، لأن عذابها طويل لا يزول. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٣٣٣).

وقال السعدي: {قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى} أي: التمتع بلذات الدنيا وراحتها قليل، فتحمل الأثقال في طاعة الله في المدة القصيرة مما يسهل على النفوس ويخف عليها؛ لأنها إذا علمت أن المشقة التي تنالها لا يطول لبثها هان عليها ذلك، فكيف إذا وازنت بين الدنيا والآخرة، وأن الآخرة خير منها، في ذاتها ولذاتها وزمانها:

فذاتها كما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الثابت عنه (أن موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها).

ولذاتها صافية عن المكدرات، بل كل ما خطر بالبال أو دار في الفكر من تصور لذة، فلذة الجنة فوق ذلك، كما قال تعالى: {فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين}، وقال الله على لسان نبيه: (أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر). وأما لذات الدنيا فإنها مشوبة بأنواع التنغيص الذي لو قوبل بين لذاتها وما يقترن بها من أنواع الآلام والهموم والغموم، لم يكن لذلك نسبة بوجه من الوجوه.

وأما زمانها، فإن الدنيا منقضية، وعمر الإنسان بالنسبة إلى الدنيا شيء يسير، وأما الآخرة فإنها دائمة النعيم، وأهلها خالدون فيها، فإذا فكّر العاقل في هاتين الدارين وتصور حقيقتهما حق التصور، عرف ما هو أحق بالإيثار والسعي له والاجتهاد لطلبه. تفسير السعدي (ص: ١٨٨).

(أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة):

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية، عن مجاهد قال: كان قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم امرأة، وكان لها أجير، فولدت المرأة، فقالت لأجيرها: انطلق فاقتبس لي نارا، فانطلق الأجير، فإذا هو برجلين قائمين على الباب، فقال أحدهما لصاحبه: وما ولدت؟ فقال: ولدت جارية، فقال أحدهما لصاحبه: لا تموت هذه الجارية حتى تزني بمائة، ويتزوجها الأجير، ويكون موتها بعنكبوت. فقال الأجير: أما والله لأكذبن حديثهما، فرمى بما في يده، وأخذ السكين فشحذها، وقال: ألا تراني أتزوجها بعدما تزني بمائة، ففرى كبدها، ورمى بالسكين، وظن أنه قد قتلها، فصاحت الصبية، فقامت أمها فرأت بطنها قد شق، فخاطته وداوته حتى برئت.

وركب الأجير رأسه، فلبث ما شاء الله أن يلبث، وأصاب الأجير مالا، فأراد أن يطلع أرضه فينظر من مات منهم ومن بقي، فأقبل حتى نزل على عجوز، وقال للعجوز: ابغي لي أحسن امرأة في البلد أصيب منها وأعطيها، فانطلقت العجوز إلى تلك المرأة، وهي أحسن جارية في البلد، فدعتها إلى الرجل وقالت: تصيبين منه معروفا، فأبت عليها، وقالت: إنه قد كان ذاك مني فيما مضى، فأما اليوم فقد بدا لي أن لا أفعل. فرجعت إلى الرجل فأخبرته، فقال: فاخطبيها لي، فخطبها وتزوجها فأعجب بها، فلما أنس إليها حدثها حديثه

فقالت: والله لئن كنت صادقا لقد حدثتني أمي حديثك، وإني لتلك الجارية، قال: أنت؟ قالت: أنا، قال: والله لئن كنت أنت إن بك لعلامة لا تخفى. فكشف بطنها، فإذا هو بأثر السكين، فقال: صدقني والله الرجلان، والله لقد زنيت بمائة، وإني أنا الأجير، وقد تزوجتك، ولتكونن الثالثة، وليكونن موتك بعنكبوت. فقالت: والله لقد كان ذاك مني، ولكن لا أدري مائة أو أقل أو أكثر. فقال: والله ما نقص واحدا ولا زاد واحدا، ثم انطلق إلى ناحية القرية فبنى فيه مخافة العنكبوت، فلبث ما شاء الله أن يلبث، حتى إذا جاء الأجل ذهب ينظر، فإذا هو بعنكبوت في سقف البيت، وهي إلى جانبه، فقال: والله إني لأرى العنكبوت في سقف البيت. فقالت: هذه التي تزعمون أنها تقتلني، والله لأقتلنها قبل أن تقتلني. فقام الرجل فزاولها وألقاها، فقالت: والله لا يقتلها أحد غيري، فوضعت أصبعها عليها فشدختها، فطار السم حتى وقع بين الظفر واللحم، فاسودّت رجلها فماتت، وأنزل الله على نبيه حين بعث {أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة} . الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٢/ ٥٩٥-٥٩٦).

وقال ابن كثير: أنتم صائرون إلى الموت لا محالة، ولا ينجو منه أحد منكم، كما قال تعالى: {كل من عليها فان. ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام}، وقال تعالى: {كل نفس ذائقة الموت}، وقال تعالى: {وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد} ، والمقصود: أن كل أحد صائر إلى الموت لا محالة، ولا ينجيه من ذلك شيء، وسواء عليه جاهد أو لم يجاهد، فإن له أجلا محتوما، وأمدا مقسوما، كما قال خالد بن الوليد حين جاءه الموت على فراشه: لقد شهدت كذا وكذا موقفا، وما من عضو من أعضائي إلا وفيه جرح من طعنة أو رمية، وها أنا أموت على فراشي، فلا نامت أعين الجبناء... ولا يغني حذر وتحصن من الموت، كما قال زهير بن أبي سلمى:

ومن خاف أسباب المنية يلقها ... ولو رام أسباب السماء بسلم...

ولما دُخل على عثمان جعل يقول: اللهم اجمع أمة محمد، ثم تمثل بقول الشاعر:

أرى الموت لا يبقي عزيزا ولم يدع ... لعاد ملاذا في البلاد ومربعا

يبيّت أهل الحصن والحصن مغلق ... ويأتي الجبال في شماريخها معا. تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦٠-٣٦١).

(وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله):

قال ابن تيمية: المراد هنا بالحسنات والسيئات: النعم والمصائب؛ ليس المراد الطاعات والمعاصي، وهذا كقوله تعالى: {إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا}، وكقوله: {إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون}... وهذا بخلاف قوله: {من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها} وأمثال ذلك، فإن المراد بها الطاعة والمعصية، وفي كل موضع ما يبين المراد باللفظ، فليس في القرآن العزيز بحمد الله تعالى إشكال؛ بل هو مبين. وذلك أنه إذا قال: {ما أصابك} وما {مسّك} ونحو ذلك كان من فعل غيرك بك، كما قال: {ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك}، وكما قال تعالى {إن تصبك حسنة تسؤهم}، وقال تعالى: {وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم}. وإذا قال: {من جاء بالحسنة} كانت من فعله؛ لأنه هو الجائي بها، فهذا يكون فيما فعله العبد لا فيما فعل به. وسياق الآية يبين ذلك، فإنه ذكر هذا في سياق الحض على الجهاد وذم المتخلفين عنه. مجموع الفتاوى (٨/ ١١١).

وقال السعدي: {يقولوا هذه من عندك} أي: بسبب ما جئتنا به يا محمد، تطيروا برسول الله صلى الله عليه وسلم كما تطير أمثالهم برسل الله، كما أخبر الله عن قوم فرعون أنهم قالوا لموسى: {فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه}. وقال قوم صالح: {قالوا اطيرنا بك وبمن معك}. وقال قوم ياسين لرسلهم: {إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم} الآية. فلما تشابهت قلوبهم بالكفر تشابهت أقوالهم وأعمالهم. وهكذا كل من نسب حصول الشر أو زوال الخير لما جاءت به الرسل أو لبعضه فهو داخل في هذا الذم الوخيم. تفسير السعدي (ص: ١٨٨).

(فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا):

قال البغوي: (لا يكادون يفقهون حديثا) أي: لا يفقهون قولا، وقيل: الحديث هاهنا هو القرآن، أي: لا يفقهون معاني القرآن. تفسير البغوي (١/ ٦٦٥).

وقال السعدي: وفي ضمن ذلك مدح من يفهم عن الله وعن رسوله صلى الله عليه وسلم، والحث على ذلك، وعلى الأسباب المعينة على ذلك، من الإقبال على كلامهما وتدبره، وسلوك الطرق الموصلة إليه. تفسير السعدي (ص: ١٨٩).

(ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك):

قال البغوي: فإن قيل: كيف وجه الجمع بين قوله: (قل كل من عند الله) وبين قوله (فمن نفسك)؟ قيل: قوله: (قل كل من عند الله) أي: الخصب والجدب والنصر والهزيمة كلها من عند الله، وقوله: (فمن نفسك) أي: وما أصابك من سيئة من الله فبذنب نفسك عقوبة لك، كما قال الله تعالى: (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) يدل عليها ما روى مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه قرأ «وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأنا كتبتها عليك». تفسير البغوي (١/ ٦٦٥-٦٦٦).

وقال السعدي: {وما أصابك من سيئة} في الدين والدنيا {فمن نفسك} أي: بذنوبك وكسبك، وما يعفو الله عنه أكثر. فالله تعالى قد فتح لعباده أبواب إحسانه، وأمرهم بالدخول لبره وفضله، وأخبرهم أن المعاصي مانعة من فضله، فإذا فعلها العبد فلا يلومن إلا نفسه، فإنه المانع لنفسه عن وصول فضل الله وبره. تفسير السعدي (ص: ١٨٩).

(وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا):

قال السعدي: (وكفى بالله شهيدا) على أنك رسول الله حقا بما أيدك بنصره، والمعجزات الباهرة، والبراهين الساطعة، فهي أكبر شهادة على الإطلاق، كما قال تعالى: {قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم} فإذا علم أن الله تعالى كامل العلم، تام القدرة، عظيم الحكمة، وقد أيد الله رسوله بما أيده، ونصره نصرا عظيما، تيقن بذلك أنه رسول الله. تفسير السعدي (ص: ١٨٩).

(من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولّى فما أرسلناك عليهم حفيظا):

عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن يعصني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني». صحيح البخاري (٩/ ٦٢)، صحيح مسلم (٣/ ١٤٦٦).

قال ابن تيمية: علينا أن نطيع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أمرنا به، فإن الله قد ذكر طاعته في أكثر من ثلاثين موضعا من كتابه، فقال تعالى: {من يطع الرسول فقد أطاع الله}، وقال: {وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله}. وقد أوجب السعادة لمن أطاعه بقوله: {فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا}، وعلق السعادة والشقاوة بطاعته ومعصيته في قوله: {ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم. ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين}... وجميع الرسل دعوا إلى عبادة الله وتقواه وخشيته، وإلى طاعتهم، كما قال نوح عليه السلام {أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون}، وقال تعالى: {ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون}، وقال كل من نوح والنبيين: {فاتقوا الله وأطيعون}. وطاعة الرسول فيما أمرنا به هو الأصل الذي على كل مسلم أن يعتمده، وهو سبب السعادة، كما أن ترك ذلك سبب الشقاوة. مجموع الفتاوى (٢٢/ ٣٢٠-٣٢١).

وقال ابن تيمية: بين الله في كتابه حقوق الرسول من الطاعة له ومحبته وتعزيره وتوقيره ونصره وتحكيمه والرضى بحكمه والتسليم له واتباعه والصلاة والتسليم عليه وتقديمه على النفس والأهل والمال ورد ما يُتنازع فيه إليه، وغير ذلك من الحقوق. وأخبر أن طاعتَه طاعتُه فقال: {من يطع الرسول فقد أطاع الله}، ومبايعتَه مبايعتُه فقال: {إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله}، وقرن بين اسمه واسمه في المحبة فقال: {أحب إليكم من الله ورسوله}. وفي الأذى فقال: {إن الذين يؤذون الله ورسوله}، وفي الطاعة والمعصية فقال: {ومن يطع الله ورسوله}. {ومن يعص الله ورسوله}، وفي الرضا فقال: {والله ورسوله أحق أن يرضوه}، فهذا ونحوه هو الذي يستحقه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبي هو وأمي. مجموع الفتاوى (١/ ٦٨).

وقال ابن تيمية: هذه النصوص توجب اتباع الرسول، وإن لم نجد ما قاله منصوصا بعينه في الكتاب، كما أن تلك الآيات توجب اتباع الكتاب وإن لم نجد ما في الكتاب منصوصا بعينه في حديث عن الرسول غير الكتاب، فعلينا أن نتبع الكتاب، وعلينا أن نتبع الرسول، واتباع أحدهما هو اتباع الآخر؛ فإن الرسول بلغ الكتاب، والكتاب أمر بطاعة الرسول، ولا يختلف الكتاب والرسول البتة، كما لا يخالف الكتاب بعضه بعضا، قال تعالى: {ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا} .

والأحاديث كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في وجوب اتباع الكتاب، وفي وجوب اتباع سنته صلى الله عليه وسلم، كقوله: {لا أُلفِيَنّ أحدَكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول: بيننا وبينكم هذا القرآن، فما وجدنا فيه من حلال حللناه، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه، ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه...}... وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تفسر القرآن، كما فسرت أعداد الصلوات، وقدر القراءة فيها، والجهر والمخافتة، وكما فسرت فرائض الزكاة ونصبها، وكما فسرت المناسك وقدر الطواف بالبيت والسعي ورمي الجمار، ونحو ذلك. وهذه السنة إذا ثبتت فإن المسلمين كلهم متفقون على وجوب اتباعها. مجموع الفتاوى (١٩/ ٨٤-٨٥).

وقال ابن القيم: والسنة مع القرآن على ثلاثة أوجه:

أحدها: أن تكون موافقة له من كل وجه؛ فيكون توارد القرآن والسنة على الحكم الواحد من باب توارد الأدلة وتظافرها.

الثاني: أن تكون بيانا لما أريد بالقرآن وتفسيرا له.

الثالث: أن تكون موجبة لحكم سكت القرآن عن إيجابه أو محرّمة لما سكت عن تحريمه.

ولا تخرج عن هذه الأقسام، فلا تعارض القرآن بوجه ما، فما كان منها زائدا على القرآن فهو تشريع مبتدأ من النبي صلى الله عليه وسلم، تجب طاعته فيه، ولا تحل معصيته، وليس هذا تقديما لها على كتاب الله، بل امتثال لما أمر الله به من طاعة رسوله، ولو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يطاع في هذا القسم لم يكن لطاعته معنى، وسقطت طاعته المختصة به، وإنه إذا لم تجب طاعته إلا فيما وافق القرآن لا فيما زاد عليه لم

يكن له طاعة خاصة تختص به، وقد قال الله تعالى: {من يطع الرسول فقد أطاع الله}. إعلام الموقعين عن رب العالمين (٢/ ٢٢٠).

وقال السعدي: كل من أطاع رسول الله في أوامره ونواهيه فقد أطاع الله تعالى، لكونه لا يأمر ولا ينهى إلا بأمر الله وشرعه ووحيه وتنزيله، وفي هذا عصمة الرسول صلى الله عليه وسلم، لأن الله أمر بطاعته مطلقا، فلولا أنه معصوم في كل ما يبلغ عن الله لم يأمر بطاعته مطلقا، ويمدح على ذلك. وهذا من الحقوق المشتركة، فإن الحقوق ثلاثة:

حق لله تعالى لا يكون لأحد من الخلق، وهو عبادة الله والرغبة إليه، وتوابع ذلك.

وقسم مختص بالرسول، وهو التعزير والتوقير والنصرة.

وقسم مشترك، وهو الإيمان بالله ورسوله ومحبتهما وطاعتهما. تفسير السعدي (ص: ١٨٩).

(أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا):

قال ابن زيد: إن القرآن لا يكذب بعضه بعضا، ولا ينقض بعضه بعضا، ما جهل الناس من أمر فإنما هو من تقصير عقولهم وجهالتهم! وقرأ: (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا). قال: فحق على المؤمن أن يقول: (كل من عند الله)، ويؤمن بالمتشابه، ولا يضرب بعضه ببعض، وإذا جهل أمرا ولم يعرف أن يقول: الذي قال الله حق، ويعرف أن الله تعالى لم يقل قولا وينقضه، ينبغي أن يؤمن بحقيقة ما جاء من الله. تفسير الطبري (٨/ ٥٦٧).

وقال ابن تيمية: من المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه، فالقرآن أولى بذلك، وأيضا فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتابا في فن من العلم كالطب والحساب ولا يستشرحوه، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم؟ مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٣٢).

وقال ابن تيمية: أمر الله بتدبر كتابه، قال تعالى: {كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته}، ولم يقل: بعض آياته، وقال: {أفلا يتدبرون القرآن}، وقال: {أفلم يدبروا القول}، وأمثال ذلك في النصوص التي تبين أن الله

يحب أن يتدبر الناس القرآن كله، وأنه جعله نورا وهدى لعباده، ومحال أن يكون ذلك مما لا يفهم معناه، وقد قال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن - عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود - أنهم قالوا: (كنا إذا تعلمنا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات، لم نجاوزها حتى نتعلم ما فيها من العلم والعمل)، قالوا: (فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا). مجموع الفتاوى (٤/ ٧٠).

وقال ابن القيم: وأما التأمل في القرآن فهو تحديق ناظر القلب إلى معانيه، وجمع الفكر على تدبره وتعقله، وهو المقصود بإنزاله، لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر، قال الله تعالى {كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب}، وقال تعالى: {أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها}، وقال تعالى: {أفلم يدبروا القول}، وقال تعالى: {إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون}، وقال الحسن: نزل القرآن ليتدبر ويعمل به. فاتخذوا تلاوته عملا.

فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن، وإطالة التأمل فيه، وجمع الفكر على معاني آياته، فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرهما، وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما، ومآل أهلهما، وتَتُلّ في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه، وتشيد بنيانه، وتوطّد أركانه، وتريه صورة الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه، وتحضره بين الأمم، وتريه أيام الله فيهم، وتبصّره مواقع العبر، وتشهده عدل الله وفضله، وتعرّفه ذاته وأسماءه وصفاته وأفعاله، وما يحبه وما يبغضه، وصراطه الموصل إليه، وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها، وتعرّفه النفس وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومصححاتها، وتعرّفه طريق أهل الجنة وأهل النار، وأعمالهم وأحوالهم وسيماهم، ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه، وافتراقهم فيما يفترقون فيه.

وبالجملة تعرّفه الرب المدعوّ إليه، وطريق الوصول إليه، وما له من الكرامة إذا قدم عليه.

وتعرّفه في مقابل ذلك ثلاثة أخرى: ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصلة إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه.

فهذه ستة أمور ضروري للعبد معرفتها ومشاهدتها ومطالعتها، فتشهده الآخرة حتى كأنه فيها، وتغيّبه عن الدنيا حتى كأنه ليس فيها، وتميّز له بين الحق والباطل في كل ما اختلف فيه العالم، فتريه الحق حقا، والباطل

باطلا، وتعطيه فرقانا ونورا يفرّق به بين الهدى والضلال، والغي والرشاد، وتعطيه قوة في قلبه، وحياة وسعة وانشراحا وبهجة وسرورا، فيصير في شأن والناس في شأن آخر...

فلا تزال معانيه تنهض العبد إلى ربه بالوعد الجميل، وتحذّره وتخوّفه بوعيده من العذاب الوبيل، وتحثه على التضمر والتخفف للقاء اليوم الثقيل، وتهديه في ظُلَم الآراء والمذاهب إلى سواء السبيل، وتصدّه عن اقتحام طرق البدع والأضاليل، وتبعثه على الازدياد من النعم بشكر ربه الجليل، وتبصّره بحدود الحلال والحرام، وتوقفه عليها لئلا يتعداها فيقع في العناء الطويل، وتثبّت قلبه عن الزيغ والميل عن الحق والتحويل، وتسهّل عليه الأمور الصعاب والعقبات الشاقة غاية التسهيل، وتناديه كلما فترت عزماته وونى في سيره: تَقَدّمَ الركبُ وفاتك الدليل، فاللحاق اللحاق، والرحيل الرحيل، وتحدو به وتسير أمامه سير الدليل، وكلما خرج عليه كمين من كمائن العدو، أو قاطع من قطاع الطريق نادته: الحذر الحذر! فاعتصم بالله، واستعن به، وقل: حسبي الله ونعم الوكيل.

وفي تأمل القرآن وتدبره، وتفهمه، أضعاف أضعاف ما ذكرنا من الحكم والفوائد.

وبالجملة فهو أعظم الكنوز، طلسمه الغوص بالفكر إلى قرار معانيه. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ٤٤٩-٤٥١).

وقال ابن كثير: {ولو كان من عند غير الله} أي: لو كان مفتعلا مختلقا، كما يقوله من يقوله من جهلة المشركين والمنافقين في بواطنهم {لوجدوا فيه اختلافا كثيرا} أي: اضطرابا وتضادا كثيرا. أي: وهذا سالم من الاختلاف، فهو من عند الله. كما قال تعالى مخبرا عن الراسخين في العلم حيث قالوا: {آمنا به كل من عند ربنا} أي: محكمه ومتشابهه حق؛ فلهذا ردوا المتشابه إلى المحكم فاهتدوا، والذين في قلوبهم زيغ ردوا المحكم إلى المتشابه فغووا؛ ولهذا مدح تعالى الراسخين وذم الزائغين...

عن عبد الله بن عمرو قال: لقد جلست أنا وأخي مجلسا ما أحب أن لي به حمر النعم، أقبلت أنا وأخي وإذا مشيخة من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم على باب من أبوابه، فكرهنا أن نفرّق بينهم، فجلسنا حجرة، إذ ذكروا آية من القرآن، فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مغضبا حتى احمرّ وجهه، يرميهم بالتراب، ويقول: (مهلا يا قوم، بهذا أهلكت الأمم من قبلكم، باختلافهم

على أنبيائهم، وضربهم الكتب بعضها ببعض، إن القرآن لم ينزل يكذّب بعضه بعضا، بل يصدّق بعضه بعضا، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه). تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦٤-٣٦٥).

وقال ابن جُزي: (اختلافا كثيرا) أي: تناقضا كما في كلام البشر، أو تفاوتا في الفصاحة، لكن القرآن منزه عن ذلك، فدل على أنه كلام الله، وإن عرضت لأحد شبهة وظن اختلافا في شيء من القرآن، فالواجب أن يتهم نظره ويسأل أهل العلم ويطالع تآليفهم، حتى يعلم أن ذلك ليس باختلاف. التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٢٠١).

(وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به):

قال ابن كثير: عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع).

وفي الصحيحين عن المغيرة بن شعبة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن قيل وقال، أي: الذي يكثر من الحديث عما يقول الناس من غير تثبت، ولا تدبر، ولا تبين.

وفي سنن أبي داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (بئس مطية الرجل زعموا).

وفي الصحيح: (من حدّث بحديث وهو يُرى أنه كذب فهو أحد الكاذِبِين).

ويذكر هاهنا حديث عمر بن الخطاب المتفق عليه، حين بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلق نساءه، فجاءه من منزله حتى دخل المسجد فوجد الناس يقولون ذلك، فلم يصبر حتى استأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستفهمه: أطلقت نساءك؟ قال: (لا). فقلت: الله أكبر. وذكر الحديث بطوله. وعند مسلم: فقلت: أطلقتهن؟ فقال: (لا) فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي: لم يطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه. ونزلت هذه الآية: {وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم}، فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر. تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦٥-٣٦٦).

(ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم):

قال ابن زيد في قوله: (وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به) حتى بلغ (وإلى أولي الأمر منهم)، قال: الولاة الذين يلون في الحرب عليهم، الذين يتفكرون فينظرون لما جاءهم من الخبر: أصدق، أم كذب؟ أباطل فيبطلونه، أو حق فيحقونه؟ قال: وهذا في الحرب. تفسير الطبري (٨/ ٥٧٣).

وقال البغوي: وفي الآية دليل على جواز القياس، فإن من العلم ما يدرك بالتلاوة والرواية وهو النص، ومنه ما يدرك بالاستنباط وهو القياس على المعاني المودعة في النصوص. تفسير البغوي (١/ ٦٦٧).

وقال السعدي: وفي هذا دليل لقاعدة أدبية، وهي: أنه إذا حصل بحث في أمر من الأمور ينبغي أن يولى من هو أهل لذلك ويجعل إلى أهله، ولا يُتقدم بين أيديهم، فإنه أقرب إلى الصواب وأحرى للسلامة من الخطأ، وفيه النهي عن العجلة والتسرع لنشر الأمور من حين سماعها، والأمر بالتأمل قبل الكلام والنظر فيه، هل هو مصلحة، فيقدم عليه الإنسان؟ أم لا فيحجم عنه؟ تفسير السعدي (ص: ١٩٠).

(ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتّبعتم الشيطان إلا قليلا):

قال البغوي: فإن قيل: كيف استثنى القليل ولولا فضله لاتبع الكل الشيطان؟

قيل: هو راجع إلى ما قبله، قيل: معناه أذاعوا به إلا قليلا لم يفشه، وعنى بالقليل المؤمنين، وهذا قول الكلبي واختيار الفراء، وقال: لأن علم السر إذا ظهر علمه المستنبط وغيره، والإذاعة قد تكون في بعض دون بعض.

وقيل: لعلمه الذين يستنبطونه منهم إلا قليلا، ثم قوله: ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان كلام تام.

وقيل: (فضل الله) الإسلام، (ورحمته) القرآن، يقول: لولا ذلك لاتبعتم الشيطان إلا قليلا، فهم قوم اهتدوا قبل مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم ونزول القرآن، مثل زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وجماعة سواهما. تفسير البغوي (١/ ٦٦٧).

(فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرّض المؤمنين):

قال ابن كثير: {وحرّض المؤمنين} أي: على القتال ورغبهم فيه وشجعهم عنده، كما قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر، وهو يسوي الصفوف: (قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض).

وقد وردت أحاديث كثيرة في الترغيب في ذلك، فمن ذلك ما رواه البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، وصام رمضان، كان حقا على الله أن يدخله الجنة، هاجر في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها)، قالوا: يا رسول الله، أفلا نبشر الناس بذلك؟ فقال: (إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة. وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة). تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦٧-٣٦٨).

(من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها):

قال البغوي: قال ابن عباس رضي الله عنهما: الشفاعة الحسنة هي الإصلاح بين الناس، والشفاعة السيئة: هي المشي بالنميمة بين الناس.

وقيل: الشفاعة الحسنة هي: حسن القول في الناس ينال به الثواب والخير، والسيئة هي: الغيبة وإساءة القول في الناس ينال به الشر...

وقال مجاهد: هي شفاعة الناس بعضهم لبعض، يؤجر الشفيع على شفاعته وإن لم يُشفّع...

عن أبي موسى رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم جالسا إذ جاءه رجل يسأل أو طالب حاجة فأقبل علينا بوجهه، فقال: «اشفعوا تؤجروا وليقض الله على لسان نبيه ما شاء». تفسير البغوي (١/ ٦٦٨).

وقال ابن تيمية: كل من أعان شخصا على أمر فقد شفعه فيه، فلا يجوز أن يعان أحد: لا ولي أمر ولا غيره على ما حرمه الله ورسوله، وأما إذا كان للرجل ذنوب، وقد فعل برا، فهذا إذا أعين على البر، لم يكن هذا محرما، كما لو أراد مذنب أن يؤدي زكاته، أو يحج، أو يقضي ديونه، أو يرد بعض ما عنده من المظالم، أو يوصي على بناته - فهذا إذا أعين عليه فهو إعانة على بر وتقوى، ليس إعانة على إثم وعدوان. منهاج السنة النبوية (٦/ ١١٧).

(وكان الله على كل شيء مُقِيتا):

قال البغوي: قال ابن عباس رضي الله عنهما: (مُقيتا): مقتدرا أو مجازيا قال الشاعر:

وذي ضغن كففت النفس عنه ... وكنت على إساءته مُقيتا

وقال مجاهد: شاهدا: وقال قتادة: حافظا، وقيل: معناه على كل حيوان مقيتا أي: يوصل القوت إليه.

وجاء في الحديث: «كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت ويقيت». تفسير البغوي (١/ ٦٦٩).

(وإذا حُيّيتم بتحيّة فحيّوا بأحسن منها أو رُدّوها):

قال البغوي: التحية: هي دعاء بطول الحياة، والمراد بالتحية هاهنا السلام، يقول: إذا سلم عليكم مسلم فأجيبوا بأحسن مما سلم، (أو ردوها) أي: ردوا كما سلم، فإذا قال: السلام عليكم، فقل: وعليكم السلام ورحمة الله، وإذا قال: السلام عليكم ورحمة الله، فقل: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، وإذا قال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد مثله... وروي عن عمران بن الحصين: أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: السلام عليكم، فرد عليه، ثم جلس، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «عشر» ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فرد عليه فجلس، فقال: «عشرون» ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد عليه فجلس، فقال: «ثلاثون».

واعلم أن السلام سنة ورد السلام فريضة، وهو فرض على الكفاية، وكذلك السلام سنة على الكفاية، فإذا سلم واحد من جماعة كان كافيا في السنة، وإذا سلم واحد على جماعة ورد واحد منهم سقط الفرض عن جميعهم... عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»... وعن عبد الله بن عمرو أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الإسلام خير؟ قال: «أن تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف». ومعنى قوله: أي الإسلام خير؟ يريد أي خصال الإسلام خير. تفسير البغوي (١/ ٦٦٩-٦٧١).

وقال ابن كثير: قال قتادة: {فحيوا بأحسن منها} يعني: للمسلمين {أو ردوها} يعني: لأهل الذمة. وهذا التنزيل فيه نظر، بل كما تقدم في الحديث من أن المراد أن يرد بأحسن مما حياه به، فإن بلغ المسلّم غاية ما شرع في السلام؛ رد عليه مثل ما قال، فأما أهل الذمة فلا يُبدؤون بالسلام ولا يزادون، بل يرد عليهم بما ثبت في الصحيحين، عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا سلم عليكم اليهود فإنما يقول أحدهم: السام عليك فقل: وعليك). وفي صحيح مسلم، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتموهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقه). تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦٩-٣٧٠).

وقال ابن القيم: لو تحقق السامع أن الذمي قال له: سلام عليكم لا شك فيه، فهل له أن يقول: وعليك السلام، أو يقتصر على قوله: وعليك؟ فالذي تقتضيه الأدلة الشرعية وقواعد الشريعة أن يقال له: وعليك السلام، فإن هذا من باب العدل والله يأمر بالعدل والإحسان. وقد قال تعالى: {وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها} . فندب إلى الفضل، وأوجب العدل، ولا ينافي هذا شيئا من أحاديث الباب بوجه ما، فإنه صلى الله عليه وسلم إنما أمر بالاقتصار على قول الراد: وعليكم، بناء على السبب المذكور الذي كانوا يعتمدونه في تحيتهم، وأشار إليه في حديث عائشة رضي الله عنها فقال: «ألا ترينني قلت: وعليكم»؟ لما قالوا: السام عليكم، ثم قال: «إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم» والاعتبار وإن كان لعموم اللفظ فإنما يعتبر عمومه في نظير المذكور لا فيما يخالفه. أحكام أهل الذمة (١/ ٤٢٥-٤٢٦).

وقال البقاعي: المبتدىء يقول: السلام عليكم، والمجيب يقول: وعليكم السلام، ليكون الافتتاح والاختتام بذكر الله سبحانه وتعالى. وما أحسن جعلها تالية لآية الجهاد، إشارة إلى أن من بذل السلام وجب الكف عنه ولو كان في الحرب... فناسب ذكر هاتين الآيتين بعد ذكر آية الجهاد المختتمة بالبأس والتنكيل. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٣٥١-٣٥٢).

وقال السعدي: التحية هي: اللفظ الصادر من أحد المتلاقيين على وجه الإكرام والدعاء، وما يقترن بذلك اللفظ من البشاشة ونحوها. وأعلى أنواع التحية ما ورد به الشرع من السلام ابتداء وردا. فأمر تعالى المؤمنين

أنهم إذا حُيّوا بأي تحية كانت أن يردوها بأحسن منها لفظا وبشاشة أو مثلها في ذلك. ومفهوم ذلك النهي عن عدم الرد بالكلية أو ردها بدونها.

ويؤخذ من الآية الكريمة الحث على ابتداء السلام والتحية من وجهين:

أحدهما: أن الله أمر بردها بأحسن منها أو مثلها، وذلك يستلزم أن التحية مطلوبة شرعا. الثاني: ما يستفاد من أفعل التفضيل وهو (أحسن) الدال على مشاركة التحية وردها بالحسن، كما هو الأصل في ذلك.

ويستثنى من عموم الآية الكريمة من حيّا بحال غير مأمور بها، كعلى مشتغل بقراءة، أو استماع خطبة، أو مصل ونحو ذلك فإنه لا يطلب إجابة تحيته، وكذلك يستثنى من ذلك من أمر الشارع بهجره وعدم تحيته، وهو العاصي غير التائب الذي يرتدع بالهجر، فإنه يهجر ولا يحيا، ولا ترد تحيته، وذلك لمعارضة المصلحة الكبرى. ويدخل في رد التحية كل تحية اعتادها الناس وهي غير محظورة شرعا، فإنه مأمور بردها وبأحسن منها. تفسير السعدي (ص: ١٩١).

(الله لا إله إلا هو ليجمعنّكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثا):

قال الطبري: (ومن أصدق من الله حديثا)، يقول: وأي ناطق أصدق من الله حديثا؟ وذلك أن الكاذب إنما يكذب ليجتلب بكذبه إلى نفسه نفعا، أو يدفع به عنها ضرا. والله تعالى ذكره خالق الضر والنفع، فغير جائز أن يكون منه كذب، لأنه لا يدعوه إلى اجتلاب نفع إلى نفسه أو دفع ضر عنها داع. وما من أحد لا يدعوه داع إلى اجتلاب نفع إلى نفسه، أو دفع ضر عنها سواه تعالى ذكره. تفسير الطبري (٨/ ٥٩٣).

وقال السعدي: {إلى يوم القيامة لا ريب فيه} أي: لا شك ولا شبهة بوجه من الوجوه، بالدليل العقلي والدليل السمعي، فالدليل العقلي ما نشاهده من إحياء الأرض بعد موتها، ومن وجود النشأة الأولى التي وقوع الثانية أولى منها بالإمكان، ومن الحكمة التي تجزم بأن الله لم يخلق خلقه عبثا يحيون ثم يموتون. وأما الدليل السمعي فهو إخبار أصدق الصادقين بذلك، بل إقسامه عليه ولهذا قال: {ومن أصدق من الله حديثا}، كذلك أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقسم عليه في غير موضع من القرآن، كقوله تعالى: {زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير}. تفسير السعدي (ص: ١٩١).

بسم الله الرحمن الرحيم

العمل بالآيات من سورة النساء ٧٧-٨٧

١- لا تتمنّ الابتلاء، ولا لقاء الأعداء، ولا نزول الأمراض، واسأل الله العافية، واحمده على السلامة، فإنك لا تدري هل تصبر على البلاء؟ أو تجزع وتسخط وتفرّ؟ فإذا نزل بك البلاء ووجب عليك القتال فاستعن بالله واصبر وصابر، وحرّض إخوانك المؤمنين على مثل ذلك، فبذلك يكُفّ الله عن المؤمنين بأس الكافرين (ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلمّا كُتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخّرتنا إلى أجل قريب)، (فقاتل في سبيل الله لا تُكلّف إلا نفسك وحرّض المؤمنين عسى الله أن يكُفّ بأس الذين كفروا والله أشد بأسا وأشد تنكيلا).

٢- كن عاقلا، وقدّم نعيم الآخرة الكثير الصافي الدائم على متاع الدنيا القليل المشوب الزائل، واعلم أنك لن تحقّق ذلك إلا بزرع اليقين في قلبك بالآخرة (قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتّقى ولا تظلمون فتيلا).

٣- اعلم أن الموت آتٍ لا محالة، وأنه سيأتي في موعده المحدد لا يتقدم ولا يتأخر، وأنه سيكون وفق ما قدّره الله، وأن الحذر لا يُنجي من القدر، فلا ينجو أحد من الموت بقوة ولا دهاء ولا سلطان، فأعدّ للموت ولما بعده عدّته (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيّدة).

٤- اعلم أن النِعم والمصائب كلها بتقدير الله، فهو الذي ينعِم عليك بما شاء، ويبتليك ويصيبُك بما شاء، واعلم أن من أعظم أسباب نزول البلاء بك من فقر أو مرض أو فقد حبيب أو ذهاب أمن أو تسلّط عدوّ أو هم وغمّ وحزن الذنوب والمعاصي، فكن بصيرا بذنوبك، وأقلع عنها، وأدم الاستغفار منها (وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا * ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك).

٥- طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم من طاعة الله؛ لأنه مرسل من عند الله، والله يشهد له بذلك، فكن مطيعا لرسول الله صلى الله عليه وسلم بتصديق أخباره والعمل بأوامره واجتناب نواهيه الواردة في كتب السنة المعتبرة، واحذر من التولّي والإعراض عن سنّته بحجة الاكتفاء بالقرآن أو

تحكيم العقل فيما يُقبل من السنة مما لا يُقبل منها، واحذر من إظهار الطاعة في العلَن، وتبييت المعصية في السرّ، فإن الله مطّلع على عملك وقصدك، ويكتب كلّ ذلك، وسيجازيك عليه (وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا * من يُطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولّى فما أرسلناك عليهم حفيظا * ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيّت طائفة منهم غير الذي تقول والله يكتب ما يبيّتون فأعرض عنهم وتوكّل على الله وكفى بالله وكيلا).

٦- تدبّر القرآن طالبا الهداية منه، وسيتجلّى لك أنه كتاب معجِز من لدن رب عليم حكيم، سالم من الخلل والتناقض والاختلاف، بل فيه الإتقان والإعجاز والإحكام والتوافق والانسجام، واعلم أن كنوز القرآن وأسراره لا تنجلي إلا للمتدبرين (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا).

٧- يجب عليك أن تعوّد نفسك على عدم نقل كل كلام سمعته أو قرأته إلا بعد التبيّن والتحقق من صحته وثبوته، ومِن تحقّق المصلحة بنقله وإذاعته، وأما قضايا الأمن والخوف والسلم والحرب فاتركها للعلماء والولاة، فهم الذين يُحسنون تقدير المصالح والمفاسد العامّة للمجتمع والأمّة حاضرا ومستقبلا، وإن قصّروا أو فرّطوا فهم المسؤولون بين يدي الله تعالى، وإياك ونشر ما يزعزع أمن المؤمنين، أو يُخلّ باجتماع كلمتهم، أو يدبّ الرعب في صفوفهم (وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم).

٨- ابذل جاهك ومنصبك في مساعدة أخيك المسلم والشفاعة له في غير معصية ولا إضرار بغيره، وتعاون مع إخوانك على البر والتقوى، وأبشر بسعادة في الدنيا ونصيب وافر من الأجر في الأخرى، واحذر من الشفاعة في معصية أو إضرار بغيرك، ولا تتعاون على الإثم والعدوان، فتقع في الظلم، وتكون شريكا في الإثم (من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها وكان الله على كل شيء مُقيتا).

٩- احرص على بدء الناس بالسلام والتحيّة، فإن سلّم عليك مسلّم فردّ عليه بأحسن من سلامه لفظا، وأكثر بَشاشة، أو رُدّ عليه بمثل تحيّته، وذلك أدنى الواجب، واحذر من الردّ بأقل مما حيّاك به، أو

ترك الردّ بالكليّة فتقع في الإثم وتتّصف بالكِبر (وإذا حُيّيتم بتحيّة فحيّوا بأحسن منها أو ردّوها إن الله كان على كل شيء حسيبا).

١٠- أخلص عبادتك لله وحده، ولا تشرك به أحدا، فهو سبحانه المستحق وحده للعبادة، واعلم أنك ستلقى ربك وتقف بين يديه يوم القيامة للحساب والجزاء، ولا يُنجيك ثَمّ إلا إخلاصك وإيمانك وعملك الصالح (الله لا إله إلا هو ليجمعنّكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه).

١١- إذا قرأت في كتاب الله خبرا عما كان منذ خلق الله الخليقة أو سيكون في قابل الأيام في الدنيا أو في الآخرة فصدّق به تصديقا تامّا، ولا تسمع للمشكّكين فيه أو الطاعنين فيه بالتأويلات الباردة أو النظريات السخيفة الباطلة، فإن الله أصدق القائلين (ومن أصدق من الله حديثا).

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة النساء (٨٨-٩٦) من التفسير الميسّر

فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (٨٨)

فما لكم -أيها المؤمنون- في شأن المنافقين إذ اختلفتم فرقتين: فرقة تقول بقتالهم وأخرى لا تقول بذلك؟ والله تعالى قد أوقعهم في الكفر والضلال بسبب سوء أعمالهم. أتودون هداية من صرف الله تعالى قلبه عن دينه؟ ومن خذله الله عن دينه، واتباع ما أمره به، فلا طريق له إلى الهدى.

وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٨٩)

تمنَّى المنافقون لكم -أيها المؤمنون-، لو تنكرون حقيقة ما آمنت به قلوبكم، مثلما أنكروه بقلوبهم، فتكونون معهم في الإنكار سواء، فلا تتخذوا منهم أصفياء لكم، حتى يهاجروا في سبيل الله، برهانًا على صدق إيمانهم، فإن أعرضوا عما دعوا إليه، فخذوهم أينما كانوا واقتلوهم، ولا تتخذوا منهم وليّا من دون الله ولا نصيرًا تستنصرونه به.

إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (٩٠)

لكن الذين يتصلون بقوم بينكم وبينهم عهد وميثاق فلا تقاتلوهم، وكذلك الذين أتَوا إليكم وقد ضاقت صدورهم وكرهوا أن يقاتلوكم، كما كرهوا أن يقاتلوا قومهم، فلم يكونوا معكم ولا مع قومهم، فلا تقاتلوهم، ولو شاء الله تعالى لسلَّطهم عليكم، فلقاتلوكم مع أعدائكم من المشركين، ولكن الله تعالى صرفهم عنكم بفضله وقدرته، فإن تركوكم فلم يقاتلوكم، وانقادوا اليكم مستسلمين، فليس لكم عليهم من طريق لقتالهم.

سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (٩١)

ستجدون قومًا آخرين من المنافقين يودون الاطمئنان على أنفسهم من جانبكم، فيظهرون لكم الإيمان، ويودون الاطمئنان على أنفسهم من جانب قومهم الكافرين، فيظهرون لهم الكفر، كلما أعيدوا إلى موطن الكفر والكافرين، وقعوا في أسوأ حال. فهؤلاء إن لم ينصرفوا عنكم، ويقدموا إليكم الاستسلام التام، ويمنعوا أنفسهم عن قتالكم فخذوهم بقوة واقتلوهم أينما كانوا، وأولئك الذين بلغوا في هذا المسلك السيِّئ حدّاً يميزهم عمَّن عداهم، فهم الذين جعلنا لكم الحجة البينة على قتلهم وأسرهم.

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللهِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٩٢)

ولا يحق لمؤمن الاعتداء على أخيه المؤمن وقتله بغير حق، إلا أن يقع منه ذلك على وجه الخطأ الذي لا عمد فيه، ومن وقع منه ذلك الخطأ فعليه عتق رقبة مؤمنة، وتسليم دية مقدرة إلى أوليائه، إلا أن يتصدقوا بها عليه ويعفوا عنه. فإن كان المقتول من قوم كفار أعداء للمؤمنين، وهو مؤمن بالله تعالى، وبما أنزل من الحق على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، فعلى قاتله عتق رقبة مؤمنة، وإن كان من قوم بينكم وبينهم عهد وميثاق، فعلى قاتله دية تسلم إلى أوليائه وعتق رقبة مؤمنة، فمن لم يجد القدرة على عتق رقبة مؤمنة، فعليه صيام شهرين متتابعين؛ ليتوب الله تعالى عليه. وكان الله تعالى عليما بحقيقة شأن عباده، حكيمًا فيما شرعه لهم.

وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (٩٣)

ومن يَعْتَدِ على مؤمن فيقتله عن عمد بغير حق فعاقبته جهنم، خالدًا فيها مع سخط الله تعالى عليه وطَرْدِهِ من رحمته، إن جازاه على ذنبه وأعدَّ الله له أشد العذاب بسبب ما ارتكبه من هذه الجناية العظيمة. ولكنه سبحانه يعفو ويتفضل على أهل الإيمان فلا يجازيهم بالخلود في جهنم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٩٤)

يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه إذا خرجتم في الأرض مجاهدين في سبيل الله فكونوا على بينة مما تأتون وتتركون، ولا تنفوا الإيمان عمن بدا منه شيء من علامات الإسلام ولم يقاتلكم؛ لاحتمال أن يكون مؤمنًا يخفي إيمانه، طالبين بذلك متاع الحياة الدنيا، والله تعالى عنده من الفضل والعطاء ما يغنيكم به، كذلك كنتم في بدء الإسلام تخفون إيمانكم عن قومكم من المشركين فمَنَّ الله عليكم، وأعزَّكم بالإيمان والقوة، فكونوا على بيِّنة ومعرفة في أموركم. إن الله تعالى عليم بكل أعمالكم، مطَّلع على دقائق أموركم، وسيجازيكم عليها.

لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥)

لا يتساوى المتخلفون عن الجهاد في سبيل الله -غير أصحاب الأعذار منهم- والمجاهدون في سبيل الله، بأموالهم وأنفسهم، فضَّل الله تعالى المجاهدين على القاعدين، ورفع منزلتهم درجة عالية في الجنة، وقد وعد الله كلا من المجاهدين بأموالهم وأنفسهم والقاعدين من أهل الأعذار الجنة لِما بذلوا وضحَّوا في سبيل الحق، وفضَّل الله تعالى المجاهدين على القاعدين ثوابًا جزيلا.

دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٩٦)

هذا الثواب الجزيل منازل عالية في الجنات من الله تعالى لخاصة عباده المجاهدين في سبيله، ومغفرة لذنوبهم ورحمة واسعة ينعمون فيها. وكان الله غفورًا لمن تاب إليه وأناب، رحيمًا بأهل طاعته، المجاهدين في سبيله.

بسم الله الرحمن الرحيم

معاني كلمات سورة النساء (٨٨-٩٦)

الكلمة	المعنى
أرْكَسَهُم	ردّهم وأوقعهم في الكفر والضلال
حَصِرَت صُدُورُهم	ضاقت صدورهم وكرهت مقاتلتكم
وألقَوا إليكم السَلَم	وانقادوا إليكم مستسلمين للصلح
أُركِسُوا فيها	وقعوا في الفتنة على أسوأ حال
ثَقِفتُموهُم	وجدتموهم أو تمكّنتم منهم
ضرَبتُم في سبيل الله	سافرتم وذهبتم في الأرض مجاهدين في سبيل الله
ألقى إليكم السلام	ألقى إليكم الاستسلام أو تحية الإسلام
عرَضَ الحياة الدنيا	متاعها الزائل، والمراد: الغنيمة
القاعدون	المتخلّفون عن الجهاد
أولي الضَرَر	أصحابِ العذر المانع من الجهاد

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقف والابتداء في سورة النساء ٨٨-٩٦

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذه الفقرة المتعلقة بالوقف والابتداء في الآيات من سورة النساء من الآية الثامنة والثمانين وحتى الآية السادسة والتسعين.

أبدأ بالآية الأولى وهي قول الله تعالى: (فمالكم في المنافقين فئتين) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء تجويزا وتحسينا، لكن إذا تأملنا فإن الاستفهام هنا ارتبط به حال، وذلك في الجملة الواردة في قوله تعالى: (والله أركسهم بما كسبوا)، فتقدير الجملة: فما لكم في المنافقين فئتين والحال أن الله أركسهم بما كسبوا، وبناءً على ذلك فإنه لا يصح الوقف هنا، كما نص عليه بعض علماء الوقف والابتداء، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (والله أركسهم بما كسبوا)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعة من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة الاستفهام وما ارتبط بها من حال قد انتهت هنا، ثم جاء استفهام جديد في قوله: (أتريدون أن تهدوا من أضل الله)، فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (أتريدون أن تهدوا من أضل الله)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعة من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الاستفهام قد انتهى هنا، ثم جاءت جملة شرطية تضمنت حكما عاما فيمن يضله الله في قوله: (ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا)، فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعة من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة قد انتهت هنا، إذ انتهى ما يودون، ثم جاء نهي عن موالاتهم بعد أن ذكر ما يودونه من المؤمنين في قوله: (فلا تتخذوا منهم أولياء)، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله)؟

الجواب: نعم، نص عليه بعض علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن النهي قد انتهى هنا، ثم جاءت جملة شرطية تضمنت حكمهم وكيفية التعامل معهم في حال إعراضهم وتوليهم، وذلك في قوله: (فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم)، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعة من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة الشرط قد انتهت هنا بفعلها وجوابها، ثم جاءت جملة نهي في قوله: (ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا)، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

الآية التي تليها: (إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، نص على ذلك الأشموني، وذلك أن قوله (أو جاءوكم) معطوف على قوله: (يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق)، فالكلام متصل، وبناء عليه لا يصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعة من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الاستثناء قد انتهى هنا، أعني الاستثناء الذي بدأ من بداية الآية، ثم جاءت جملة شرطية في قوله: (ولو شاء الله لسلّطهم عليكم)، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (ولو شاء الله لسلّطهم عليكم فلقاتلوكم)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعة من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الشرط الأول قد انتهى هنا، ثم جاءت جملة شرطية أخرى تضمنت حكما جديدا في قوله: (فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم) إلى آخر الجملة، فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم)؟

الجواب: لا يصح، نص على ذلك السجاوندي والأشموني، ووجهه أن جواب الشرط لم يأت بعد، وذلك أن فعل الشرط في قوله: (اعتزلوكم)، وعطف عليه (فلم يقاتلوكم)، وعطف عليه أيضا (وألقوا إليكم السلم)، وجواب الشرط (فما جعل الله لكم عليهم سبيلا)، فلا وقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن الجملة الفعلية قد انتهت هنا، ثم جاءت جملة ظرف متضمنة معنى الشرط في قوله: (كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها)، فالوقف هنا له وجه، وإن كان الوصل أولى، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعة من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة الظرفية قد انتهت هنا، ثم جاءت جملة شرطية لبيان حكم جديد، وذلك في قوله: (فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم) إلى آخر الجملة، فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعة من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة الشرط قد انتهت هنا، ثم جاءت جملة ابتدائية مستأنفة في قوله: (وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا)، فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأً) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة النفي وما ارتبط بها من الاستثناء قد انتهت هنا، ثم جاءت جملة شرطية لبيان ما يترتب على القتل الخطأ من أحكام في قوله: (ومن قتل مؤمنا خطأً) إلى آخر الجملة، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة)؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن ما بعده من تتمة الجملة، وهو من تتمة الحكم، وهو معطوف على جواب الشرط، فحكم من قتل مؤمنا خطأ يشمل تحرير رقبة مؤمنة، وإعطاء دية مسلّمة إلى أهله، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (ودية مسلّمة إلى أهله إلا أن يصّدّقوا)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الحكم الأول قد انتهى هنا، وانتهت معه جملة الشرط وما عطف على جوابها، ثم جاء حكم آخر في جملة شرطية جديدة، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعة من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة الشرط قد انتهت هنا، وانتهى معها الحكم، ثم جاءت جملة شرطية جديدة تضمنت حكما جديدا، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلّمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعة من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة الشرط قد انتهت هنا، وانتهى معها الحكم، ثم جاءت جملة شرطية جديدة في بيان حكم من لا يقدر على تحرير الرقبة المؤمنة في قوله: (فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين)، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (فصيام شهرين متتابعين)؟

جوّز الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، ولم ينصّ عليه الأكثر، وإذا تأملنا فإن قوله تعالى (توبة من الله) يحتمل أن يكون مصدرا لفعل محذوف تقديره: يتوب الله عليه توبة، وهذا وجه من صحح الوقف هنا، ويحتمل أن يكون مفعولا لأجله، أي: فصيام شهرين متتابعين لتوبة من الله، ولعل هذا هو الأقرب، وبناء عليه لا وقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (توبة من الله)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة الشرط قد انتهت هنا، ثم جاءت جملة مستأنفة مبدوءة بكان في قوله: (وكان الله عليما حكيما)، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

الآية التي تليها: (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله: (وغضب الله عليه) هو من تتمة جزائه، ومعطوف على جواب الشرط، فجزاء من قتل مؤمنا متعمدا يتضمن أنه يخلد في نار جهنم، وأن الله يغضب عليه، وأن الله يلعنه، وأن الله قد أعدّ له عذابا عظيما، فلا وقف إلى نهاية الآية، والله أعلم.

الآية التي تليها: (يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن قوله تعالى (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا) جملة تحتمل أن تكون معطوفة على جواب الشرط في قوله (فتبينوا)، وتحتمل أن تكون مستأنفة، فإن كانت معطوفة على جواب الشرط فلا وقف؛ لأنها تكون من تتمة الشرط، وإن كانت

مستأنفة صح الوقف، والأمر في هذا محتمل، وأكثر علماء الوقف والابتداء حسنوا وجوزوا الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا)؟

جوّز الوقف هنا السجاوندي، وجعله الأشموني صالحا، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن قوله (تبتغون عرض الحياة الدنيا) جملة تصلح أن تكون حالا، أي: لا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا مبتغين بذلك عرض الحياة الدنيا، وبناء عليه لا يصح الوقف على قوله (لست مؤمنا)، وتصلح أن تكون هذه الجملة استفهاما على إضمار الألف في قوله (تبتغون) فالتقدير: أتبتغون عرض الحياة الدنيا؟ وبناء عليه يصح الوقف على قوله (لست مؤمنا)، والأمر في هذا محتمل، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (تبتغون عرض الحياة الدنيا)؟

جوّز الوقف هنا وحسّنه بعض علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن قوله (فعند الله مغانم كثيرة) جملة تضمنت فاء رابطة لها بما قبلها، وهي جملة تتضمن تعليلا، يعني كأن الله عاتبهم على ابتغائهم الغنيمة ومتاع الدنيا الزائل، وبين لهم في ذات الوقت أن عنده سبحانه مغانم كثيرة، فالأوجه عدم الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (فعند الله مغانم كثيرة)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعة من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أنه قد جاء بعده جملة مستأنفة في قوله: (كذلك كنتم من قبل)، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (فمنّ الله عليكم فتبينوا)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعة من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة المستأنفة وما عطف عليها قد انتهت هنا، ثم جاءت جملة مستأنفة مبدوءة بإنّ في قوله (إن الله كان بما تعملون خبيرا)، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، نصّ على ذلك الأشموني، ووجهه أن قوله (والمجاهدون) معطوف على (القاعدون)، وأن فعل (يستوي) لا بد أن يذكر بعده صنفان من الناس، فلا يستوي القاعدون مع المجاهدين، ولا تتم الجملة إذا قلنا: (لا يستوي القاعدون)، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعة من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة النفي قد انتهت هنا، ثم جاء خبر مستأنف في بيان ما فضّل الله به المجاهدين على القاعدين في قوله: (فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة)، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعة من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة التفضيل قد انتهت هنا، ثم جاءت جملة معترضة في ذكر الحكم الأخروي للفريقين في قوله (وكلا وعد الله الحسنى)، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (وكلا وعد الله الحسنى)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة المعترضة قد انتهت هنا، ثم جاءت جملة معطوفة على ما قبل الجملة المعترضة في قوله (وفضّل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما) لبيان حقيقة التفضيل، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية الأخيرة: (درجات منه ومغفرة ورحمة) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعة من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أنه قد جاء بعده جملة مستأنفة مبدوءة بكان في قوله: (وكان الله غفورا رحيما)، فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

هذا آخر ما في هذا المقطع، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يعلّمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علّمنا، وأن يزيدنا علمًا وعملاً وهدًى وتقًى، والله تعالى أعلم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله الرحمن الرحيم

فوائد ولطائف سورة النساء ٨٨-٩٦

(فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا):

سبب النزول: عن زيد بن ثابت رضي الله عنه: رجع ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من أحد، وكان الناس فيهم فرقتين: فريق يقول: اقتلهم، وفريق يقول: لا، فنزلت: {فما لكم في المنافقين فئتين}. صحيح البخاري (٦/ ٤٧)، صحيح مسلم (٤/ ٢١٤٢).

عن ابن عباس: قوله: (فما لكم في المنافقين فئتين)، وذلك أن قوما كانوا بمكة قد تكلموا بالإسلام، وكانوا يظاهرون المشركين، فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم، فقالوا: إن لقينا أصحاب محمد فليس علينا منهم بأس! وأن المؤمنين لما أخبروا أنهم قد خرجوا من مكة، قالت فئة من المؤمنين: اركبوا إلى الخبثاء فاقتلوهم، فإنهم يظاهرون عليكم عدوكم! وقالت فئة أخرى من المؤمنين: سبحان الله، أتقتلون قوما قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به؟ أمن أجل أنهم لم يهاجروا ويتركوا ديارهم، تُستحل دماؤهم وأموالهم لذلك! فكانوا كذلك فئتين، والرسول عليه السلام عندهم لا ينهى واحدا من الفريقين عن شيء، فنزلت: (فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله). تفسير الطبري (٨/ ١٠-١١).

(ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء):

قال البغوي: قوله: (فتكونون) لم يُرد به جواب التمني؛ لأن جواب التمني بالفاء منصوب، إنما أراد النسق، أي: ودوا لو تكفرون وودوا لو تكونون سواء. تفسير البغوي (١/ ٦٧٣).

(فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله):

قال السعدي: {فلا تتخذوا منهم أولياء} وهذا يستلزم عدم محبتهم؛ لأن الولاية فرع المحبة. ويستلزم أيضا بغضهم وعداوتهم؛ لأن النهي عن الشيء أمر بضده، وهذا الأمر موقت بهجرتهم، فإذا هاجروا جرى عليهم ما جرى على المسلمين، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يجري أحكام الإسلام لكل من كان معه وهاجر إليه، سواء كان مؤمنا حقيقة أو ظاهر الإيمان. تفسير السعدي (ص: ١٩٢).

(إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق):

قال البغوي: استثنى طائفة منهم فقال: (إلا الذين يصلون إلى قوم...)، وهذا الاستثناء يرجع إلى القتل لا إلى الموالاة، لأن موالاة الكفار والمنافقين لا تجوز بحال. تفسير البغوي (١/ ٦٧٣).

وقال السعدي: إن الله استثنى من قتال هؤلاء المنافقين ثلاث فرق: فرقتين أمر بتركهم وحتّم على ذلك:

إحداهما: من يصل إلى قوم بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق بترك القتال فينضم إليهم، فيكون له حكمهم في حقن الدم والمال.

والفرقة الثانية: قوم {حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم} أي: بقوا، لا تسمح أنفسهم بقتالكم، ولا بقتال قومهم، وأحبوا ترك قتال الفريقين، فهؤلاء أيضا أمر بتركهم، وذكر الحكمة في ذلك في قوله: {ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم}، فإن الأمور الممكنة ثلاثة أقسام: إما أن يكونوا معكم ويقاتلوا أعداءكم، وهذا متعذر من هؤلاء، فدار الأمر بين قتالكم مع قومهم، وبين ترك قتال الفريقين، وهو أهون الأمرين عليكم، والله قادر على تسليطهم عليكم، فاقبلوا العافية، واحمدوا ربكم الذي كف أيديهم عنكم مع التمكن من ذلك. {فـ} هؤلاء {إن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا}.

الفرقة الثالثة: قوم يريدون مصلحة أنفسهم بقطع النظر عن احترامكم، وهم الذين قال الله فيهم: {ستجدون آخرين} أي: من هؤلاء المنافقين. {يريدون أن يأمنوكم} أي: خوفا منكم {ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها} أي: لا يزالون مقيمين على كفرهم ونفاقهم، وكلما عرض لهم عارض من عوارض الفتن أعماهم ونكسهم على رؤوسهم، وازداد كفرهم ونفاقهم، وهؤلاء في الصورة كالفرقة الثانية، وفي الحقيقة مخالفة لها.

فإن الفرقة الثانية تركوا قتال المؤمنين احتراما لهم لا خوفا على أنفسهم، وأما هذه الفرقة فتركوه خوفا لا احتراما، بل لو وجدوا فرصة في قتال المؤمنين، فإنهم مستعدون لانتهازها، فهؤلاء إن لم يتبين منهم ويتضح اتضاحا عظيما اعتزال المؤمنين وترك قتالهم، فإنهم يقاتَلون، ولهذا قال: {فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم} أي: المسالمة والموادعة {ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم

عليهم سلطانا مبينا} أي: حجة بينة واضحة، لكونهم معتدين ظالمين لكم تاركين للمسالمة، فلا يلوموا إلا أنفسهم. تفسير السعدي (ص: ١٩٢).

(وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ):

سبب النزول: عن السدي قال: نزلت في عياش بن أبي ربيعة المخزومي، وكان أخا لأبي جهل بن هشام لأمه، وإنه أسلم وهاجر في المهاجرين الأولين قبل قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فطلبه أبو جهل والحارث بن هشام ومعهما رجل من بني عامر بن لؤي، فأتوه بالمدينة، وكان عياش أحب إخوته إلى أمه، فكلموه وقالوا: إن أمك قد حلفت أن لا يُظلها بيت حتى تراك، وهي مضطجعة في الشمس، فأتها لتنظر إليك ثم ارجع! وأعطوه موثقا من الله لا يهيجونه حتى يرجع إلى المدينة، فأعطاه بعض أصحابه بعيرا له نجيبا وقال: إن خفت منهم شيئا، فاقعد على النجيب. فلما أخرجوه من المدينة، أخذوه فأوثقوه، وجلده العامري، فحلف ليقتلن العامري. فلم يزل محبوسا بمكة حتى خرج يوم الفتح، فاستقبله العامري وقد أسلم، ولا يعلم عياش بإسلامه، فضربه فقتله. فأنزل الله: (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ). تفسير الطبري (٩/ ٣٣).

وقال السعدي: هذه الصيغة من صيغ الامتناع، أي: يمتنع ويستحيل أن يصدر من مؤمن قتل مؤمن، أي: متعمدا، وفي هذا الإخبار بشدة تحريمه، وأنه مناف للإيمان أشد منافاة، وإنما يصدر ذلك إما من كافر، أو من فاسق قد نقص إيمانه نقصا عظيما، ويخشى عليه ما هو أكبر من ذلك، فإن الإيمان الصحيح يمنع المؤمن من قتل أخيه الذي قد عقد الله بينه وبينه الأخوة الإيمانية التي من مقتضاها محبته وموالاته، وإزالة ما يعرض لأخيه من الأذى، وأي أذى أشد من القتل؟ وهذا يصدقه قوله صلى الله عليه وسلم: (لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض). فعلم أن القتل من الكفر العملي وأكبر الكبائر بعد الشرك بالله. ولما كان قوله: {وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا} لفظا عاما لجميع الأحوال، وأنه لا يصدر منه قتل أخيه بوجه من الوجوه، استثنى تعالى قتل الخطأ فقال: {إلا خطأ} فإن المخطئ الذي لا يقصد القتل غير آثم، ولا مجترئ على محارم الله، ولكنه لما كان قد فعل فعلا شنيعا وصورته كافية في قبحه وإن لم يقصده أمر تعالى بالكفارة والدية. تفسير السعدي (ص: ١٩٢-١٩٣).

(ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة):

عن إبراهيم النخعي قال: الخطأ: أن يرمي الشيء فيصيب إنسانا وهو لا يريده، فهو خطأ، وهو على العاقلة. تفسير الطبري (٩/ ٤٥).

وقال ابن تيمية: الضمان من باب العدل الواجب في حقوق الآدميين، وهو يجب في العمد والخطأ: {وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا}، فقاتل النفس خطأ لا يأثم ولا يفسق بذلك؛ ولكن عليه الدية، كذلك من أتلف مالا مغصوبا خطأ فعليه بدله ولا إثم عليه. مجموع الفتاوى (٢٩/ ٣٢٧).

وقال السعدي: {ومن قتل مؤمنا خطأ} سواء كان القاتل ذكرا أو أنثى، حرا أو عبدا، صغيرا أو كبيرا، عاقلا أو مجنونا، مسلما أو كافرا، كما يفيده لفظ (مَن) الدالة على العموم، وهذا من أسرار الإتيان بـ (مَن) في هذا الموضع، فإن سياق الكلام يقتضي أن يقول: فإن قتله، ولكن هذا لفظ لا يشمل ما تشمله (مَن)، وسواء كان المقتول ذكرا أو أنثى، صغيرا أو كبيرا، كما يفيده التنكير في سياق الشرط، فإن على القاتل {تحرير رقبة مؤمنة} كفارة لذلك، تكون في ماله، ويشمل ذلك الصغير والكبير، والذكر والأنثى. تفسير السعدي (ص: ١٩٣).

(ودية مسلّمة إلى أهله إلا أن يصّدّقوا):

قال ابن كثير: {ودية مسلمة إلى أهله} هو الواجب الثاني فيما بين القاتل وأهل القتيل، عوضا لهم عما فاتهم من قريبهم. وهذه الدية إنما تجب أخماسا، كما رواه الإمام أحمد وأهل السنن، من حديث... ابن مسعود قال: قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم في دية الخطأ عشرين بنت مخاض، وعشرين بني مخاض ذكورا، وعشرين بنت لبون، وعشرين جذعة وعشرين حقة... وقيل: تجب أرباعا. وهذه الدية إنما تجب على عاقلة القاتل، لا في ماله، قال الشافعي رحمه الله: لم أعلم مخالفا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى بالدية على العاقلة، وهو أكثر من حديث الخاصة. وهذا الذي أشار إليه رحمه الله، قد ثبت في غير ما

حديث، فمن ذلك ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال: اقتتلت امرأتان من هذيل، فرمت إحداهما الأخرى بحجر، فقتلتها وما في بطنها، فاختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقضى أن دية جنينها غرة: عبد أو أمة، وقضى بدية المرأة على عاقلتها. وهذا يقتضي أن حكم عمد الخطأ حكم الخطأ المحض في وجوب الدية، لكن هذا تجب فيه الدية أثلاثا كالعمد، لشبهه به. تفسير ابن كثير (٢/ ٣٧٥).

وقال السعدي: {إلا أن يصّدّقوا} أي: يتصدق ورثة القتيل بالعفو عن الدية، فإنها تسقط، وفي ذلك حث لهم على العفو لأن الله سماها صدقة، والصدقة مطلوبة في كل وقت. تفسير السعدي (ص: ١٩٣).

وقال ابن عثيمين: «عاقلة الإنسان عصباته كلهم من النسب»، وعصباته من النسب كل ذكر لم يدلِ بأنثى، فخرج به الزوج فليس منهم؛ لأنه ليس بعاصب، والأخ من الأم كذلك ليس منهم؛ لأنه مدلٍ بأم، وأيضاً ليس بعاصب، ودخل فيه الإخوة، والأعمام، وأبناء الإخوة، وأبناء الأعمام، وما أشبه ذلك. الشرح الممتع على زاد المستقنع (١٤/ ١٧١).

(فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلّمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة):

قال الزركشي: {ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله} فقدم الكفارة على الدية، وعكس في قتل المعاهد حيث قال: {وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة}. قال الماوردي في الحاوي: ووجهه أن المسلم يرى تقديم حق الله على نفسه، والكافر يرى تقديم نفسه على حق الله. البرهان في علوم القرآن (٣/ ٢٦٦).

وقال ابن كثير: {فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة} أي: إذا كان القتيل مؤمنا، ولكن أولياؤه من الكفار أهل حرب، فلا دية لهم، وعلى القاتل تحرير رقبة مؤمنة لا غير.

وقوله: {وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة} أي: فإن كان القتيل أولياؤه أهل ذمة أو هدنة، فلهم دية قتيلهم، فإن كان مؤمنا فدية كاملة، وكذا إن كان كافرا أيضا عند

طائفة من العلماء. وقيل: يجب في الكافر نصف دية المسلم، وقيل: ثلثها... ويجب أيضا على القاتل تحرير رقبة مؤمنة. تفسير ابن كثير (٢/ ٣٧٦).

(فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله):

قال الطبري: الصواب من القول في ذلك، أن الصوم عن الرقبة دون الدية، لأن دية الخطأ على عاقلة القاتل، والكفارة على القاتل، بإجماع الحجة على ذلك نقلا عن نبيها صلى الله عليه وسلم، فلا يقضي صوم صائم عما لزم غيره في ماله. تفسير الطبري (٩/ ٥٦).

وقال ابن كثير: {فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين} أي: لا إفطار بينهما، بل يسرد صومهما إلى آخرهما، فإن أفطر من غير عذر، من مرض أو حيض أو نفاس، استأنف. واختلفوا في السفر: هل يقطع أم لا؟ على قولين... واختلفوا فيمن لا يستطيع الصيام: هل يجب عليه إطعام ستين مسكينا، كما في كفارة الظهار؟ على قولين؛ أحدهما: نعم. كما هو منصوص عليه في كفارة الظهار، وإنما لم يذكر هاهنا؛ لأن هذا مقام تهديد وتخويف وتحذير، فلا يناسب أن يذكر فيه الإطعام لما فيه من التسهيل والترخيص. القول الثاني: لا يعدل إلى الإطعام؛ لأنه لو كان واجبا لما أُخر بيانه عن وقت الحاجة. تفسير ابن كثير (٢/ ٣٧٦).

(وكان الله عليما حكيما):

قال السعدي: ومن علمه وحكمته أن أوجب على القاتل كفارة مناسبة لما صدر منه، فإنه تسبب لإعدام نفس محترمة، وأخرجها من الوجود إلى العدم، فناسب أن يعتق رقبة ويخرجها من رق العبودية للخلق إلى الحرية التامة، فإن لم يجد هذه الرقبة صام شهرين متتابعين، فأخرج نفسه من رق الشهوات واللذات الحسية القاطعة للعبد عن سعادته الأبدية إلى التعبد لله تعالى بتركها تقربا إلى الله...

ومن حكمته أن أوجب في القتل الدية ولو كان خطأ، لتكون رادعة وكافة عن كثير من القتل باستعمال الأسباب العاصمة عن ذلك.

ومن حكمته أن وجبت الدية على العاقلة في قتل الخطأ بإجماع العلماء، لكون القاتل لم يذنب فيشق عليه أن يحمل هذه الدية الباهظة، فناسب أن يقوم بذلك من بينه وبينهم المعاونة والمناصرة والمساعدة على

تحصيل المصالح وكف المفاسد، ولعل ذلك من أسباب منعهم لمن يعقلون عنه من القتل حذرا من تحميلهم، ويخف عنهم بسبب توزيعه عليهم بقدر أحوالهم وطاقتهم، وخففت أيضا بتأجيلها عليهم ثلاث سنين.

ومن حكمته وعلمه أن جبر أهل القتيل عن مصيبتهم بالدية التي أوجبها على أولياء القاتل. تفسير السعدي (ص: ١٩٣).

(ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ له عذابا عظيما):

قال ابن تيمية: قتل الخطأ: لا يجب فيه إلا الدية والكفارة، ولا إثم فيه. وأما القاتل عمدا فعليه الإثم، فإذا عفى عنه أولياء المقتول، أو أخذوا الدية: لم يسقط بذلك حق المقتول في الآخرة. وإذا قتلوه ففيه نزاع في مذهب أحمد. والأظهر أن لا يسقط؛ لكن القاتل إذا كثرت حسناته أُخذ منه بعضُها ما يرضى به المقتول، أو يعوّضه الله من عنده إذا تاب القاتل توبة نصوحا.

وقاتل الخطأ تجب عليه الدية بنص القرآن واتفاق الأمة، والدية تجب للمسلم والمعاهد كما قد دل عليه القرآن، وهو قول السلف والأئمة... وأما القاتل عمدا ففيه القوَد، فإن اصطلحوا على الدية جاز ذلك بالنص والإجماع، فكانت الدية من مال القاتل؛ بخلاف الخطأ فإن ديته على عاقلته.

وأما الكفارة فجمهور العلماء يقولون: قتل العمد أعظم من أن يكفّر، وكذلك قالوا في اليمين الغموس. هذا مذهب مالك، وأبي حنيفة، وأحمد في المشهور عنه، كما اتفقوا كلهم على أن الزنا أعظم من أن يكفّر... وقال الشافعي وأحمد في الرواية الأخرى: بل تجب الكفارة في العمد، واليمين الغموس. واتفقوا على أن الإثم لا يسقط بمجرد الكفارة. الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٣/ ٣٨٦).

وقال ابن كثير: لما بين تعالى حكم القتل الخطأ، شرع في بيان حكم القتل العمد، فقال: {ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما}، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم، الذي هو مقرون بالشرك بالله في غير ما آية في كتاب الله، حيث يقول سبحانه في سورة الفرقان: {والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا

يزنون} الآية، وقال تعالى: {قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا} إلى أن قال: {ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون}.

والأحاديث في تحريم القتل كثيرة جدا. من ذلك ما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء)... وفي حديث آخر: (لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم)، وفي الحديث الآخر: (لو أجمع أهل السموات والأرض على قتل رجل مسلم، لأكبهم الله في النار)، وفي الحديث الآخر: (من أعان على قتل مسلم ولو بشطر كلمة، جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه: آيس من رحمة الله). تفسير ابن كثير (٢/ ٣٧٦).

وقال ابن كثير: وقد كان ابن عباس رضي الله عنهما، يرى أنه لا توبة للقاتل عمدا لمؤمن.

وقال البخاري:... عن ابن جبير قال: اختلف فيها أهل الكوفة، فرحلت إلى ابن عباس فسألته عنها فقال: نزلت هذه الآية: {ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها} هي آخر ما نزل، وما نسخها شيء...

وممن ذهب إلى أنه لا توبة له من السلف: زيد بن ثابت، وأبو هريرة، وعبد الله بن عمر، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وعبيد بن عمر، والحسن، وقتادة، والضحاك بن مزاحم، نقله ابن أبي حاتم...

وعن معاوية رضي الله عنه، يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافرا، أو الرجل يقتل مؤمنا متعمدا)...

والذي عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها: أن القاتل له توبة فيما بينه وبين ربه عز وجل، فإن تاب وأناب وخشع وخضع، وعمل عملا صالحا، بدّل الله سيئاته حسنات، وعوّض المقتول من ظلامته وأرضاه عن طلابته.

قال الله تعالى: {والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما * يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما}، وهذا خبر لا يجوز نسخه. وحمله على المشركين، وحمل هذه الآية على المؤمنين خلاف الظاهر، ويحتاج حمله إلى دليل، والله أعلم.

وقال تعالى: {قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم}، وهذا عام في جميع الذنوب، من كفر وشرك، وشك ونفاق، وقتل وفسق، وغير ذلك: كل من تاب من أي ذلك تاب الله عليه.

وقال تعالى: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} . فهذه الآية عامة في جميع الذنوب ما عدا الشرك، وهي مذكورة في هذه السورة الكريمة بعد هذه الآية وقبلها، لتقوية الرجاء، والله أعلم.

وثبت في الصحيحين خبر الإسرائيلي الذي قتل مائة نفس، ثم سأل عالما: هل لي من توبة؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة؟! ثم أرشده إلى بلد يعبد الله فيه، فهاجر إليه، فمات في الطريق، فقبضته ملائكة الرحمة. كما ذكرناه غير مرة، إن كان هذا في بني إسرائيل فلأن يكون في هذه الأمة التوبة مقبولة بطريق الأولى والأحرى؛ لأن الله وضع عنا الأغلال والآصار التي كانت عليهم، وبعث نبينا بالحنيفية السمحة.

فأما الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: {ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما} فقد قال أبو هريرة وجماعة من السلف: هذا جزاؤه إن جازاه... ومعنى هذه الصيغة: أن هذا جزاؤه إن جوزي عليه، وكذا كل وعيد على ذنب، لكن قد يكون كذلك معارض من أعمال صالحة تمنع وصول ذلك الجزاء إليه، على قول أصحاب الموازنة أو الإحباط. وهذا أحسن ما يسلك في باب الوعيد، والله أعلم بالصواب.

وبتقدير دخول القاتل إلى النار، أما على قول ابن عباس ومن وافقه أنه لا توبة له، أو على قول الجمهور حيث لا عمل له صالحا ينجو به، فليس يخلّد فيها أبدا، بل الخلود هو المكث الطويل. وقد تواردت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه يخرج من النار من كان في قلبه أدنى ذرة من إيمان.

وأما حديث معاوية: (كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافرا، أو الرجل يقتل مؤمنا متعمدا): "عسى" للترجي، فإذا انتفى الترجي في هاتين الصورتين لا ينتفي وقوع ذلك في أحدهما، وهو القتل؛ لما ذكرنا من الأدلة. وأما من مات كافرا؛ فالنص أنه لا يغفر له البتة.

وأما مطالبة المقتول القاتل يوم القيامة فإنه حق من حقوق الآدميين وهي لا تسقط بالتوبة، ولا فرق بين المقتول والمسروق منه والمغصوب منه والمقذوف وسائر حقوق الآدميين، فإن الإجماع منعقد على أنها لا تسقط بالتوبة، ولا بد من أدائها إليهم في صحة التوبة، فإن تعذر ذلك فلا بد من الطلابة يوم القيامة، لكن لا يلزم من وقوع الطلابة وقوع المجازاة، وقد يكون للقاتل أعمال صالحة تصرف إلى المقتول أو بعضها،

ثم يفضل له أجر يدخل به الجنة، أو يعوّض الله المقتول من فضله بما يشاء من قصور الجنة ونعيمها، ورفع درجته فيها ونحو ذلك، والله أعلم. تفسير ابن كثير (٢/ ٣٧٧-٣٨٠).

وقال السعدي: ذكر هنا وعيد القاتل عمدا، وعيدا ترجف له القلوب وتنصدع له الأفئدة، وتنزعج منه أولو العقول. فلم يرد في أنواع الكبائر أعظم من هذا الوعيد، بل ولا مثله، ألا وهو الإخبار بأن جزاءه جهنم، أي: فهذا الذنب العظيم قد انتهض وحده أن يجازى صاحبه بجهنم، بما فيها من العذاب العظيم، والخزي المهين، وسخط الجبار، وفوات الفوز والفلاح، وحصول الخيبة والخسار. فعياذا بالله من كل سبب يبعد عن رحمته. تفسير السعدي (ص: ١٩٣-١٩٤).

(يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا):

سبب النزول: عن ابن عباس رضي الله عنهما: {ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا}، (كان رجل في غنيمة له فلحقه المسلمون، فقال: السلام عليكم، فقتلوه وأخذوا غنيمته، فأنزل الله في ذلك إلى قوله: {تبتغون عرض الحياة الدنيا} تلك: الغنيمة. صحيح البخاري (٦/ ٤٧)، صحيح مسلم (٤/ ٢٣١٩).

وقال البغوي: (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلَم) هكذا قرأ أهل المدينة وابن عامر وحمزة، أي: المعاذة، وهو قول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وقرأ الآخرون: (السلام)، وهو السلام الذي هو تحية المسلمين؛ لأنه كان قد سلّم عليهم، وقيل: السلم والسلام واحد، أي: لا تقولوا لمن سلّم عليكم لست مؤمنا. تفسير البغوي (١/ ٦٨١).

وقال السعدي: يأمر تعالى عباده المؤمنين إذا خرجوا جهادا في سبيله وابتغاء مرضاته أن يتبينوا ويتثبتوا في جميع أمورهم المشتبهة. فإن الأمور قسمان: واضحة وغير واضحة. فالواضحة البينة لا تحتاج إلى تثبت وتبين، لأن ذلك تحصيل حاصل. وأما الأمور المشكلة غير الواضحة فإن الإنسان يحتاج إلى التثبت فيها والتبين، ليعرف هل يقدم عليها أم لا؟

فإن التثبت في هذه الأمور يحصل فيه من الفوائد الكثيرة، والكف لشرور عظيمة، ما به يُعرف دين العبد وعقله ورزانته، بخلاف المستعجل للأمور في بدايتها قبل أن يتبين له حكمها، فإن ذلك يؤدي إلى ما لا ينبغي، كما جرى لهؤلاء الذين عاتبهم الله في الآية لما لم يتثبتوا وقتلوا من سلّم عليهم. تفسير السعدي (ص: ١٩٤).

(كذلك كنتم من قبل فمنّ الله عليكم فتبيّنوا):

قال السعدي: نظر الكامل لحاله الأولى الناقصة، ومعاملته لمن كان على مثلها بمقتضى ما يعرف من حاله الأولى، ودعاؤه له بالحكمة والموعظة الحسنة من أكبر الأسباب لنفعه وانتفاعه، ولهذا أعاد الأمر بالتبين فقال: {فتبينوا}. تفسير السعدي (ص: ١٩٥).

(لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم):

سبب النزول: عن البراء رضي الله عنه، يقول: لما نزلت: {لا يستوي القاعدون من المؤمنين} دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم زيدا، فجاء بكتف فكتبها، وشكا ابن أم مكتوم ضرارته، فنزلت: {لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر}. صحيح البخاري (٤/ ٢٤)، صحيح مسلم (٣/ ١٥٠٩).

وقال البغوي: اعلم أن الجهاد في الجملة فرض غير أنه ينقسم إلى فرض العين وفرض الكفاية، ففرض العين أن يدخل الكفار دار قوم من المؤمنين، فيجب على كل مكلف من الرجال ممن لا عذر له من أهل تلك البلدة الخروج إلى عدوهم، حرا كان أو عبدا، غنيا كان أو فقيرا، دفعا عن أنفسهم وعن جيرانهم، وهو في حق من بعد منهم من المسلمين فرض على الكفاية، فإن لم يقع الكفاية بمن نزل بهم يجب على من بعد منهم من المسلمين عونهم، وإن وقعت الكفاية بالنازلين بهم فلا فرض على الأبعدين إلا على طريق الاختيار، ولا يدخل في هذا القسم العبيد والفقراء. تفسير البغوي (١/ ٦٨٤-٦٨٥).

وقال ابن تيمية: فأما إذا أراد العدو الهجوم على المسلمين، فإنه يصير دفعه واجبا على المقصودين كلهم وعلى غير المقصودين لإعانتهم، كما قال الله تعالى: {وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على

قوم بينكم وبينهم ميثاق}، وكما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بنصر المسلم... وهذا يجب بحسب الإمكان على كل أحد بنفسه وماله مع القلة والكثرة والمشي والركوب، كما كان المسلمون لما قصدهم العدو عام الخندق لم يأذن الله في تركه لأحد، كما أذن في ترك الجهاد ابتداء لطلب العدو الذي قسمهم فيه إلى قاعد وخارج. بل ذم الذين يستأذنون النبي صلى الله عليه وسلم {يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا} . مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٥٨-٣٥٩).

(فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة):

قال ابن تيمية: قوله: {أعظم درجة} هذا نصب على التمييز: أي درجتهم أعظم درجة وهذا يقتضي تفضيلا مجملا يقال: منزلة هذا أعظم وأكبر، كذلك قوله: {وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما} الآيات؛ ليس المراد به أنهم لم يفضلوا عليهم إلا بدرجة، فإن في الحديث الصحيح الذي يرويه أبو سعيد وأبو هريرة: {إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيله، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض} الحديث، وفي حديث أبي سعيد: {من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا وجبت له الجنة} فعجب لها أبو سعيد، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة في الجنة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض}، فقال: وما هي يا رسول الله؟ قال {الجهاد في سبيل الله} . مجموع الفتاوى (١٤/ ١٢٥).

وقال ابن القيم: القاعد من المجاهدين لضرورة تمنعه من الجهاد له مثل أجر المجاهد، كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إذا مرض العبد أو سافر كتب له من العمل ما كان يعمل صحيحا مقيما)، وقال صلى الله عليه وسلم: (إن بالمدينة أقواما ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا وهم معكم)، قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: (وهم بالمدينة حبسهم العذر)، وعلى هذا فالصواب أن يقال: الآية دلت على أن القاعدين من غير أولى الضرر لا يستوون هم والمجاهدون، وسكت عن القاعدين من أولي الضرر، فلم يدل على حكمهم بطريق منطوقها، ولا يدل مفهومها على مساواتهم للمجاهدين. بل هذا النوع منقسم إلى معذور من أهل الجهاد غلبه عذره وأقعده عنه ونيته جازمة لم يتخلف عنها مقدورها، وإنما أقعده العجز، فهذا الذي تقتضيه أدلة الشرع أن له مثل أجر المجاهد.

وهذا القسم لا يتناوله الحكم بنفي التسوية، وهذا لأن قاعدة الشريعة أن العزم التام إذا اقترن به ما يمكن من الفعل أو مقدمات الفعل نزل صاحبه في الثواب والعقاب منزلة الفاعل التام. طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٣٥٩-٣٦٠).

(وفضّل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما * درجات منه ومغفرة ورحمة):

قال السعدي: تأمل حسن هذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها، فإنه نفى التسوية أولا بين المجاهد وغيره، ثم صرّح بتفضيل المجاهد على القاعد بدرجة، ثم انتقل إلى تفضيله بالمغفرة والرحمة والدرجات. وهذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها عند التفضيل والمدح أو النزول من حالة إلى ما دونها عند القدح والذم أحسن لفظا وأوقع في النفس.

وكذلك إذا فضّل تعالى شيئا على شيء وكل منهما له فضل، احترز بذكر الفضل الجامع للأمرين، لئلا يتوهم أحد ذم المفضَّل عليه، كما قال هنا {وكلا وعد الله الحسنى}. وكما قال تعالى في الآيات المذكورة في الصف في قوله {وبشّر المؤمنين}، وكما في قوله تعالى {لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل} أي: ممن لم يكن كذلك، ثم قال {وكلا وعد الله الحسنى}، وكما قال تعالى {ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما}، فينبغي لمن بحث في التفضيل بين الأشخاص والطوائف والأعمال أن يتفطن لهذه النكتة.

وكذلك لو تكلم في ذم الأشخاص والمقالات ذكر ما تجتمع فيه عند تفضيل بعضها على بعض، لئلا يتوهم أن المفضَّل قد حصل له الكمال، كما إذا قيل: النصارى خير من المجوس، فليقل مع ذلك: وكل منهما كافر. والقتل أشنع من الزنا، وكل منهما معصية كبيرة حرمها الله ورسوله وزجر عنها. تفسير السعدي (ص: ١٩٥).

بسم الله الرحمن الرحيم

العمل بالآيات من سورة النساء ٨٨-٩٦

١- اعلم أن ذنوبك هي التي تحول بينك وبين التوفيق للطاعات، بل قد تكون سببا في وقوعك في مهاوي الردى وصنوف الضلال (والله أركسهم بما كسبوا).

٢- احرص على هداية الناس، واسعَ في ذلك بشتى الوسائل والسبل، وتلطّف في دعوتهم، وأحسن إليهم بقولك وفعلك، واعلم أنك مع ذلك ستجد من يُعرض عن الهداية ويترفّع عنها، فلا تبتئس، ولا تضجر، فإن الهداية بيد الله، ومن يضلل الله فما له من هاد (أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا).

٣- اعلم أن أهل الكفر والنفاق والفسق يودون لو كان الناس كلهم مثلهم في كفرهم ونفاقهم وفسقهم، حتى لا يلومهم أحد على خطئهم، وحتى يجدوا العون على إجرامهم، فاحذر من موالاتهم ومحبتهم حتى لا يقودوك إلى ضلالهم (ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا).

٤- الهجرة في سبيل الله من بلد الكفر إلى بلد الإسلام من علامات الإيمان وأماراته الظاهرة، والمهاجرون في سبيل الله أهل للموالاة والمحبة والنصرة (فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله).

٥- ما أعظم دين الإسلام! يحافظ على العهود والمواثيق حتى مع ألدّ الأعداء ما دام أنهم ملتزمون بعهودهم ومواثيقهم، وينهى عن مقاتلة من اعتزل المسلمين فلم يقاتلهم وألقى إليهم الاستسلام (إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا).

٦- تسليط الكفار على المسلمين من أشد الابتلاءات التي يبتلي الله بها عباده، وغالبا ما يكون ذلك عند انتشار المعاصي والمنكرات في المسلمين، فالحذر الحذر (ولو شاء الله لسلّطهم عليكم فلقاتلوكم).

٧- ينبغي أن يعرف المسلمون صفات المنافقين وكيفية التعامل معهم بما يحقق مصلحة المسلمين، والتفريق بين من كان منهم بين ظهراني المسلمين ومن كان في ديار المشركين، وبين من اعتزل المسلمين فلم يقاتلهم بل سالمهم وبين من كان على ضد ذلك (ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلّما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا).

٨- قتل المؤمن من أعظم الذنوب وأشنعها وأشدّها جُرما وأكبرها عقوبة في الدنيا والآخرة، بل لم يأت في النصوص عقوبة على ذنب أشد من عقوبة قتل المؤمن بغير حق، ولم يجُز قتل المؤمن حتى ولو كان من قوم أعداء، ومن عِظم هذا الذنب جُعل في خطئه كفارة وضمانا، بل جاءت الشريعة بتحريم كل سبب قد يؤدّي إلى قتل المؤمن خطأ، فاحذر أن تقع في هذا الجرم العظيم، واحذر أشد الحذر ممن يسوّغ ذلك بالغلو في تكفير المسلمين أو التساهل في استحلال دمائهم، فالسلامة السلامة، والنجاة النجاة (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلّمة إلى أهله إلا أن يصّدّقوا فإن كان من قوم عدوّ لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلّمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليما حكيما * ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما).

٩- التنازل عن دية المقتول خطأ من أبواب الصدقات، فينبغي الحرص عليها وحث الناس عليها (ودية مسلّمة إلى أهله إلا أن يصّدّقوا).

١٠- يجب أن تعامل الناس بما يظهر منهم، فمن أظهر الإسلام يعامل معاملة المسلمين حتى يظهر منه الكفر، ويجب التبيّن والتثبّت والتأنّي والتحرّي في ذلك، حتى لا تقع في ظلم أحد بقول أو فعل، ولا يجوز أن يكون المكسب الدنيوي والمصلحة العاجلة سببا للعجلة وعدم التأنّي في الحكم على الناس، وأعظم ما يجب التبيّن والتحرّي فيه قضية الدماء (يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة).

١١- إذا كنت على حال سيئة من معصية أو بدعة أو ضلالة ثم منّ الله عليك بالهداية، فاحرص على دعوة من هو واقع في مثل حالتك السابقة، وتلطّف بهم، وانظر إليهم بعين الرحمة، عسى الله أن يهديهم، وإياك والشدة والغلظة والتنفير، وكما منّ الله عليك بالهداية فإنه قادر على هداية غيرك (كذلك كنتم من قبل فمنّ الله عليكم فتبيّنوا إن الله كان بما تعملون خبيرا)

١٢- من كمال عدل الله أنه لا يساوي بين جزاء المحسن بالطاعات والمقصّر فيها، وبين جزاء المتقرّب بالنوافل وتاركها، بل يعطي كل عامل جزاء عمله كاملا موفورا، ولذلك كانت الجنة درجات كثيرة بينها تفاوت كبير، ومن كمال فضله سبحانه أن العاجز عن العمل الصالح الراغب في القيام به يُعطى أجر من عمله كاملا موفورا (لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى).

١٣- الجهاد في سبيل الله بضوابطه الشرعية وأصوله المرعية من أفضل الطاعات، بل هو ذروة سنام الإسلام، وصاحبه موعود بالأجر العظيم، والدرجات العليا من الجنة، ومغفرة الذنوب، ورحمة أرحم الراحمين، وليس هو الجهاد المزعوم الذي تقوم به التنظيمات المتطرفة والأحزاب المنحرفة، فإذا تهيّأ لك مجال للجهاد الشرعي في سبيل الله بنفسك فأحسن فيه، وأخلص لله فيه، وأبشر بالخير الكبير والأجر العظيم، وإن لم يتيسّر لك الجهاد بنفسك فلا أقل من أن تجاهد بمالك، فتنفق في وجوه الخير والبر والإحسان المتنوّعة (وفضّل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما ❊ درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما).

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة النساء (٩٧-١٠٤) من التفسير الميسّر

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧)

إن الذين توفَّاهم الملائكة وقد ظلموا أنفسهم بقعودهم في دار الكفر وترك الهجرة، تقول لهم الملائكة توبيخًا لهم: في أي شيء كنتم من أمر دينكم؟ فيقولون: كنا ضعفاء في أرضنا، عاجزين عن دفع الظلم والقهر عنا، فيقولون لهم توبيخا: ألم تكن أرض الله واسعة فتخرجوا من أرضكم إلى أرض أخرى بحيث تأمنون على دينكم؟ فأولئك مثواهم النار، وقبح هذا المرجع والمآب.

إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨)

ويعذر من ذاك المصير العجزة من الرجال والنساء والصغار الذين لا يقدرون على دفع القهر والظلم عنهم، ولا يعرفون طريقًا يخلصهم مما هم فيه من المعاناة.

فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩)

فهؤلاء الضعفاء هم الذين يُرجى لهم من الله تعالى العفو؛ لعلمه تعالى بحقيقة أمرهم. وكان الله كثير العفو يتجاوز عن سيئاتهم، ويسترها عليهم.

وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٠)

ومَن يخرج من أرض الشرك إلى أرض الإسلام فرارًا بدينه، راجيًا فضل ربه، قاصدًا نصرة دينه، يجد في الأرض مكانًا ومتحولا ينعم فيه بما يكون سببًا في قوته وذلة أعدائه، مع السعة في رزقه وعيشه، ومن يخرج من بيته قاصدًا نصرة دين الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وإعلاء كلمة الله، ثم يدركه الموت قبل بلوغه مقصده، فقد ثبت له جزاء عمله على الله، فضلا منه وإحسانًا. وكان الله غفورًا رحيمًا بعباده.

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا (١٠١)

وإذا سافرتم -أيها المؤمنون- في أرض الله، فلا حرج ولا إثم عليكم في قصر الصلاة إن خفتم من عدوان الكفار عليكم في حال صلاتكم، وكانت غالب أسفار المسلمين في بدء الإسلام مخوفة، والقصر رخصة في السفر حال الأمن أو الخوف. إن الكافرين مجاهرون لكم بعداوتهم، فاحذروهم.

وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١٠٢)

وإذا كنت -أيها النبي- في ساحة القتال، فأردت أن تصلي بهم، فلتقم جماعة منهم معك للصلاة، وليأخذوا سلاحهم، فإذا سجد هؤلاء فلتكن الجماعة الأخرى من خلفكم في مواجهة عدوكم، وتتم الجماعة الأولى ركعتهم الثانية ويُسلِّمون، ثم تأتي الجماعة الأخرى التي لم تبدأ الصلاة فليأتموا بك في ركعتهم الأولى، ثم يكملوا بأنفسهم ركعتهم الثانية، وليحذروا مِن عدوهم وليأخذوا أسلحتهم. ودَّ الجاحدون لدين الله أن تغفُلوا عن سلاحكم وزادكم؛ ليحملوا عليكم حملة واحلة فيقضوا عليكم، ولا إثم عليكم حينئذ إن كان بكم أذى من مطر، أو كنتم في حال مرض، أن تتركوا أسلحتكم، مع أخذ الحذر. إن الله تعالى أعدَّ للجاحدين لدينه عذابًا يهينهم، ويخزيهم.

فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا (١٠٣)

فإذا أدَّيتم الصلاة، فأديموا ذكر الله في جميع أحوالكم، فإذا زال الخوف فأدُّوا الصلاة كاملة، ولا تفرِّطوا فيها فإنها واجبة في أوقات معلومة في الشرع.

وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٠٤)

ولا تضعفوا في طلب عدوكم وقتاله، إن تكونوا تتألمون من القتال وآثاره، فأعداؤكم كذلك يتألمون منه أشد الألم، ومع ذلك لا يكفون عن قتالكم، فأنتم أولى بذلك منهم، لما ترجونه من الثواب والنصر والتأييد، وهم لا يرجون ذلك. وكان الله عليمًا بكل أحوالكم، حكيمًا في أمره وتدبيره.

بسم الله الرحمن الرحيم

معاني كلمات سورة النساء (٩٧-١٠٤)

الكلمة	المعنى
فيمَ كُنتُم	في أي شيء كنتم إذ لم تهاجروا؟
مُراغَمًا	مكانا يَتحوّل إليه
ضربتم في الأرض	سافرتم
أن يفتنكم	أن يعتدي عليكم
ميلة واحدة	حملة واحدة حتى يستأصلوكم
وعلى جُنوبكم	ومضطجعين
كتابا موقوتا	فرضا واجبا في أوقات محددة
ولا تَهِنُوا	ولا تضعفوا
ابتغاءِ القوم	طلبِ عدوكم

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقف والابتداء في سورة النساء ٩٧-١٠٤

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذه الفقرة المتعلقة بالوقف والابتداء في الآيات من سورة النساء من الآية السابعة والتسعين وحتى الآية الرابعة بعد المائة.

أبدأ بالآية الأولى وهي قول الله تعالى: (إن الذين توفّاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه بعض علماء الوقف والابتداء، ووجهه: أن قول الملائكة لهم قد انتهى هنا، ثم ابتدأ جوابهم عن سؤال الملائكة لهم في قوله: (قالوا كنا مستضعفين في الأرض).

وهل يصح الوقف على قوله: (قالوا كنا مستضعفين في الأرض)؟

الجواب: نعم، نص عليه بعض علماء الوقف والابتداء، ووجهه: أن جواب الذين ظلموا أنفسهم على سؤال الملائكة قد انتهى هنا، ثم جاء قولٌ آخر للملائكة واستفهامٌ آخر في قوله: (قالوا ألم تكن أرض الله واسعة) فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (قالوا ألم تكن أرض الله واسعةً فتهاجروا فيها)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، لأن الاستفهام وجوابه قد انتهى هنا، الاستفهام في قوله: (ألم تكن أرض الله واسعةً)، وجوابه (فتهاجروا فيها)، وانتهى معه قول الملائكة وسؤالهم، ثم بدأ الله بذكر مصيرهم فقال: (فأولئك مأواهم جهنم) فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (فأولئك مأواهم جهنم)؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، ولم ينص عليه البعض الآخر، وإذا تأملنا فإن قوله: (وساءت مصيرًا) بعد هذه الجملة هي جملةٌ فعليةٌ، لكنها تضمنت ضميرًا يعود على جهنم، وذلك في ضمير المؤنث (وساءت)، فمن نظر إلى هذه النظرة منع من الوقف هنا، ومن نظر الى أن الجملة الفعلية في قوله (وساءت مصيرا) جملة مستأنفة بعد انتهاء الجملة الاسمية في قوله: (فأولئك مأواهم جهنم) صحح الوقف هنا، والأمر في هذا محتملٌ، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله: (لا يستطيعون حيلةً) هو من بيان حال هؤلاء المستضعفين، فحالهم أنهم لا يستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيلاً، لذلك لم يكونوا مؤاخذين بتركهم الهجرة، والله أعلم.

الآية التي تليها: (فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه: أن الجملة الأولى قد انتهت هنا، ثم جاءت جملةٌ مستأنفةٌ مبدوءةٌ بـ (كان) في قوله (وكان الله عفوًّا غفورًا)، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

الآية التي تليها: (ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغمًا كثيرًا وسعةً) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه: أن جملة الشرط المبدوءة بقوله (ومن يهاجر) قد انتهت هنا، ثم جاءت جملةٌ شرطيةٌ أخرى في قوله (ومن يخرج من بيته)، وقد تضمنت هذه الجملة الشرطية الجديدة حكمًا جديدًا لحالةٍ أخرى، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ومن يخرج من بيته مهاجرًا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت)؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن جواب الشرط لم يأت بعد، فجواب الشرط في قوله (فقد وقع أجره على الله)، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فقد وقع أجره على الله)؟

الجواب: نعم، نص عليه بعض علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة الشرط قد انتهت هنا، ثم جاءت جملةٌ مستأنفةٌ مبدوءةٌ بـ (كان) في قوله (وكان الله غفورًا رحيمًا)، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناحٌ أن تقصروا من الصلاة) هل يصح الوقف هنا؟

نص السجاوندي على أنه قد قيل بالوقف هنا، ولم ينص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ومن قال بالوقف هنا فإنما نظر إلى أن الشرط في قوله (إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا) شرطٌ لصلاة الخوف المذكورة في الآية التالية، وليس شرطًا لقصر الصلاة، وهذا فيه تكلفٌ شديدٌ، والأصح أن قوله (إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا) شرط تغليبٍ لقصر الصلاة في السفر، فإنه كان غالب حال المسلمين في بادئ الأمر أن سفرهم كان مخوفًا، لأن أهل الشرك والكفر كانوا يترصدونهم في كل حينٍ وآنٍ، وبالتالي لا وقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا)؟

الجواب: نعم، ووجهه: أن جملة الشرط وما اتصل بها قد انتهت هنا، ثم جاءت جملةٌ مستأنفةٌ مبدوءةٌ بـ (إنّ) في قوله (إنّ الكافرين كانوا لكم عدوًّا مبينًا) فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفةٌ منهم معك) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله بعدها (وليأخذوا أسلحتهم) معطوفٌ على جواب الشرط في قوله (فلتقم)، وهو مرتبطٌ به ارتباطًا وثيقًا، لأنه من تتمة ما يجب عليهم فعله، يعني يجب عليهم أن تقوم طائفةٌ منهم معك وأن يأخذوا أسلحتهم، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وليأخذوا أسلحتهم)؟

جعل الأشموني الوقف هنا حسنًا، وجعله الأنصاري مفهومًا، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن جملة (إذا) في قوله (وإذا كنت فيهم) قد انتهت هنا، وانتهى معها ما اتصل بها من العطف، ثم جاءت جملة شرطٍ أخرى في قوله (فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم)، لكنها تضمنت فاءً عاطفةً مكمّلةً لبيان صفة صلاة الخوف، وهذه هي نظرة من منع من الوقف إلى نهاية صفة الصلاة في قوله (وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم)، فمنعوا من الوقف قبل ذلك، لأنه كله من تتمة صفة الصلاة، لكن قد يقال: إنه وإن كان من تتمة صفة الصلاة إلا أنه جاء في جملٍ قائمةٍ بنفسها، والوقف عليها من قبيل الوقف الذي يصح مع أولوية الوصل، فقد يكون هذا أقرب للصواب وألطف بالقارئ، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم)؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة (إذا) المتضمنة معنى الشرط قد انتهت هنا، ثم جاءت جملة أمرٍ جديدة متضمنة بيان ما تفعله الطائفة الأخرى حين قال (ولتأت طائفةٌ أخرى لم يصلوا فليصلوا معك)، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فليصلوا معك)؟

الجواب: لا يصح، لأن ما بعده معطوفٌ عليه، وهو من تتمة ما يجب عليهم فعله، قال (فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم)، فهم مأمورون بالأمرين معًا، فلم يصح الفصل بينهما، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن صفة صلاة الخوف قد انتهت هنا، ثم جاءت جملةٌ فعليةٌ مستأنفةٌ لبيان حال الكفار حين مقاتلتهم المسلمين في قوله (ودّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم) فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فيميلون عليكم ميلةً واحدةً)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة الفعلية المتضمنة ذكر ما يود أن يفعله الكفار قد انتهت هنا، ثم جاءت جملةٌ جديدةٌ تضمنت الحكم في حالةٍ أخرى، وهي حالة إن كان بهم أذًى من مطرٍ أو مرضٍ في قوله تعالى (ولا جناح عليكم إن كان بكم أذًى من مطرٍ أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم) فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (أن تضعوا أسلحتكم)؟

جوز الوقف هنا السجاوندي وحده دون غيره من علماء الوقف والابتداء، ووضعت علامة الوصل أولى هنا في مصحف المدينة، وإذا تأملنا هنا فإن قوله تعالى (وخذوا حذركم) جملةٌ مستأنفةٌ غير مرتبطةٌ بقوله (ولا جناح عيكم)، بدليل أن قوله (أن تضعوا أسلحتكم) مرتبطٌ برفع الجناح، فلا جناح عليهم إذا كان بهم أذًى من مطرٍ أو كانوا مرضى أن يضعوا أسلحتهم، والله سبحانه لم يقل بعدها: وتأخذوا حذركم عطفًا على (تضعوا أسلحتكم)، بل قال (وخذوا حذركم)، فابتدأ فعل أمرٍ جديدٍ لا ارتباط له بالجملة السابقة وبرفع الجناح، فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وخذوا حذركم)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الأمر قد انتهى هنا، ثم جاءت جملةٌ مستأنفةٌ مبدوءةٌ بـ (إنّ) في قوله (إنّ الله أعدّ للكافرين عذابًا مهينًا) فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبكم) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن (إذا) الشرطية الأولى قد انتهت هنا، (فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبكم)، ثم جاءت جملةٌ شرطيةٌ أخرى مبدوءةٌ بـ (إذا) في قوله (فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة)، فصح الفصل بينهما لاختلاف الحالتين، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جمة (إذا) المتضمنة معنى الشرط قد انتهت هنا، ثم جاءت جملةٌ مستأنفةٌ مبدوءةٌ بـ (إنّ) في قوله (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابًا موقوتًا) فصح الفصل بينهما، والله تعالى أعلم.

الآية الأخيرة: (ولا تهنوا في ابتغاء القوم) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن جملة النهي قد انتهت هنا، ثم جاءت جملةٌ شرطيةٌ لكنها تضمنت ما يحثهم على اجتناب هذا المنهي عنه، وذلك في قوله (إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون)، فمن نظر إلى ارتباط هذه الجملة بالنهي لم يصحح الوقف هنا، ومن نظر إلى أنها جملةٌ شرطيةٌ قائمةٌ بنفسها بعد انتهاء نهيٍ قائمٍ بنفسه صحح الوقف هنا، والأمر في هذا محتملٌ، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون)؟

جوز الوقف هنا السجاوندي وحسنه الأشموني، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن قوله بعدها (وترجون من الله ما لا يرجون) يحتمل أن يكون مستأنفًا غير متعلقٍ بقوله (إن تكونوا)، ويحتمل أن يكون حالاً، يعني: والحال أنكم ترجون من الله ما لا يرجون، فالله سبحانه وتعالى بعد أن ذكر أنهم متساوون في الألم ذكّرهم بأنهم يرجون من الله من الثواب والنصر ما لا يرجوه الكفار، فمن نظر إلى هذا لم يصحح الوقف هنا، ومن نظر إلى احتمال كونه مستأنفًا صحح الوقف هنا، والأمر في هذا محتملٌ، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وترجون من الله ما لا يرجون)؟

الجواب: نعم، نص عليه بعض علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة قد انتهت هنا، ثم جاءت جملة مستأنفةٌ مبدوءةٌ بـ (كان) في قوله (وكان الله عليمًا حكيمًا)، فصح الفصل بينهما، والله تعالى أعلم.

هذا آخر ما في هذا المقطع، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يعلّمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علّمنا، وأن يزيدنا علمًا وعملاً وهدًى وتقًى، والله تعالى أعلم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله الرحمن الرحيم

فوائد ولطائف سورة النساء ٩٧-١٠٤

(إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض):

سبب النزول: عن ابن عباس قال: كان قوم من أهل مكة أسلموا، وكانوا يستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم، فأصيب بعضهم، فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين، وأكرهوا، فاستغفروا لهم، فنزلت: (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم) الآية، قال: فكتب إلى من بقي بمكة من المسلمين بهذه الآية، لا عذر لهم. قال: فخرجوا فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة، فنزلت فيهم: (ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله...) إلى آخر الآية، فكتب المسلمون إليهم بذلك، فحزنوا وأيسوا من كل خير، ثم نزلت فيهم: (إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم)، فكتبوا إليهم بذلك: إن الله قد جعل لكم مخرجا، فخرجوا فأدركهم المشركون، فقاتلوهم حتى نجا من نجا، وقتل من قتل. تفسير الطبري (٩/ ١٠٢-١٠٣).

عن قتادة قوله: (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم) الآية، حُدّثنا أن هذه الآية أنزلت في أناس تكلموا بالإسلام من أهل مكة، فخرجوا مع عدو الله أبي جهل، فقتلوا يوم بدر، فاعتذروا بغير عذر، فأبى الله أن يقبل منهم. تفسير الطبري (٩/ ١٠٧).

وقال البغوي: الله تعالى لم يكن يقبل الإسلام بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلا بالهجرة، ثم نسخ بعد فتح مكة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا هجرة بعد الفتح»... (قالوا فيم كنتم) أي: في ماذا كنتم؟ أو في أي الفريقين كنتم؟ أفي المسلمين؟ أم في المشركين؟ سؤال توبيخ وتعيير، فاعتذروا بالضعف عن مقاومة أهل الشرك، (قالوا كنا مستضعفين) عاجزين، (في الأرض) يعني أرض مكة، (قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) يعني إلى المدينة، وتخرجوا من مكة من بين أهل الشرك؟ فأكذبهم الله تعالى وأعلمنا بكذبهم. تفسير البغوي (١/ ٦٨٥).

وقال ابن كثير: نزلت هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين، وهو قادر على الهجرة، وليس متمكنا من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه مرتكب حراما بالإجماع، وبنص هذه الآية. تفسير ابن كثير (٢/ ٣٨٩).

(قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها):

قال السعدي: قالت لهم الملائكة: {ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها} وهذا استفهام تقرير، أي: قد تقرر عند كل أحد أن أرض الله واسعة، فحيثما كان العبد في محل لا يتمكن فيه من إظهار دينه، فإن له متسعا وفسحة من الأرض يتمكن فيها من عبادة الله، كما قال تعالى: {يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون}، قال الله عن هؤلاء الذين لا عذر لهم: {فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا} وهذا كما تقدم، فيه ذكر بيان السبب الموجب، فقد يترتب عليه مقتضاه، مع اجتماع شروطه وانتفاء موانعه، وقد يمنع من ذلك مانع. تفسير السعدي (ص: ١٩٥).

وقال السعدي: وفي الآية دليل على أن الهجرة من أكبر الواجبات، وتركها من المحرمات، بل من الكبائر.

وفي الآية دليل على أن كل من توفي فقد استكمل واستوفى ما قدر له من الرزق والأجل والعمل، وذلك مأخوذ من لفظ (التوفي) فإنه يدل على ذلك، لأنه لو بقي عليه شيء من ذلك لم يكن متوفيا.

وفيه الإيمان بالملائكة ومدحهم، لأن الله ساق ذلك الخطاب لهم على وجه التقرير والاستحسان منهم، وموافقته لمحله. تفسير السعدي (ص: ١٩٦).

(إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا):

قال ابن تيمية: ليس كل ما يسمى في اللغة حيلة أو يسميه بعض الناس حيلة، أو يسمونه آلة - مثل الحيلة المحرمة - حراما، فإن الله سبحانه قال في تنزيله: {إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا}، فلو احتال المؤمن المستضعف على التخلص من بين الكفار لكان محمودا في ذلك، ولو احتال مسلم على هزيمة الكافر، كما فعل نُعيم بن مسعود يوم الخندق، أو على

أخذ ماله منهم، كما فعل الحجاج بن علاطة، وعلى قتل عدو لله ولرسوله، كما فعل النفر الذين احتالوا على ابن أبي الحقيق اليهودي، وعلى قتل كعب بن الأشرف، إلى غير ذلك لكان محمودا أيضا، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الحرب خدعة». وكان إذا أراد غزوة ورّى بغيرها، وللناس في التلطف وحسن التحيل على حصول ما فيه رضا الله ورسوله، أو دفع ما يكيد الإسلام وأهله سعي مشكور. الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٦/ ١٠٦).

وقال السعدي: وفي الآية الكريمة دليل على أن من عجز عن المأمور من واجب وغيره فإنه معذور، كما قال تعالى في العاجزين عن الجهاد: {ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج} وقال في عموم الأوامر: {فاتقوا الله ما استطعتم}. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم)، ولكن لا يعذر الإنسان إلا إذا بذل جهده وانسدت عليه أبواب الحيل، لقوله: {لا يستطيعون حيلة} وفي الآية تنبيه على أن الدليل في الحج والعمرة ونحوهما مما يحتاج إلى سفر من شروط الاستطاعة. تفسير السعدي (ص: ١٩٦).

(فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا):

قال البغوي: (فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم) يتجاوز عنهم، وعسى من الله واجب، لأنه للإطماع، والله تعالى إذا أطمع عبدا أوصله إليه... قال ابن عباس رضي الله عنهما: كنت أنا وأمي ممن عذر الله، يعني المستضعفين، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو لهؤلاء المستضعفين في الصلاة. تفسير البغوي (١/ ٦٨٦).

(ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة):

قال الطبري: قد يدخل في "السعة"، السعة في الرزق، والغنى من الفقر، ويدخل فيه: السعة من ضيق الهم والكرب الذي كان فيه أهل الإيمان بالله من المشركين بمكة، وغير ذلك من معاني "السعة"، التي هي بمعنى الروح والفرج من مكروه ما كره الله للمؤمنين بمقامهم بين ظهري المشركين وفي سلطانهم. تفسير الطبري (٩/ ١٢٢).

وقال ابن القيم: ولا شيء أحب إلى الله من مراغمة وليه لعدوه، وإغاظته له، وقد أشار سبحانه إلى هذه العبودية في مواضع من كتابه: أحدها: قوله {ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة} سمى المهاجر الذي يهاجر إلى عبادة الله مراغما يراغم به عدو الله وعدوه، والله يحب من وليه مراغمة عدوه وإغاظته، كما قال تعالى: {ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين}، وقال تعالى في مثَل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتباعه {ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار}، فمغايظة الكفار غاية محبوبة للرب مطلوبة له، فموافقته فيها من كمال العبودية، وشرع النبي صلى الله عليه وسلم للمصلي إذا سها في صلاته سجدتين، وقال: «إن كانت صلاته تامة كانتا ترغمان أنف الشيطان»، وفي رواية: «ترغيما للشيطان»، وسماها المرغمتين.

فمن تعبد لله بمراغمة عدوه، فقد أخذ من الصديقية بسهم وافر، وعلى قدر محبة العبد لربه وموالاته ومعاداته لعدوه يكون نصيبه من هذه المراغمة، ولأجل هذه المراغمة حُمد التبختر بين الصفين، والخيلاء والتبختر عند صدقة السر، حيث لا يراه إلا الله، لما في ذلك من إرغام العدو، وبذل محبوبه من نفسه وماله لله عز وجل. وهذا باب من العبودية لا يعرفه إلا القليل من الناس، ومن ذاق طعمه ولذته بكى على أيامه الأول. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ٢٤١).

وقال السعدي: وعد الصادق في وعده أن من هاجر في سبيله ابتغاء مرضاته، أنه يجد مراغما في الأرض وسعة، فالمُراغَم مشتمل على مصالح الدين، والسعة على مصالح الدنيا.

وذلك أن كثيرا من الناس يتوهم أن في الهجرة شتاتا بعد الألفة، وفقرا بعد الغنى، وذلا بعد العز، وشدة بعد الرخاء. والأمر ليس كذلك، فإن المؤمن ما دام بين أظهر المشركين فدينه في غاية النقص، لا في العبادات القاصرة عليه كالصلاة ونحوها، ولا في العبادات المتعدية كالجهاد بالقول والفعل وتوابع ذلك، لعدم تمكنه من ذلك، وهو بصدد أن يفتن عن دينه، خصوصا إن كان مستضعفا. فإذا هاجر في

سبيل الله تمكن من إقامة دين الله وجهاد أعداء الله ومراغمتهم، فإن المراغمة اسم جامع لكل ما يحصل به إغاظة لأعداء الله من قول وفعل، وكذلك ما يحصل له سعة في رزقه، وقد وقع كما أخبر الله تعالى.

واعتبر ذلك بالصحابة رضي الله عنهم فإنهم لما هاجروا في سبيل الله وتركوا ديارهم وأولادهم وأموالهم لله، كمل بذلك إيمانهم، وحصل لهم من الإيمان التام والجهاد العظيم والنصر لدين الله، ما كانوا به أئمة لمن بعدهم، وكذلك حصل لهم مما يترتب على ذلك من الفتوحات والغنائم، ما كانوا به أغنى الناس، وهكذا كل من فعل فعلهم، حصل له ما حصل لهم إلى يوم القيامة. تفسير السعدي (ص: ١٩٦).

(ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله):

سبب النزول: عن قتادة قال: لما نزلت: (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم...) الآية، قال رجل من المسلمين يومئذ وهو مريض: والله ما لي من عذر، إني لدليل بالطريق، وإني لموسر، فاحملوني، فحملوه، فأدركه الموت بالطريق، فنزل فيه: (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله...). تفسير الطبري (٩/ ١١٥).

وقال ابن كثير: {ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله} أي: ومن خرج من منزله بنية الهجرة، فمات في أثناء الطريق، فقد حصل له من الله ثواب من هاجر، كما ثبت في... الصحيحين في الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفسا. ثم أكمل بذلك العابد المائة، ثم سأل عالما: هل له من توبة؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة؟ ثم أرشده إلى أن يتحول من بلده إلى بلد آخر يعبد الله فيه، فلما ارتحل من بلده مهاجرا إلى البلد الآخر، أدركه الموت في أثناء الطريق، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقال هؤلاء: إنه جاء تائبا. وقال هؤلاء: إنه لم يَصِل بعد. فأُمروا أن يقيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أقرب كان منها، فأمر الله هذه أن يقرب من هذه، وهذه أن تبعد، فوجدوه أقرب إلى الأرض التي هاجر إليها بشبر، فقبضته ملائكة الرحمة. وفي رواية: أنه لما جاءه الموت ناء بصدره إلى الأرض التي هاجر إليها. تفسير ابن كثير (٢/ ٣٩١-٣٩٢).

وقال الألوسي: المهاجر له إحدى الحسنيين: إما أن يرغم أنف أعداء الله ويذلهم بسبب مفارقته لهم واتصاله بالخير والسعة، وإما أن يدركه الموت ويصل إلى السعادة الحقيقية والنعيم الدائم. روح المعاني (٣/ ١٢٤).

(وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا):

قال الطبري: عن علي قال: سأل قوم من التجار رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله، إنا نضرب في الأرض، فكيف نصلي؟ فأنزل الله: (وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة)، ثم انقطع الوحي. فلما كان بعد ذلك بحول، غزا النبي صلى الله عليه وسلم فصلى الظهر، فقال المشركون: لقد أمكنكم محمد وأصحابه من ظهورهم، هلا شددتم عليهم؟ فقال قائل منهم: إن لهم أخرى مثلها في إثرها! فأنزل الله تبارك وتعالى بين الصلاتين: (إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك) إلى قوله: (إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا)، فنزلت صلاة الخوف.

وهذا تأويل للآية حسن، لو لم يكن في الكلام (إذا)، و(إذا) تؤذن بانقطاع ما بعدها عن معنى ما قبلها. ولو لم يكن في الكلام (إذا) كان معنى الكلام على هذا التأويل... إن خفتم أيها المؤمنون، أن يفتنكم الذين كفروا في صلاتكم، وكنت فيهم يا محمد، فأقمت لهم الصلاة (فلتقم طائفة منهم معك) الآية. تفسير الطبري (٩/ ١٢٦-١٢٧).

وقال البغوي: اعلم أن قصر الصلاة في السفر جائز بإجماع الأمة، واختلفوا في جواز الإتمام، فذهب أكثرهم إلى أن القصر واجب... لما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: الصلاة أول ما فرضت ركعتين، فأقرّت صلاة السفر وأتمت صلاة الحضر. وذهب قوم إلى جواز الإتمام... عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: كل ذلك قد فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، قصر الصلاة وأتم. وظاهر القرآن يدل على ذلك لأن الله تعالى قال: (فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة)، ولفظ: فلا جناح إنما يستعمل في الرخص لا فيما يكون حتما. تفسير البغوي (١/ ٦٨٧-٦٨٨).

وقال البغوي: واختلف أهل العلم في مسافة القصر، فقالت طائفة: يجوز القصر في السفر الطويل والقصير، روي ذلك عن أنس رضي الله عنه... أما عامة الفقهاء فلا يجوزون القصر في السفر القصير، واختلف في حد ما يجوز فيه القصر، فقال الأوزاعي: مسيرة يوم، وكان ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهما يقصران ويفطران في أربعة برد، وهي ستة عشر فرسخا، وإليه ذهب مالك وأحمد وإسحاق، وقول الحسن والزهري قريب من ذلك، فإنهما قالا: مسيرة يومين، وإليه ذهب الشافعي رضي الله عنه، قال: مسيرة ليلتين قاصدتين، وقال في موضع: ستة وأربعون ميلا بالهاشمي، وقال سفيان الثوري وأصحاب الرأي: مسيرة ثلاثة أيام. تفسير البغوي (١/ ٦٨٩).

وقال السعدي: ظاهر الآية أنه يقتضي الترخص في أي سفر كان ولو كان سفر معصية، كما هو مذهب أبي حنيفة رحمه الله، وخالف في ذلك الجمهور، وهم الأئمة الثلاثة وغيرهم، فلم يجوّزوا الترخص في سفر المعصية، تخصيصا للآية بالمعنى والمناسبة، فإن الرخصة سهولة من الله لعباده إذا سافروا أن يقصروا ويفطروا، والعاصي بسفره لا يناسب حاله التخفيف. تفسير السعدي (ص: ١٩٧)

وقال السعدي: {فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة} أي: لا حرج ولا إثم عليكم في ذلك، ولا ينافي ذلك كون القصر هو الأفضل، لأن نفي الحرج إزالة لبعض الوهم الواقع في كثير من النفوس، بل ولا ينافي الوجوب، كما تقدم ذلك في سورة البقرة في قوله: {إن الصفا والمروة من شعائر الله} إلى آخر الآية. وإزالة الوهم في هذا الموضع ظاهرة، لأن الصلاة قد تقرر عند المسلمين وجوبها على هذه الصفة التامة، ولا يزيل هذا عن نفوس أكثرهم إلا بذكر ما ينافيه. ويدل على أفضلية القصر على الإتمام أمران:
أحدهما: ملازمة النبي صلى الله عليه وسلم القصر في جميع أسفاره.
والثاني: أن هذا من باب التوسعة والترخيص والرحمة بالعباد، والله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته. تفسير السعدي (ص: ١٩٧).

وقال السعدي: {أن تقصروا من الصلاة} ولم يقل: أن تقصروا الصلاة، فيه فائدتان:

إحداهما: أنه لو قال أن تقصروا الصلاة لكان القصر غير منضبط بحد من الحدود، فربما ظُن أنه لو قصر معظم الصلاة وجعلها ركعة واحدة لأجزأ، فإتيانه بقوله: {من الصلاة} ليدل ذلك على أن القصر محدود مضبوط، مرجوع فيه إلى ما تقرر من فعل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

الثانية: أن {مِن} تفيد التبعيض، ليُعلم بذلك أن القصر لبعض الصلوات المفروضات لا جميعها، فإن الفجر والمغرب لا يُقصران، وإنما الذي يقصر الصلاة الرباعية من أربع إلى ركعتين.

فإذا تقرر أن القصر في السفر رخصة، فاعلم أن المفسرين قد اختلفوا في هذا القيد، وهو قوله: {إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا} الذي يدل ظاهره أن القصر لا يجوز إلا بوجود الأمرين كليهما، السفر مع الخوف.

ويرجع حاصل اختلافهم إلى أنه هل المراد بقوله: {أن تقصروا} قصر العدد فقط؟ أو قصر العدد والصفة؟ فالإشكال إنما يكون على الوجه الأول.

وقد أشكل هذا على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حتى سأل عنه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله ما لنا نقصر الصلاة وقد أمنّا؟ أي: والله يقول: {إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا} فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته)، أو كما قال.

فعلى هذا يكون هذا القيد أتى به نظرا لغالب الحال التي كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه عليها، فإن غالب أسفاره أسفار جهاد.

وفيه فائدة أخرى وهي بيان الحكمة والمصلحة في مشروعية رخصة القصر، فبين في هذه الآية أنها ما يتصور من المشقة المناسبة للرخصة، وهي اجتماع السفر والخوف، ولا يستلزم ذلك أن لا يقصر مع السفر وحده، الذي هو مظنة المشقة.

وأما على الوجه الثاني، وهو أن المراد بالقصر: قصر العدد والصفة فإن القيد على بابه، فإذا وجد السفر والخوف، جاز قصر العدد وقصر الصفة، وإذا وجد السفر وحده جاز قصر العدد فقط، أو الخوف وحده جاز قصر الصفة، ولذلك أتى بصفة صلاة الخوف بعدها. تفسير السعدي (ص: ١٩٧).

(وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم):

سبب النزول: عن مجاهد: (فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة)، قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بعسفان، والمشركون بضجنان، فتواقفوا، فصلى النبي صلى الله عليه وسلم بأصحابه صلاة الظهر ركعتين، ركوعهم وسجودهم وقيامهم جميعا، فهمّ بهم المشركون أن يغيروا على أمتعتهم وأثقالهم، فأنزل الله تبارك وتعالى: (فلتقم طائفة منهم معك)، فصلى بهم صلاة العصر، فصف أصحابَه صفين، ثم كبر بهم جميعا، ثم سجد الأولون لسجوده، والآخرون قيام لم يسجدوا، حتى قام النبي صلى الله عليه وسلم، ثم كبر بهم وركعوا جميعا، فتقدم الصف الآخر واستأخر الصف المقدم، فتعاقبوا السجود كما دخلوا أول مرة، وقصرت صلاة العصر إلى ركعتين. تفسير الطبري (٩/ ١٣١).

وقال ابن كثير: صلاة الخوف أنواع كثيرة، فإن العدو تارة يكون تجاه القبلة، وتارة يكون في غير صوبها، والصلاة تارة تكون رباعية، وتارة ثلاثية كالمغرب، وتارة ثنائية كالصبح وصلاة السفر، ثم تارة يصلون جماعة، وتارة يلتحم الحرب فلا يقدرون على الجماعة، بل يصلون فرادى مستقبلي القبلة وغير مستقبليها، ورجالا وركبانا، ولهم أن يمشوا والحالة هذه، ويضربوا الضرب المتتابع في متن الصلاة. ومن العلماء من قال: يصلون والحالة هذه ركعة واحدة. تفسير ابن كثير (٢/ ٣٩٨).

وقال ابن القيم: وكان من هديه صلى الله عليه وسلم في صلاة الخوف أن أباح الله سبحانه وتعالى قصر أركان الصلاة وعددها إذا اجتمع الخوف والسفر، وقصر العدد وحده إذا كان سفر لا خوف معه، وقصر الأركان وحدها إذا كان خوف لا سفر معه، وهذا كان من هديه صلى الله عليه وسلم، وبه تعلم الحكمة في تقييد القصر في الآية بالضرب في الأرض والخوف.

وكان من هديه صلى الله عليه وسلم في صلاة الخوف، إذا كان العدو بينه وبين القبلة، أن يصفَّ المسلمين كلَّهم خلفه، ويكبر ويكبرون جميعا، ثم يركع فيركعون جميعا، ثم يرفع ويرفعون جميعا معه، ثم ينحدر بالسجود والصف الذي يليه خاصة، ويقوم الصف المؤخر مواجه العدو، فإذا فرغ من الركعة الأولى، ونهض إلى الثانية، سجد الصف المؤخر بعد قيامه سجدتين، ثم قاموا، فتقدموا إلى مكان الصف الأول، وتأخر الصف الأول مكانهم لتحصل فضيلة الصف الأول للطائفتين، وليدرك الصف الثاني مع

النبي صلى الله عليه وسلم السجدتين في الركعة الثانية، كما أدرك الأول معه السجدتين في الأولى، فتستوي الطائفتان فيما أدركوا معه، وفيما قضوا لأنفسهم، وذلك غاية العدل، فإذا ركع صنع الطائفتان كما صنعوا أول مرة، فإذا جلس للتشهد، سجد الصف المؤخر سجدتين، ولحقوه في التشهد، فيسلم بهم جميعا.

وإن كان العدو في غير جهة القبلة، فإنه كان تارة يجعلهم فرقتين: فرقة بإزاء العدو، وفرقة تصلي معه، فتصلي معه إحدى الفرقتين ركعة، ثم تنصرف في صلاتها إلى مكان الفرقة الأخرى، وتجيء الأخرى إلى مكان هذه فتصلي معه الركعة الثانية، ثم تسلم، وتقضي كل طائفة ركعة ركعة بعد سلام الإمام.

وتارة كان يصلي بإحدى الطائفتين ركعة، ثم يقوم إلى الثانية، وتقضي هي ركعة وهو واقف، وتسلم قبل ركوعه، وتأتي الطائفة الأخرى، فتصلي معه الركعة الثانية، فإذا جلس في التشهد قامت فقضت ركعة وهو ينتظرها في التشهد، فإذا تشهدت يسلم بهم.

وتارة كان يصلي بإحدى الطائفتين ركعتين، فتسلم قبله، وتأتي الطائفة الأخرى، فيصلي بهم الركعتين الأخيرتين، ويسلم بهم، فتكون له أربعا، ولهم ركعتين ركعتين.

وتارة كان يصلي بإحدى الطائفتين ركعتين ويسلم بهم، وتأتي الأخرى، فيصلي بهم ركعتين ويسلم، فيكون قد صلى بهم بكل طائفة صلاة.

وتارة كان يصلي بإحدى الطائفتين ركعة، فتذهب ولا تقضي شيئا، وتجيء الأخرى فيصلي بهم ركعة، ولا تقضي شيئا، فيكون له ركعتان، ولهم ركعة ركعة، وهذه الأوجه كلها تجوز الصلاة بها. زاد المعاد في هدي خير العباد (١/ ٥١٠).

وقال السعدي: وهذه الآية تدل على أن صلاة الجماعة فرض عين من وجهين:

أحدهما: أن الله تعالى أمر بها في هذه الحالة الشديدة، وقت اشتداد الخوف من الأعداء وحذر مهاجمتهم، فإذا أوجبها في هذه الحالة الشديدة فإيجابها في حالة الطمأنينة والأمن من باب أولى وأحرى.

والثاني: أن المصلين صلاة الخوف يتركون فيها كثيرا من الشروط واللوازم، ويعفى فيها عن كثير من الأفعال المبطلة في غيرها، وما ذاك إلا لتأكد وجوب الجماعة، لأنه لا تعارض بين واجب ومستحب، فلولا وجوب الجماعة لم تترك هذه الأمور اللازمة لأجلها. تفسير السعدي (ص: ١٩٨).

(فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم):

قال البغوي: (فاذكروا الله) أي: صلوا لله (قياما) في حال الصحة، (وقعودا) في حال المرض، (وعلى جنوبكم) عند الجرح والزمانة. وقيل: اذكروا الله بالتسبيح والتحميد والتهليل والتمجيد على كل حال... وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الله على كل أحيانه. تفسير البغوي (١/ ٦٩٥-٦٩٦).

وقال السعدي: فإذا فرغتم من صلاتكم، صلاة الخوف وغيرها، فاذكروا الله في جميع أحوالكم وهيئاتكم، ولكن خصت صلاة الخوف بذلك لفوائد:

منها: أن القلب صلاحه وفلاحه وسعادته بالإنابة إلى الله تعالى في المحبة، وامتلاء القلب من ذكره والثناء عليه، وأعظم ما يحصل به هذا المقصود الصلاة، التي حقيقتها أنها صلة بين العبد وبين ربه.

ومنها: أن فيها من حقائق الإيمان ومعارف الإيقان ما أوجب أن يفرضها الله على عباده كل يوم وليلة، ومن المعلوم أن صلاة الخوف لا تحصل فيها هذه المقاصد الحميدة بسبب اشتغال القلب والبدن والخوف، فأُمر بجبرها بالذكر بعدها.

ومنها: أن الخوف يوجب من قلق القلب وخوفه ما هو مظنة لضعفه، وإذا ضعف القلب ضعف البدن عن مقاومة العدو، والذكر لله والإكثار منه من أعظم مقويات القلب.

ومنها: أن الذكر لله تعالى مع الصبر والثبات سبب للفلاح والظفر بالأعداء، كما قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون}، فأمر بالإكثار منه في هذه الحال، إلى غير ذلك من الحكم. تفسير السعدي (ص: ١٩٨).

(فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة):

قال ابن تيمية: معلوم أن طمأنينة القلب حال الجهاد لا تكون كطمأنينته حال الأمن، فإذا قدر أنه نقص من الصلاة شيء لأجل الجهاد لم يقدح هذا في كمال إيمان العبد وطاعته، ولهذا تخفف صلاة الخوف عن صلاة الأمن. ولما ذكر سبحانه وتعالى صلاة الخوف قال: {فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة

كانت على المؤمنين كتابا موقوتا}، فالإقامة المأمور بها حال الطمأنينة لا يؤمر بها حال الخوف. مجموع الفتاوى (٢٢/ ٦٠٩).

(إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا):

عن أبي موسى، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه أتاه سائل يسأله عن مواقيت الصلاة، فلم يرد عليه شيئا، قال: فأقام الفجر حين انشق الفجر، والناس لا يكاد يعرف بعضهم بعضا، ثم أمره فأقام بالظهر، حين زالت الشمس، والقائل يقول قد انتصف النهار، وهو كان أعلم منهم، ثم أمره فأقام بالعصر والشمس مرتفعة، ثم أمره فأقام بالمغرب حين وقعت الشمس، ثم أمره فأقام العشاء حين غاب الشفق، ثم أخر الفجر من الغد حتى انصرف منها والقائل يقول قد طلعت الشمس، أو كادت، ثم أخر الظهر حتى كان قريبا من وقت العصر بالأمس، ثم أخر العصر حتى انصرف منها والقائل يقول قد احمرت الشمس، ثم أخر المغرب حتى كان عند سقوط الشفق، ثم أخر العشاء حتى كان ثلث الليل الأول، ثم أصبح فدعا السائل، فقال: (الوقت بين هذين). صحيح مسلم (١/ ٤٢٩).

وقال ابن تيمية: أما فعلها في الوقت المضروب لها ففرض، وتأخيرها عنه عمدا من الكبائر، لقوله تعالى: {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى}، والمحافظة عليها فعلها في الوقت؛ لأن سبب نزول الآية تأخير الصلاة يوم الخندق دون تركها؛ لأن السلف فسروها بذلك، ولأن المحافظة خلاف الإهمال والإضاعة، ومن أخرها عن وقتها فقد أهملها ولم يحافظ عليها.
وقوله تعالى: {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ}، وإضاعتها تأخيرها عن وقتها، كذلك فسرها ابن مسعود وإبراهيم والقاسم بن محمد والضحاك وغيرهم من غير مخالف لهم، قال ابن مسعود: إضاعتها صلاتها لغير وقتها؛ لأن الشيء الضائع ليس هو معدوما، إنما هو مهمل غير محفوظ.
وقوله تعالى: {فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ} والمشهور منها: إضاعة الوقت، كذلك فسر هذه المواضع جماهير الصحابة والتابعين، وهو معقول من الكلام.

وقال تعالى: {إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً}، وأمر سبحانه الخائف أن يصلي مع الإخلال بكثير من الأركان، وكذلك المتيمم ونحوه، ولو جاز التأخير لما احتاج ذلك إلى شيء من ذلك. شرح عمدة الفقه لابن تيمية - كتاب الصلاة (ص: ٥٣).

(ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون):

قال البغوي: سبب نزولها أن أبا سفيان رضي الله عنه وأصحابه لما رجعوا يوم أحد، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم طائفة في آثارهم، فشكوا ألم الجراحات، فقال الله تعالى: (ولا تهنوا في ابتغاء القوم) أي: لا تضعفوا (في ابتغاء القوم) في طلب القوم أبي سفيان وأصحابه، (إن تكونوا تألمون) تتوجعون من الجراح، (فإنهم يألمون) أي: يتوجعون، يعني الكفار، (كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون) أي: وأنتم مع ذلك تؤمّلون من الأجر والثواب في الآخرة والنصر في الدنيا ما لا يرجون. تفسير البغوي (١/ ٦٩٧-٦٩٨).

وقال السعدي: ذكر ما يقوّي قلوب المؤمنين، فذكر شيئين:

الأول: أن ما يصيبكم من الألم والتعب والجراح ونحو ذلك فإنه يصيب أعداءكم، فليس من المروءة الإنسانية والشهامة الإسلامية أن تكونوا أضعف منهم، وأنتم وإياهم قد تساويتم فيما يوجب ذلك، لأن العادة الجارية لا يضعف إلا من توالت عليه الآلام وانتصر عليه الأعداء على الدوام، لا من يدال مرة، ويدال عليه أخرى.

الأمر الثاني: أنكم ترجون من الله ما لا يرجون، فترجون الفوز بثوابه والنجاة من عقابه، بل خواص المؤمنين لهم مقاصد عالية وآمال رفيعة من نصر دين الله، وإقامة شرعه، واتساع دائرة الإسلام، وهداية الضالين، وقمع أعداء الدين، فهذه الأمور توجب للمؤمن المصدق زيادة القوة، وتضاعف النشاط والشجاعة التامة؛ لأن من يقاتل ويصبر على نيل عزه الدنيوي إن ناله، ليس كمن يقاتل لنيل السعادة الدنيوية والأخروية، والفوز برضوان الله وجنته، فسبحان من فاوت بين العباد وفرق بينهم بعلمه وحكمته. تفسير السعدي (ص: ١٩٩).

بسم الله الرحمن الرحيم

العمل بالآيات من سورة النساء ٩٧-١٠٤

١- إذا كنت تقيم في بلدة لا تقدر فيها على إظهار دينك، وقدرت على الهجرة منها إلى بلدة تقدر فيها على إظهار دينك، فإن الهجرة واجبة عليك حينئذ، وستجد مكانا تتحول إليه، وتجد فيه الراحة والسعة والغنى والاستقرار، وتؤجر على كل خطوة تخطوها في هجرتك، وتركك للهجرة مع القدرة عليها يعرّضك للعذاب الأليم (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا)، (ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مُرَاغَمًا كثيرا وسعة).

٢- من لطف الله ورحمته بنا أنه لم يكلّفنا ما لا نطيق، فمن كان منا مريضا أو ضعيفا أو فقيرا أو عاجزا أو مسافرا أو مجاهدا فإنه يخفِّف عنه التكاليف، ولا يطالبه بما يطالب به القوي الغني المقيم الآمن القادر، فالهجرة تسقط، والصلاة تُقصر وتُخفّف، وأخذ السلاح أثناء الصلاة في الحرب يُعفى عنه، فالحمد لله رب العالمين (إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا * فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا)، (وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا)، (ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم).

٣- انوِ فعل الخير دائما، واسعَ فيه حسب قدرتك وطاقتك، وإذا قدّر الله لك عدم الوصول إلى النتيجة التي تصبو إليها بدون تقصير منك فإنك ستجد أجرك كاملا موفورا، فإن الله يثيب على النية الصادقة وإن لم يتمكن صاحبها من إتمام العمل (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما).

٤- عداوة الكافرين للمؤمنين متجذّرة في نفوسهم، وهي واضحة بيّنة لأهل الإيمان، فينبغي أن يكون تعامل المؤمن مع الكافر مبنيّا على الحيطة والحذر، وخاصة مع المحاربين منهم (إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا)، (ودّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة).

٥- لا بد من الأخذ بالأسباب الحسية مع الأسباب المعنوية في كل مناحي الحياة، وتأمل ذلك في صفة صلاة الخوف، كيف جمع لهم بين أسباب النصر الحسية والمعنوية، فالصلاة لا بد أن تؤدّى في وقتها،

والسلاح لا بد أن يكون بأيديهم وقت الصلاة، ويتم تقسيم الجيش إلى طائفتين: طائفة تصلّي والأخرى تواجه العدو، فلم يهمل السبب الحسي (أخذ السلاح والحذر وتقسيم الجيش)، ولم يفرّط في السبب المعنوي (الصلاة في الوقت)، ولم يعذروا بترك الأخذ بالأسباب الحسية حتى وهم في عبادة الصلاة التي يمنع فيها الحركة، وهذا الجمع بين السبب الحسي والمعنوي مع الاستعانة بالله أساس النصر والتوفيق بإذن الله تعالى (وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم).

٦- اذكر الله تعالى في جميع أوقاتك، وعلى اختلاف حالاتك، واحرص على الذكر الوارد أدبار الصلوات المفروضة لتستغفر من تقصيرك، وتستعين على أمورك، ويطمئنّ قلبك، ويزيد إيمانك (فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم).

٧- احرص على الصلاة في الجماعة، فإن الله لم يرخّص في ترك الجماعة أثناء الحرب، فكيف بحالك وأنت آمن مطمئن مستقرّ؟ فإن فاتتك الجماعة يوما من الدهر لظرف قاهر فإياك أن يفوتك وقت الصلاة، فإن تأخير الصلاة عن وقتها من كبائر الذنوب، ومن صفات المنافقين، ومن موجبات العذاب الأليم (وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك)، (فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا).

٨- ينبغي أن تستحضر دوما أنك تؤجر على كل ما يصيبك من هم وغم وأذى ونصب وتعب وجراح، والأجر يتضاعف إذا أتتك هذه المصائب وأنت تسعى في سبيل إعلاء كلمة الله، فالجدّ الجدّ، والنشاط النشاط، واحذر من الكسل والخمول في نصر دين الله، وتأمل نشاط أهل الباطل من الملاحدة والزنادقة والكفرة والمبتدعة وأرباب الفواحش في نشر باطلهم، واسأل نفسك: هل بذلتُ لنصرة الله وكتابه ورسوله ودينه مثل ما بذلوا من جهد ووقت ومال؟ ألست ترجو من الله ما لا يرجوه أولئك الأبعدون؟ فلمَ تميل إلى الدعة والتكاسل؟ فاستيقظ من رقدتك، وأفق من غفلتك (ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليما حكيما).

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة النساء (١٠٥-١١٥) من التفسير الميسّر

إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥)

إنا أنزلنا إليك -أيها الرسول- القرآن مشتملا على الحق؛ لتفصل بين الناس جميعًا بما أوحى الله إليك، وبَصَّرك به، فلا تكن للذين يخونون أنفسهم -بكتمان الحق- مدافعًا عنهم بما أيدوه لك من القول المخالف للحقيقة.

وَاسْتَغْفِرِ اللهَ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٦)

واطلب من الله تعالى المغفرة في جميع أحوالك، إن الله تعالى كان غفورًا لمن يرجو فضله ونوال مغفرته، رحيمًا به.

وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧)

ولا تدافع عن الذين يخونون أنفسهم بمعصية الله. إن الله -سبحانه- لا يحب مَن عَظُمَتْ خيانته، وكثر ذنبه.

يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨)

يستترون من الناس خوفًا من اطلاعهم على أعمالهم السيئة، ولا يستترون من الله تعالى ولا يستحيون منه، وهو عزَّ شأنه معهم بعلمه، مطلع عليهم حين يدبِّرون -ليلا- ما لا يرضى من القول، وكان الله -تعالى- محيطًا بجميع أقوالهم وأفعالهم، لا يخفى عليه منها شيء.

هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (١٠٩)

ها أنتم -أيها المؤمنون- قد حاججتم عن هؤلاء الخائنين لأنفسهم في هذه الحياة الدنيا، فمن يحاجج الله تعالى عنهم يوم البعث والحساب؟ ومن ذا الذي يكون على هؤلاء الخائنين وكيلا يوم القيامة؟

وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيمًا (١١٠)

ومن يُقْدِمْ على عمل سيِّئ قبيح، أو يظلم نفسه بارتكاب ما يخالف حكم الله وشرعه، ثم يرجع إلى الله نادمًا على ما عمل، راجيًا مغفرته وستر ذنبه، يجد الله تعالى غفورًا له، رحيمًا به.

وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١)

ومن يعمد إلى ارتكاب ذنب فإنما يضر بذلك نفسه وحدها، وكان الله تعالى عليمًا بحقيقة أمر عباده، حكيمًا فيما يقضي به بين خلقه.

وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (١١٢)

ومن يعمل خطيئة بغير عمد، أو يرتكب ذنبًا متعمدًا ثم يقذف بما ارتكبه نفسًا بريئة لا جناية لها، فقد تحمَّل كذبًا وذنبًا بيّنا.

وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣)

ولولا أن الله تعالى قد مَنَّ عليك -أيها الرسول- ورحمك بنعمة النبوة، فعصمك بتوفيقه بما أوحى إليك، لعزمت جماعة من الذين يخونون أنفسهم أن يُزِلُّوكَ عن طريق الحق، وما يُزِلُّونَ بذلك إلا أنفسهم، وما يقدرون على إيذائك لعصمة الله لك، وأنزل الله عليك القرآن والسنة المبينة له، وهداك إلى علم ما لم تكن تعلمه مِن قبل، وكان ما خصَّك الله به من فضلٍ أمرًا عظيمًا.

لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤)

لا نفع في كثير من كلام الناس سرّاً فيما بينهم، إلا إذا كان حديثًا داعيًا إلى بذل المعروف من الصدقة، أو الكلمة الطيبة، أو التوفيق بين الناس، ومن يفعل تلك الأمور طلبًا لرضا الله تعالى راجيًا ثوابه، فسوف نؤتيه ثوابًا جزيلا واسعًا.

وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (١١٥)

ومن يخالف الرسول صلى الله عليه وسلم من بعد ما ظهر له الحق، ويسلك طريقًا غير طريق المؤمنين، وما هم عليه من الحق، نتركه وما توجَّه إليه، فلا نوفقه للخير، وندخله نار جهنم يقاسي حرَّها، وبئس هذا المرجع والمآل.

بسم الله الرحمن الرحيم

معاني كلمات سورة النساء (١٠٥-١١٥)

الكلمة	المعنى
لِلخَائِنِين	للذين يخونون أنفسهم بكتمان الحق أو غيرَهم بمنع حقوقهم
خَصِيمًا	مُخاصِما ومُدافِعا عنهم
يَخْتانون أنفسَهم	يخونون أنفسهم بارتكاب الجرائم وتبرئة أنفسهم منها واتّهام غيرهم
خوّانًا	عظيم الخيانة
يَسْتَخْفون	يستترون
يُبَيّتون	يدبّرون بِلَيْل أو بخفاء
وَكِيلا	حافظا من عذاب الله
يَرْمِ به بَرِيئًا	يتّهم بجُرمِه شخصا آخر لا جناية له
بُهتانًا	كذبا عظيما
والحِكمة	والسنّة
نَجْواهُم	حديثِهم سرّا فيما بينهم
يُشاقِقِ الرسول	يخالفِ الرسول
نُوَلِّهِ ما تَوَلّى	نتركْه وما أراده ولا نوفّقْه للخير

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقف والابتداء في سورة النساء ١٠٥-١١٥

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذه الفقرة المتعلقة بالوقف والابتداء في الآيات من سورة النساء من الآية الخامسة بعد المائة وحتى الآية الخامسة عشرة بعد المائة.

أبدأ بالآية الأولى وهي قول الله تعالى (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله بعدها (لِتحكم) اللام لام تعليل، وهو تعليلٌ لما قبله، فلا يصح الوقف قبل التعليل.

وهل يصح الوقف على قوله (لتحكم بين الناس بما أراك الله)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة الخبر وما ارتبط بها من تعليلٍ قد انتهت هنا، ثم جاءت جملة نهيٍ مستأنفةٌ في قوله (ولا تكن للخائنين خصيمًا)، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

الآية التي تليها: (واستغفر الله) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإنه قد جاء بعض هذه الجملة جملةٌ تضمنت خبرًا بعد أمرٍ، وذلك في قوله (إن الله كان غفورًا رحيمًا)، بعد أن أمر بالاستغفار في قوله (واستغفر الله)، فمن نظر إلى الناحية اللفظية صحّح الوقف هنا؛ لأن جملة (إنّ) جملةٌ مستقلةٌ، ومن نظر إلى الناحية المعنوية وهي أن جملة (إن الله كان غفورًا رحيمًا) أشبه بالتعليل للأمر بالاستغفار، وأنه كالحث على الإكثار من الاستغفار لم يصحح الوقف هنا، والأمر في هذا محتملٌ، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه بعض علماء الوقف والابتداء، ووجهه أنه قد جاء بعده جملةٌ مبدوءةٌ بـ(إنّ) وهي جملة خبرٍ بعد النهي الوارد في قوله (ولا تجادل)، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

الآية التي تليها: (يستخفون من الناس) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله بعدها (ولا يستخفون من الله) معطوفةٌ عليها عطفًا وثيقًا لأنها لبيان أنهم يستترون من الناس حياءً أو خوفًا، وفي ذات الوقت لا يستترون من الله وهو سبحانه أحق بالحياء والخوف منه سبحانه.

وهل يصح الوقف على قوله (ولا يستخفون من الله)؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله (وهو معهم) جملةٌ حاليةٌ، والتقدير: ولا يستخفون من الله والحال أن الله معهم مطلعٌ عليهم، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وهو معهم)؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله (إذ يبيتون ما لا يرضى من القول) ظرفٌ لما قبله، يعني: أخبر الله سبحانه وتعالى أنه مطلعٌ عليهم حين يبيتون ما لا يرضى سبحانه وتعالى من القول، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (إذ يبيتون ما لا يرضى من القول)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن ذكر ما كان منهم من الاستخفاء عن الناس وعدم الاستخفاء عن الله سبحانه وتعالى مع اطلاعه سبحانه عليهم قد انتهت هنا، ثم جاءت جملةٌ مستأنفةٌ مبدوءةٌ بـ (كان) في قوله (وكان الله بما يعملون محيطًا)، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

الآية التي تليها: (ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا الأشموني وحسنه الأنصاري، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، ونص الأشموني على أن علة الوقف الاستفهام بعده، وذلك في قوله (فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة). وإذا تأملنا فإن هذا الاستفهام قوي الصلة بالجملة التي قبله، إذ المقصود من تركيبة الجملة بيان أن مجادلتكم عنهم في الدنيا لن تنفعهم يوم القيامة وإن نفعتهم في الدنيا، وهذا لا يتحقق إلا بالوصل، هذا من ناحيةٍ، ومن ناحيةٍ أخرى فإن الاستفهام في قوله (فمن يجادل الله عنهم) قد بدئ بفاءٍ واقعةٍ في جواب شرطٍ مقدرٍ تقديره: فإذا حل عليهم العذاب فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة، وبناءً عليه لا يصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة)؟

الجواب: لا يصح، لأن قوله (أم من يكون عليهم وكيلاً) هو من تتمة الاستفهام، فلم تنتهِ جملة الاستفهام إلا في نهاية الآية.

الآية التي تليها: (ومن يعمل سوءًا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن جواب الشرط لم يأتِ بعد، أين جواب الشرط؟ في قوله (يجد الله غفورًا رحيمًا)، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (ومن يكسب إثمًا فإنما يكسبه على نفسه) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة الشرط قد انتهت هنا، ثم جاءت جملةٌ مستأنفةٌ مبدوءةٌ بـ (كان) في قوله (وكان الله عليمًا حكيمًا)، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

الآية التي تليها: (ومن يكسب خطيئةً أو إثمًا ثم يرمِ به بريئًا) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، نص على ذلك الأشموني، لماذا؟ لأن جواب الشرط لم يأتِ بعد، أين جواب الشرط؟ في قوله (فقد احتمل بهتانًا وإثمًا مبينًا)، فلا وقف إلا في نهاية الآية، والله أعلم.

الآية التي تليها: (ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفةٌ منهم أن يضلوك) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص على ذلك بعض علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة (لولا) قد انتهت هنا، ثم أخبر سبحانه وتعالى عن واقع أولئك، ورد عليهم ما همّوا به من أن يضلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحق والعدل، فقال (وما يضلون إلا أنفسهم)، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وما يضلون إلا أنفسهم)؟

الجواب: لا يصح، ولم ينص أحدٌ من علماء الوقف والابتداء على الوقف هنا، وإنما وضعت علامة الوصل أولى في مصحف المدينة هنا، وهذا غريبٌ، لأنهم في مصحف المدينة لم يضعوا علامةً للوقف على قوله (لهمت طائفةٌ منهم أن يضلوك)، وكذلك في المصحف الشامي، مع أن جملة (لولا) قد انتهت على قوله (لهمت طائفةٌ منهم أن يضلوك)، فلم يضعوا علامةً هنا، ثم وضعوا علامةً على قوله (وما يضلون إلا أنفسهم) حيث لم ينص أحدٌ من علماء الوقف والابتداء على الوقف هنا، وذلك أن جملة (وما يضرونك من شيء) معطوفةٌ عليها، وهي من تتمة الرد على ما هموا به، فالرد عليهم اشتمل على أمرين: على بيان أنهم لا يضلون إلا أنفسهم، وعلى بيان أنهم لن يضروا رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا،

وبالتالي لن يقدروا على إضلاله عن العدل والهدى، فالوقف الصحيح على قوله (وما يضرونك من شيء) كما نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، وقبلها على قوله (لهمت طائفةٌ منهم أن يضلوك).

ثم يصح الوقف على قوله (وما يضرونك من شيء)؛ لأن النفي قد انتهى هنا، ثم ابتدأ سبحانه خبرًا جديدًا تضمن ذكر ما أنزله الله على رسوله صلى الله عليه وسلم في قوله (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة)، فصح الوقف هنا.

وهل يصح الوقف على قوله (وعلّمك ما لم تكن تعلم)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن بعده جملةٌ مستأنفةٌ مبدوءةٌ بـ (كان) في قوله (وكان فضل الله عليك عظيمًا)، فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (لا خير في كثيرٍ من نجواهم إلا من أمر بصدقةٍ أو معروفٍ أو إصلاحٍ بين الناس) لا وقف إلا هنا كما نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة النفي التي ابتدأت بها الآية وما ارتبط بها من استثناء وما عطف على المستثنى منها قد انتهت هنا، ثم جاءت جملةٌ شرطيةٌ في قوله (ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله) فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

الآية الأخيرة: (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله بعدها (ويتبع غير سبيل المؤمنين) معطوفٌ على فعل الشرط مجزومٌ مثله، ولا يصح الوقف قبل انتهاء فعل الشرط وجواب الشرط، وجواب الشرط أيضًا لم يأتِ بعد، فلا وقف هنا.

وهل يصح الوقف على قوله (نولّه ما تولّى)؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله بعدها (ونصله جهنم) معطوفٌ على جواب الشرط في قوله (نولّه ما تولّى) وهو مجزومٌ مثله، فلا وقف إلا على قوله (ونصله جهنم)، كما نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، لأن جملة الشرط وما عطف على فعلها وجوابها قد انتهت هنا، ثم جاءت جملةٌ فعليةٌ مستأنفةٌ في قوله (وساءت مصيرًا)، فصح الفصل بينهما، والله تعالى أعلم.

هذا آخر ما في هذا المقطع، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يعلّمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علّمنا، وأن يزيدنا علمًا وعملاً وهدًى وتقًى، والله تعالى أعلم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله الرحمن الرحيم

فوائد ولطائف سورة النساء ١٠٥-١١٥

(إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله):

سبب النزول: عن ابن عباس قوله: (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما)، وذلك أن نفرا من الأنصار غزوا مع النبي صلى الله عليه وسلم في بعض غزواته، فسرقت درع لأحدهم، فأظَن بها رجلا من الأنصار، فأتى صاحب الدرع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن طعمة بن أبيرق سرق درعي، فأتي به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رأى السارق ذلك عمد إليها فألقاها في بيت رجل بريء، وقال لنفر من عشيرته: إني قد غيبت الدرع وألقيتها في بيت فلان، وستوجد عنده. فانطلقوا إلى نبي الله صلى الله عليه وسلم ليلا فقالوا: يا نبي الله، إن صاحبنا بريء، وإن سارق الدرع فلان، وقد أحطنا بذلك علما، فاعذر صاحبنا على رؤوس الناس وجادل عنه، فإنه إلا يعصمه الله بك يهلك! فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فبرأه وعذره على رؤوس الناس، فأنزل الله: (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما)، يقول: احكم بينهم بما أنزل الله إليك في الكتاب، (واستغفر الله إن الله كان غفورا رحيما * ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم) الآية. ثم قال للذين أتوا رسول الله عليه السلام ليلا (يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله) إلى قوله: (أم من يكون عليهم وكيلا)، يعني: الذين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مستخفين يجادلون عن الخائن، ثم قال: (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما)، يعني: الذين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مستخفين بالكذب، ثم قال: (ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا)، يعني: السارق والذين يجادلون عن السارق. تفسير الطبري (٩/ ١٨٣-١٨٤).

وقال برهان الدين الكرماني: الفرق بين (أنزلنا إليك الكتاب)، و (أنزلنا عليك)... أن كل موضع خاطب النبيَّ صلى الله عليه وسلم بقوله {إنا أنزلنا إليك} ففيه تكليف، وإذا خاطبه بقوله {إنا أنزلنا عليك} ففيه تخفيف. أسرار التكرار في القرآن (ص: ٢١٧).

وقال ابن كثير: {لتحكم بين الناس بما أراك الله} احتج به من ذهب من علماء الأصول إلى أنه كان عليه السلام له أن يحكم بالاجتهاد بهذه الآية، وبما ثبت في الصحيحين... أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع جلبة خصم بباب حجرته، فخرج إليهم فقال: (ألا إنما أنا بشر، وإنما أقضي بنحو مما أسمع، ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من نار، فليحملها أو ليذرها). تفسير ابن كثير (٢/ ٤٠٤).

وقال السعدي: يخبر تعالى أنه أنزل على عبده ورسوله الكتاب بالحق، أي: محفوظا في إنزاله من الشياطين أن يتطرق إليه منهم باطل، بل نزل بالحق، ومشتملا أيضا على الحق، فأخباره صدق، وأوامره ونواهيه عدل {وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا}. تفسير السعدي (ص: ١٩٩).

وقال السعدي: أخبر أنه أنزله ليحكم بين الناس، وفي الآية الأخرى: {وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم}. فيحتمل أن هذه الآية في الحكم بين الناس في مسائل النزاع والاختلاف، وتلك في تبيين جميع الدين أصوله وفروعه، ويحتمل أن الآيتين كلتيهما معناهما واحد، فيكون الحكم بين الناس هنا يشمل الحكم بينهم في الدماء والأعراض والأموال وسائر الحقوق، وفي العقائد وفي جميع مسائل الأحكام. تفسير السعدي (ص: ١٩٩).

وقال السعدي: {بما أراك الله} أي: لا بهواك بل بما علمك الله وألهمك، كقوله تعالى: {وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى}، وفي هذا دليل على عصمته صلى الله عليه وسلم فيما يبلغ عن الله من جميع الأحكام وغيرها، وأنه يشترط في الحاكم العلم والعدل لقوله: {بما أراك الله} ولم يقل: بما رأيت. ورتب أيضا الحكم بين الناس على معرفة الكتاب. تفسير السعدي (ص: ١٩٩).

(ولا تكن للخائنين خصيما):

قال القرطبي: لا ينبغي إذا ظهر للمسلمين نفاق قوم أن يجادل فريق منهم فريقا عنهم ليحموهم ويدفعوا عنهم، فإن هذا قد وقع على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وفيهم نزل قوله تعالى: (ولا تكن للخائنين خصيما) وقوله: (ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم). تفسير القرطبي (٥/ ٣٧٧).

وقال السعدي: في هذا دليل على تحريم الخصومة في باطل، والنيابة عن المبطل في الخصومات الدينية والحقوق الدنيوية، ويدل مفهوم الآية على جواز الدخول في نيابة الخصومة لمن لم يعرف منه ظلم. تفسير السعدي (ص: ٢٠٠).

(ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما):

قال ابن عطية: الخوان: هو الذي تتكرر منه الخيانة، والأثيم: هو الذي يقصدها، فيخرج من هذا الشديد الساقط مرة واحدة ونحو ذلك مما يجيء من الخيانة بغير قصد أو على غفلة. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ١١٠).

وقال ابن تيمية: قال ابن قتيبة وطائفة من المفسرين: معناه: تخونون أنفسكم. زاد بعضهم: تظلمونها. فجعلوا الأنفس مفعول {تختانون}، وجعلوا الإنسان قد خان نفسه، أي: ظلمها بالسرقة، كما فعل ابن أبيرق... وهذا القول فيه نظر؛ فإن كل ذنب يذنبه الإنسان فقد ظلم فيه نفسه، سواء فعله سرا أو علانية. وإذا كان اختيان النفس هو ظلمها أو ارتكاب ما حرم عليها كان كل مذنب مختانا لنفسه وإن جهر بالذنوب، وكان كفر الكافرين وقتالهم للأنبياء وللمؤمنين اختيانا لأنفسهم، وكذلك قطع الطريق والمحاربة، وكذلك الظلم الظاهر، وكان ما فعله قوم نوح وهود وصالح وشعيب اختيانا لأنفسهم. ومعلوم أن هذا اللفظ لم يستعمل في هذه المعاني كلها، وإنما استعمل في خاص من الذنوب مما يفعل سرا... ولفظ الخيانة حيث استعمل لا يستعمل إلا فيما خفي عن المخون، كالذي يخون أمانته فيخون من ائتمنه إذا كان لا يشاهده، ولو شاهده لما خانه. قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون}، وقال تعالى: {ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا

منهم}، وقالت امرأة العزيز: {ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين}، وقال تعالى: {يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور}. مجموع الفتاوى (١٤/ ٤٣٨-٤٤٠).

(يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول):

قال السعدي: وهذا من ضعف الإيمان ونقصان اليقين، أن تكون مخافة الخلق عندهم أعظم من مخافة الله، فيحرصون بالطرق المباحة والمحرمة على عدم الفضيحة عند الناس، وهم مع ذلك قد بارزوا الله بالعظائم، ولم يبالوا بنظره واطلاعه عليهم. وهو معهم بالعلم في جميع أحوالهم. تفسير السعدي (ص: ٢٠٠).

(ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة):

قال السعدي: هبكم جادلتم عنهم في هذه الحياة الدنيا، ودفع عنهم جدالكم بعض ما تحذرون من العار والفضيحة عند الخلق، فماذا يغني عنهم وينفعهم؟ ومن يجادل الله عنهم يوم القيامة حين تتوجه عليهم الحجة، وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون؟ {يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين}. فمن يجادل عنهم من يعلم السر وأخفى؟ ومن أقام عليهم من الشهود ما لا يمكن معه الإنكار؟

وفي هذه الآية إرشاد إلى المقابلة بين ما يتوهم من مصالح الدنيا المترتبة على ترك أوامر الله أو فعل مناهيه، وبين ما يفوت من ثواب الآخرة أو يحصل من عقوباتها. فيقول من أمرته نفسه بترك أمر الله: ها أنت تركت أمره كسلا وتفريطا فما النفع الذي انتفعت به؟ وماذا فاتك من ثواب الآخرة؟ وماذا ترتب على هذا الترك من الشقاء والحرمان والخيبة والخسران؟

وكذلك إذا دعته نفسه إلى ما تشتهيه من الشهوات المحرمة قال لها: هبك فعلت ما اشتهيت فإن لذته تنقضي، ويعقبها من الهموم والغموم والحسرات، وفوات الثواب وحصول العقاب ما بعضه يكفي العاقل في الإحجام عنها. وهذا من أعظم ما ينفع العبد تدبره، وهو خاصة العقل الحقيقي. بخلاف الذي يدعي العقل وليس كذلك، فإنه بجهله وظلمه يؤثر اللذة الحاضرة والراحة الراهنة، ولو ترتب عليها ما ترتب. والله المستعان. تفسير السعدي (ص: ٢٠٠).

(ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما):

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من مسلم يذنب ذنبا، ثم يتوضأ فيصلي ركعتين، ثم يستغفر الله لذلك الذنب، إلا غفر له)، وقرأ هاتين الآيتين: {ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما}، {والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم}. مسند أحمد (١/ ٢١٩).

وقال السعدي: من تجرأ على المعاصي واقتحم الإثم ثم استغفر الله استغفارا تاما يستلزم الإقرار بالذنب والندم عليه والإقلاع والعزم على أن لا يعود. فهذا قد وعده من لا يخلف الميعاد بالمغفرة والرحمة. فيغفر له ما صدر منه من الذنب، ويزيل عنه ما ترتب عليه من النقص والعيب، ويعيد إليه ما تقدم من الأعمال الصالحة، ويوفقه فيما يستقبله من عمره، ولا يجعل ذنبه حائلا عن توفيقه، لأنه قد غفره، وإذا غفره غفر ما يترتب عليه. تفسير السعدي (ص: ٢٠٠).

وقال السعدي: واعلم أن عمل السوء عند الإطلاق يشمل سائر المعاصي الصغيرة والكبيرة، وسمي (سوءا) لكونه يسوء عامله بعقوبته، ولكونه في نفسه سيئا غير حسن.

وكذلك ظلم النفس عند الإطلاق يشمل ظلمها بالشرك فما دونه. ولكن عند اقتران أحدهما بالآخر قد يفسر كل واحد منهما بما يناسبه، فيفسر عمل السوء هنا بالظلم الذي يسوء الناس، وهو ظلمهم في دمائهم وأموالهم وأعراضهم. ويفسر ظلم النفس بالظلم والمعاصي التي بين الله وبين عبده.

وسمي ظلم النفس (ظلما) لأن نفس العبد ليست ملكا له يتصرف فيها بما يشاء، وإنما هي ملك لله تعالى، قد جعلها أمانة عند العبد، وأمره أن يقيمها على طريق العدل، بإلزامها للصراط المستقيم علما وعملا، فيسعى في تعليمها ما أمر به، ويسعى في العمل بما يجب، فسعيه في غير هذا الطريق ظلم لنفسه وخيانة وعدول بها عن العدل، الذي ضده الجور والظلم. تفسير السعدي (ص: ٢٠٠-٢٠١).

(ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيما):

قال السعدي: {ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه} وهذا يشمل كل ما يؤثم من صغير وكبير، فمن كسب سيئة فإن عقوبتها الدنيوية والأخروية على نفسه، لا تتعداها إلى غيرها، كما قال تعالى: {ولا تزر وازرة وزر أخرى}، لكن إذا ظهرت السيئات فلم تنكر عمت عقوبتها وشمل إثمها، فلا تخرج أيضا عن حكم هذه الآية الكريمة، لأن من ترك الإنكار الواجب فقد كسب سيئة. وفي هذا بيان عدل الله وحكمته، أنه لا يعاقب أحدا بذنب أحد، ولا يعاقب أحدا أكثر من العقوبة الناشئة عن ذنبه. تفسير السعدي (ص: ٢٠١).

وقال السعدي: ومن علمه وحكمته أنه يعلم الذنب وما صدر منه، والسبب الداعي لفعله، والعقوبة المترتبة على فعله، ويعلم حالة المذنب أنه إن صدر منه الذنب بغلبة دواعي نفسه الأمارة بالسوء مع إنابته إلى ربه في كثير من أوقاته، أنه سيغفر له ويوفقه للتوبة. وإن صدر منه بتجرئه على المحارم استخفافا بنظر ربه، وتهاونا بعقابه، فإن هذا بعيد من المغفرة بعيد من التوفيق للتوبة. تفسير السعدي (ص: ٢٠١).

(ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا):

قال الطبري: وإنما فرّق بين الخطيئة والإثم، لأن الخطيئة قد تكون من قبل العمد وغير العمد، والإثم لا يكون إلا من العمد، ففصّل جل ثناؤه لذلك بينهما فقال: ومن يأت (خطيئة) على غير عمد منه لها، (أو إثما) على عمد منه. تفسير الطبري (٩/ ١٩٧).

وقال السعدي: {فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا} أي: فقد حمل فوق ظهره بهتا للبريء وإثما ظاهرا بينا، وهذا يدل على أن ذلك من كبائر الذنوب وموبقاتها، فإنه قد جمع عدة مفاسد: كسب الخطيئة والإثم، ثم رمي من لم يفعلها بفعلها، ثم الكذب الشنيع بتبرئة نفسه واتهام البريء، ثم ما يترتب على ذلك من أن العقوبة الدنيوية تندفع عمن وجبت عليه، وتقام على من لا يستحقها. ثم ما يترتب على ذلك أيضا من

كلام الناس في البريء، إلى غير ذلك من المفاسد التي نسأل الله العافية منها ومن كل شر. تفسير السعدي (ص: ٢٠١).

(ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك):

قال الطبري: (ولولا فضل الله عليك ورحمته) ولولا أن الله تفضل عليك يا محمد، فعصمك بتوفيقه وتبيانه لك أمر هذا الخائن، فكففت لذلك عن الجدال عنه، ومدافعة أهل الحق عن حقهم قبله، (لهمت طائفة منهم) يقول: لهمت فرقة منهم، يعني: من هؤلاء الذين يختانون أنفسهم، (أن يضلوك) يقول: يزلوك عن طريق الحق، وذلك لتلبيسهم أمر الخائن عليه صلى الله عليه وسلم، وشهادتهم للخائن عنده بأنه بريء مما ادُّعي عليه، ومسألتهم إياه أن يعذره ويقوم بمعذرته في أصحابه. تفسير الطبري (٩/ ١٩٩).

(وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما):

قال ابن تيمية: {وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم}، وقال: {لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة}، وقال: {واذكرن ما يتلى في بيوتكنّ من آيات الله والحكمة}. قال غير واحد من السلف: الحكمة هي السنة. لأن الذي كان يتلى في بيوت أزواجه رضي الله عنهن سوى القرآن هو سننه صلى الله عليه وسلم، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم {ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه}، وقال حسان بن عطية: كان جبريل عليه السلام ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم بالسنة كما ينزل بالقرآن، فيعلمه إياها كما يعلمه القرآن. مجموع الفتاوى (٣/ ٣٦٦).

وقال ابن القيم: كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدين كله وحي من عند الله، وكل وحي من عند الله فهو ذكر أنزله الله، وقد قال تعالى: {وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة}، فالكتاب القرآن، والحكمة السنة، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إني أوتيت الكتاب ومثله معه»، فأخبر أنه أوتي السنة كما أوتي

الكتاب، والله تعالى قد ضمن حفظ ما أوحاه إليه وأنزل عليه ليقيم به حجته على العباد إلى آخر الدهر. مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (ص: ٥٥٩).

وقال السعدي: والحكمة: إما السنة التي قد قال فيها بعض السلف: إن السنة تنزل عليه كما ينزل القرآن. وإما معرفة أسرار الشريعة الزائدة على معرفة أحكامها، وتنزيل الأشياء منازلها وترتيب كل شيء بحسبه. تفسير السعدي (ص: ٢٠١).

وقال السعدي: {وعلمك ما لم تكن تعلم} وهذا يشمل جميع ما علمه الله تعالى. فإنه صلى الله عليه وسلم كما وصفه الله قبل النبوة بقوله: {ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان}، {ووجدك ضالا فهدى}. ثم لم يزل يوحي الله إليه ويعلمه ويكمله حتى ارتقى مقاما من العلم يتعذر وصوله على الأولين والآخرين، فكان أعلم الخلق على الإطلاق، وأجمعهم لصفات الكمال، وأكملهم فيها، ولهذا قال: {وكان فضل الله عليك عظيما}، ففضله على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم أعظم من فضله على كل مخلوق. وأجناس الفضل الذي قد فضله الله به لا يمكن استقصاؤها، ولا يتيسر إحصاؤها. تفسير السعدي (ص: ٢٠١).

(**لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس**):

قال ابن تيمية: قال بعض السلف لصاحبه: السكوت عن الشر خير من التكلم به، فقال له الآخر: التكلم بالخير خير من السكوت عنه. وقد قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوا بالبر والتقوى}، وقال تعالى: {لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما}. وفي السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا أمرا بمعروف أو نهيا عن منكر أو ذكرا لله تعالى)، والأحاديث في فضائل الصمت كثيرة، وكذلك في فضائل التكلم بالخير، والصمت عما يجب من الكلام حرام، سواء اتخذه دينا أو لم يتخذه، كالأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر، فيجب أن تحب ما أحبه الله ورسوله، وتبغض ما يبغضه الله ورسوله، وتبيح ما أباحه الله ورسوله، وتحرم ما حرمه الله ورسوله. مجموع الفتاوى (٢٥/ ٢٩٤).

وقال ابن تيمية: قال تعالى: {فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم}، وقال: {إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم}، وقال: {إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس}. وهذا الأصل العظيم: وهو الاعتصام بحبل الله جميعا وأن لا يُتفرق هو من أعظم أصول الإسلام، ومما عظمت وصية الله تعالى به في كتابه، ومما عظم ذمه لمن تركه من أهل الكتاب وغيرهم، ومما عظمت به وصية النبي صلى الله عليه وسلم في مواطن عامة وخاصة، مثل قوله: {عليكم بالجماعة فإن يد الله على الجماعة}، وقوله: {فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد}، وقوله: {من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر عليه؛ فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه}، وقوله: {ألا أنبئكم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: صلاح ذات البين؛ فإن فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين}. مجموع الفتاوى (٢٢/ ٣٥٩).

وقال ابن القيم: ندب الله سبحانه وتعالى إلى الصلح بين الطائفتين في الدماء فقال: {وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما}، وندب الزوجين إلى الصلح عند التنازع في حقوقهما، فقال: {وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير}، وقال تعالى: {لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس}...

وقال عمر: ردوا الخصوم حتى يصطلحوا، فإن فصل القضاء يحدث بين القوم الضغائن.

وقال عمر أيضا: ردوا الخصوم لعلهم أن يصطلحوا، فإنه آثر للصدق، وأقل للخيانة.

وقال عمر أيضا: ردوا الخصوم إذا كانت بينهم قرابة، فإن فصل القضاء يورث بينهم الشنآن. إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ٨٤).

وقال السعدي: لا خير في كثير مما يتناجى به الناس ويتخاطبون، وإذا لم يكن فيه خير، فإما لا فائدة فيه كفضول الكلام المباح، وإما شر ومضرة محضة كالكلام المحرم بجميع أنواعه.

ثم استثنى تعالى فقال: {إلا من أمر بصدقة} من مال أو علم أو أي نفع كان، بل لعله يدخل فيه العبادات القاصرة، كالتسبيح والتحميد ونحوه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة) الحديث.

{أو معروف} وهو الإحسان والطاعة، وكل ما عرف في الشرع والعقل حسنه، وإذا أطلق الأمر بالمعروف من غير أن يقرن بالنهي عن المنكر دخل فيه النهي عن المنكر، وذلك لأن ترك المنهيات من المعروف، وأيضا لا يتم فعل الخير إلا بترك الشر. وأما عند الاقتران فيفسر المعروف بفعل المأمور، والمنكر بترك المنهي.

{أو إصلاح بين الناس} والإصلاح لا يكون إلا بين متنازعين متخاصمين، والنزاع والخصام والتغاضب يوجب من الشر والفرقة ما لا يمكن حصره، فلذلك حث الشارع على الإصلاح بين الناس في الدماء والأموال والأعراض، بل وفي الأديان، كما قال تعالى: {واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا}، وقال تعالى: {وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله} الآية. وقال تعالى: {والصلح خير}، والساعي في الإصلاح بين الناس أفضل من القانت بالصلاة والصيام والصدقة، والمصلح لا بد أن يصلح الله سعيه وعمله. كما أن الساعي في الإفساد لا يصلح الله عمله، ولا يتم له مقصوده، كما قال تعالى: {إن الله لا يصلح عمل المفسدين}.

فهذه الأشياء حيثما فعلت فهي خير، كما دل على ذلك الاستثناء. ولكن كمال الأجر وتمامه بحسب النية والإخلاص، ولهذا قال: {ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما}، فلهذا ينبغي للعبد أن يقصد وجه الله تعالى، ويخلص العمل لله في كل وقت وفي كل جزء من أجزاء الخير، ليحصل له بذلك الأجر العظيم، وليتعود الإخلاص فيكون من المخلصين، وليتم له الأجر، سواء تم مقصوده أم لا؛ لأن النية حصلت، واقترن بها ما يمكن من العمل. تفسير السعدي (ص: ٢٠٢).

(ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نولّه ما تولّى):

قال ابن تيمية: كان عمر بن عبد العزيز يقول كلمات كان مالك يأثرها عنه كثيرا قال: سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمر من بعده سننا، الأخذ بها تصديق لكتاب الله، واستعمال لطاعة الله، ومعونة على دين الله، ليس لأحد تغييرها ولا النظر في رأي من خالفها، فمن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله تعالى ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرا.

والشافعي رضي الله عنه لمّا جرّد الكلام في أصول الفقه احتج بهذه الآية على الإجماع... والآية دلت على أن متبع غير سبيل المؤمنين مستحق للوعيد، كما أن مشاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى مستحق للوعيد، ومعلوم أن هذا الوصف يوجب الوعيد بمجرده، فلو لم يكن الوصف الآخر يدخل في ذلك لكان لا فائدة في ذكره.

وهنا للناس ثلاثة أقوال: قيل: اتباع غير سبيل المؤمنين هو بمجرد مخالفة الرسول المذكورة في الآية.

وقيل: بل مخالفة الرسول مستقلة بالذم، فكذلك اتباع غير سبيلهم مستقل بالذم.

وقيل: بل اتباع غير سبيل المؤمنين يوجب الذم كما دلت عليه الآية، لكن هذا لا يقتضي مفارقة الأول، بل قد يكون مستلزما له، فكل متابع غير سبيل المؤمنين هو في نفس الأمر مشاق للرسول، وكذلك مشاق الرسول متبع غير سبيل المؤمنين.

وهذا كما في طاعة الله والرسول، فإن طاعة الله واجبة وطاعة الرسول واجبة، وكل واحد من معصية الله ومعصية الرسول موجب للذم، وهما متلازمان، فإنه من يطع الرسول فقد أطاع الله، وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: {من أطاعني فقد أطاع الله؛ ومن أطاع أميري فقد أطاعني؛ ومن عصاني فقد عصى الله؛ ومن عصى أميري فقد عصاني}. مجموع الفتاوى (١٩/ ١٧٨-١٧٩).

وقال ابن كثير: {ويتبع غير سبيل المؤمنين} هذا ملازم للصفة الأولى، ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع، وقد تكون لما أجمعت عليه الأمة المحمدية فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقا، فإنه قد ضمنت لهم العصمة في اجتماعهم من الخطأ، تشريفا لهم، وتعظيما لنبيهم صلى الله عليه وسلم، وقد وردت في ذلك أحاديث صحيحة كثيرة... ومن العلماء من ادّعى تواتر معناها، والذي عوّل عليه الشافعي رحمه الله في

الاحتجاج على كون الإجماع حجة تحرم مخالفته هذه الآية الكريمة، بعد التروّي والفكر الطويل، وهو من أحسن الاستنباطات وأقواها. تفسير ابن كثير (٢/ ٤١٢-٤١٣).

وقال السعدي: {نولّه ما تولّى} أي: نتركه وما اختاره لنفسه، ونخذله فلا نوفقه للخير، لكونه رأى الحق وعلمه وتركه، فجزاؤه من الله عدلا أن يبقيه في ضلاله حائرا، ويزداد ضلالا إلى ضلاله. كما قال تعالى: {فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم}، وقال تعالى: {ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة}.
ويدل مفهومها على أن من لم يشاقق الرسول، ويتبع سبيل المؤمنين، بأن كان قصده وجه الله واتباع رسوله ولزوم جماعة المسلمين، ثم صدر منه من الذنوب أو الهم بها ما هو من مقتضيات النفوس، وغلبات الطباع، فإن الله لا يوليه نفسه وشيطانه بل يتداركه بلطفه، ويمن عليه بحفظه، ويعصمه من السوء، كما قال تعالى عن يوسف عليه السلام: {كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين} أي: بسبب إخلاصه صرفنا عنه السوء، وكذلك كل مخلص، كما يدل عليه عموم التعليل. تفسير السعدي (ص: ٢٠٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

العمل بالآيات من سورة النساء ١٠٥-١١٥

١- إذا آتاك الله علما بالقرآن والسنة فكن حاكما بين الناس بالعدل، لا بالظلم والجور، وبما علّمك الله وفهّمك، لا برأيك وهواك (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله).

٢- احذر من المجادلة عن الخائنين والظالمين والكاذبين والمفسدين الذين يرتكبون العظائم ويلصقونها بمن هو بريء منها، ولو كانوا من أقرب الناس وأحبهم إليك، فإن ذلك من التعاون على الإثم والعدوان، ومن ذلك الترافع في المحاكم عنهم، ومماطلة أصحاب الحقوق لصالحهم، فتقع بذلك في الإثم العظيم، وتنال عاقبة ذلك في الدنيا بالحياة التعيسة، وفي الآخرة بالعذاب العظيم (ولا تكن للخائنين خصيما)، (ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما).

٣- أكثر من الاستغفار، فإن ذنوبك التي تعلمها كثيرة، والتي نسيتها أو غفلت عنها أو جهلتها أكثر وأكثر، فأدم الاستغفار بعد الذنب مباشرة لترغم الشيطان، وفي كل وقت ليغفر الله لك ذنبك كله، دقه وجله، أوله وآخره، علانيته وسره (واستغفر الله إن الله كان غفورا رحيما)، (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما).

٤- اغرس مراقبة الله والخوف منه والحياء منه في نفسك، واجعلها أعمق في قلبك من مراقبة الناس، واعلم أن الله معك بعلمه واطّلاعه أينما كنت، وأنك بتحقيق ذلك تحقّق الإيمان في قلبك (يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطا).

٥- إذا وجدت في الدنيا من يساعدك ويقف معك على تحصيل ما لا يحل لك من المكاسب والمنافع والمصالح، فمن ذا الذي يقف معك بين يدي الجبار عز وجل يوم القيامة لينجيك من عذاب الله، فاتّق الله في أقوالك وأفعالك ومكاسبك (ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا).

٦- احذر أن تتّهم شخصا بما لم يقله أو يفعله، أو بمجرد الظن أنه قاله أو فعله، أو بفهمك السيّء لكلامه وفعله، فتحتمل أوزارا على أوزارك، وأعظم من ذلك أن تتّهمه بإساءة غيره؛ ليسلم المتّهم

ويدان البريء، وفوق ذلك كله أن تتّهمه بجُرمك أنت لينال العقوبة وتنجو منها (ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيما * ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا).

٧- اعلم أن أهل الضلال من أرباب الشبهات والشهوات يسعون في إضلالك عن دينك، وأن ثباتك على الحق والهدى إنما هو محض فضل من الله ورحمة، ولولا ذلك لضللت عن سواء السبيل، فاستعن بالله، واطلبه الهدى والثبات والسداد، وتمسّك بالكتاب والسنة حتى تنجو (ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلّمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما).

٨- أكثر المجالس اليوم تعجّ بالغيبة والكذب والنميمة، فاحرص على السلامة منها، وعوّد نفسك العزلة عن مجالس اللغو، وتعلّم الصمت، واعلم أن الصمت خير من الكلام المحرّم، وهو كذلك خير من الكلام الذي لا فائدة منه، والكلام المفيد النافع خير من الصمت، وأفضله ما تضمّن حثّا على الصدقة أو أمرا بالمعروف أو سعيا بالإصلاح بين الناس، فاحرص على ذلك مبتغيا مرضاة ربك لتنال الأجر العظيم (لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما).

٩- إذا بلغتك سنة من سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحيحة، أو شيء أجمع عليه المسلمون، أو عمل سار عليه العمل عند المسلمين منذ القرون الأولى فاحرص على التمسك به، واحذر من الاعتراض عليه أو مخالفته، فمن فعل ذلك فقد اختار لنفسه طريق الضلال، فيعاقب بأن يكله الله إلى نفسه، ويولّيه ما تولّى، ثم يكون مصيره النار، والعياذ بالله (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نولّه ما تولّى ونصله جهنم وساءت مصيرا).

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة النساء (١١٦-١٢٦) من التفسير الميسّر

إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١١٦)

إن الله تعالى لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون الشرك من الذنوب لمن يشاء من عباده. ومن يجعل لله تعالى الواحد الأحد شريكًا من خلقه، فقد بَعُدَ عن الحق بعدًا كبيرًا.

إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (١١٧)

ما يعبد المشركون من دون الله تعالى إلا أوثانًا لا تنفع ولا تضر، وما يعبدون إلا شيطانًا متمردًا على الله، بلغ في الفساد والإفساد حدّاً كبيرًا.

لَعَنَهُ اللهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (١١٨)

طرده الله تعالى من رحمته. وقال الشيطان: لأتخذن مِن عبادك جزءًا معلومًا في إغوائهم قولا وعملا.

وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (١١٩)

ولأصرفَنَّ مَن تبعني منهم عن الحق، ولأعِدَنَّهم بالأماني الكاذبة، ولأدعونَّهم إلى تقطيع آذان الأنعام وتشقيقها لما أزينه لهم من الباطل، ولأدعونَّهم إلى تغيير خلق الله في الفطرة، وهيئة ما عليه الخلق. ومن يستجب للشيطان ويتخذه ناصرًا له من دون الله القوي العزيز، فقد هلك هلاكًا بيِّنًا.

يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠)

يعد الشيطان أتباعه بالوعود الكاذبة، ويغريهم بالأماني الباطلة الخادعة، وما يَعِدهم إلا خديعة لا صحة لها، ولا دليل عليها.

أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا (١٢١)

أولئك مآلهم جهنم، ولا يجدون عنها معدلا ولا ملجأً.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا (١٢٢)

والذين صَدَقوا في إيمانهم بالله تعالى، وأتبعوا الإيمان بالأعمال الصالحة سيدخلهم الله -بفضله- جنات تجري من نحت أشجارها الأنهار ماكثين فيها أبدًا، وعدا من الله تعالى الذي لا يخلف وعده. ولا أحد أصدق من الله تعالى في قوله ووعده.

لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣)

لا يُنال هذا الفضل العظيم بالأماني التي تتمنونها أيها المسلمون، ولا بأماني أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وإنما يُنال بالإيمان الصادق بالله تعالى، وإحسان العمل الذي يرضيه. ومن يعمل عملا سيئًا يجز به، ولا يجد له سوى الله تعالى وليّا يتولى أمره وشأنه، ولا نصيرًا ينصره، ويدفع عنه سوء العذاب.

وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤)

ومن يعمل من الأعمال الصالحة من ذكر أو أنثى، وهو مؤمن بالله تعالى وبما أنزل من الحق، فأولئك يدخلهم الله الجنة دار النعيم المقيم، ولا يُنْقَصون من ثواب أعمالهم شيئًا، ولو كان مقدار النقرة في ظهر النواة.

وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (١٢٥)

لا أحد أحسن دينًا ممن انقاد بقلبه وسائر جوارحه لله تعالى وحده، وهو محسن، واتبع دين إبراهيم وشرعه، مائلا عن العقائد الفاسدة والشرائع الباطلة. وقد اصطفى الله إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- واتخذه صفيّا من بين سائر خلقه. وفي هذه الآية، إثبات صفة الخُلّة لله -تعالى- وهي أعلى مقامات المحبة، والاصطفاء.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا (١٢٦)

ولله جميع ما في هذا الكون من المخلوقات، فهي ملك له تعالى وحده. وكان الله تعالى بكل شيء محيطًا، لا يخفى عليه شيء من أمور خلقه.

بسم الله الرحمن الرحيم

معاني كلمات سورة النساء (١١٦-١٢٦)

الكلمة	المعنى
إِناثًا	أصناما يزيّنونها ويسمونها بأسماء النّساء
مَرِيدًا	متمردا على الله
لعنه الله	طرده الله تعالى من رحمته
نصيبا مفروضا	جزءا معلوما في إغوائهم
ولأُمنّينّهم	ولأعدنّهم بالأماني الكاذبة
فلَيُبتّكُنّ	فليُقَطّعُنّ وليُشقّقُنّ
ويُمنّيهِم	ويغريهم بالأماني الباطلة الخادعة
غرورا	خداعا لا حقيقة له
مَحِيصًا	ملجأً ومهربا
نَقِيرًا	قدر النُقرة التي في ظهر نواة التمر
أسلم وجهه لله	أخلص وانقاد لله
حنيفًا	مائلا عن الباطل إلى الحق
خليلا	صفيّا حبيبا

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقف والابتداء في سورة النساء ١١٦-١٢٦

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذه الفقرة المتعلقة بالوقف والابتداء في الآيات من سورة النساء من الآية السادسة عشرة بعد المائة، وحتى الآية السادسة والعشرين بعد المائة.

أبدأ بالآية الأولى وهي قول الله تعالى (إن الله لا يغفر أن يُشرك به) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا الهبطي، وجوّزه الأشموني، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن الجملة قد تمت وتم معها مقصود الكلام بعدم المغفرة للمشرك، ثم ذكر الله سبحانه وتعالى أنه يغفر ما دون الشرك لمن يشاء بجملةٍ معطوفةٍ على الجملة الأولى، لكن هذه الجملة المعطوفة قد تضمنت إضمارًا في قوله (ويغفر) يعني الله سبحانه وتعالى، وتضمنت أيضًا إشارةً إلى الشرك في قوله (ما دون ذلك)، ولتضمنها هذا الإضمار وهذه الإشارة منع من منع من العلماء من الوقف قبلها، لأن العطف صار عطفًا وثيق الصلة، والأمر في هذا محتملٌ، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة التي تضمنت ذكر ما يغفر من الذنوب وما لا يغفر منها قد انتهت هنا، ثم جاءت جملةٌ شرطيةٌ تضمنت ذكر حال المشرك بالله سبحانه وتعالى في قوله تعالى (ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيدًا)، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (إن يدعون من دونه إلا إناثًا) هل يصح الوقف هنا؟

جوّز الوقف هنا السجاوندي والأشموني، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، ووجه الوقف عندهم أن النفي الأول قد انتهى وما ارتبط به من الاستثناء، (إن يدعون من دونه إلا إناثًا)، أي: ما يدعون من دون الله إلا إناثًا، ثم جاء نفيٌ آخر معطوفٌ على النفي الأول بالواو (وإن يدعون إلا شيطانًا مريدًا)، فمن نظر إلى أنهما جملتان بينهما استقلالٌ تامٌ من حيث اللفظ جوّز الوقف هنا، ومن نظر إلى أن الجملة الثانية إنما سيقت لبيان أن ما يدعونه من دون الله هو في الحقيقة عبادةٌ منهم للشيطان المَرِيد لعنه الله، فإنه لم يصحح الوقف هنا، والأمر في هذا محتملٌ، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (لعنه الله) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ومنهم من نص على لزوم الوقف هنا، ووجه الوقف أن الله سبحانه وتعالى أخبر أو دعا على الشيطان باللعنة، ثم ذكر قولاً للشيطان فيما أقسم به من إغوائه لبني آدم، ففرقٌ بين الإخبار وبين قول الشيطان، فلذلك صح الوقف هنا.

أما من أشار إلى لزوم الوقف كما نص عليه السجاوندي، ووضعت علامة الوقف اللازم في مصحف المدينة، فإن المراد أنه إذا وصل لأوهم أن القائل للكلام الذي بعده هو الله، لأنه أقرب مذكور، فلو قال (لعنه الله وقال لأتخذن) لأوهم أن القائل هو الله، بينما القائل هو الشيطان اللعين، فلذلك صار الوقف هنا لازمًا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله) لا يصح الوقف إلا هنا، لأن هذه الجمل معطوفات قد تضمنت بيان ما أقسم الشيطان على فعله ببني آدم وإغوائه لهم، فلم يصح الفصل بينها إلا في نهايتها على قوله (فليغيرن خلق الله)، كما نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ثم جاءت بعدها جملةٌ شرطيةٌ تضمنت بيان حال من يتخذ الشيطان وليًّا من دون الله في قوله (ومن يتخذ الشيطان وليًّا من دون الله فقد خسر خسرانًا مبينًا)، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (يعدهم ويمنّيهم) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الله سبحانه وتعالى أخبر عن فعل الشيطان بقوله (يعدهم ويمنيهم)، ثم جاءت جملة نفيٍ مستأنفة تضمنت حقيقة هذا الوعد الذي يعدهم به الشيطان في قوله (وما يعدهم الشيطان إلا غرورًا)، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

الآية التي تليها: (أولئك مأواهم جهنم) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا الهبطي وحده دون بقية علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإنه قد انتهى ذكر جزاء أتباع الشيطان في قوله (أولئك مأواهم جهنم)، ثم ذكر أنهم لن يقدروا على الهرب من جهنم، فمن نظر إلى أن قوله (ولا يجدون عنها محيصًا) هو من تتمة الجزاء، فكأنه بين أن جزاءهم جهنم التي لن يقدروا على الهرب منها لم يصحح الوقف هنا، وهو الذي عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ومن نظر إلى أن جملة (أولئك مأواهم جهنم) جملةٌ تمت بذكر الجزاء، ثم جاء النفي في جملةٍ مستقلةٍ لفظًا صحح الوقف هنا، والأمر في هذا محتملٌ، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا) لا يصح الوقف إلا هنا، كما نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، وذلك أن ذكر الجزاء ووصف هذه الجزاء لم ينتهِ إلا هنا، ثم قال (وعد الله حقًّا)، وهذا مفعولٌ مطلقٌ لفعلٍ محذوفٍ تقديره: وعدهم الله وعدًا حقًّا، فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وعد الله حقًّا)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن ذكر وعد الله قد انتهى هنا، ثم جاءت جملة استفهامٍ مستأنفةٍ لبيان أنه لا أحد أصدق من الله في وعده في قوله (ومن أصدق من الله قيلا)، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

الآية التي تليها: (ليس بأمانيّكم ولا أمانيّ أهل الكتاب) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة النفي في قوله (ليس بأمانيكم) قد انتهت هنا، وانتهى معها بيان أن دخول الجنة لا يكون بمجرد الأماني، ثم جاءت جملةٌ شرطيةٌ لبيان جزاء من يعمل سوءًا في قوله (من يعمل سوءًا يجزَ به)، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (من يعمل سوءًا يجزَ به)؟

الجواب: لا يصح، نص على ذلك السجاوندي، لماذا؟ لأن قوله (ولا يجد له من دون الله وليًّا ولا نصيرًا) جملةٌ معطوفةٌ على جواب الشرط مجزومةٌ مثل الجواب، وهي من تتمة بيان أن من عمل سوءًا فإنه يجازى به وأنه لا يجد له من دون الله وليًّا ولا نصيرًا يدافع عنه، فلم يصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (ومن يعمل من الصالحات من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمن) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، نص على ذلك الأشموني، لماذا؟ لأن جواب الشرط لم يأت بعد، أين الشرط؟ في أول الآية في قوله (مَن)، فعل الشرط (يعمل من الصالحات من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمن)، جوابه (فأولئك يدخلون الجنة)، فلم يصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فأولئك يدخلون الجنة)؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله بعدها (ولا يظلمون نقيرًا) معطوفٌ على قوله (يدخلون الجنة)، وهو عطفٌ وثيق الصلة لأنه من تتمة بيان الجزاء، وذلك أن جزاءهم دخول الجنة، وأنهم لا ينقصون من أجرهم شيئًا.

الآية التي تليها: (ومن أحسن دينًا ممن أسلم وجهه لله وهو محسنٌ) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، نص على ذلك الأشموني، لماذا؟ لأن قوله بعدها (واتبع ملة إبراهيم حنيفًا) معطوفٌ على قوله (أسلم وجهه لله)، وهو عطفٌ وثيق الصلة، لأن الجملة قد تضمنت بيان صفات أحسن الناس دينًا، فذكر الله لهم ثلاث صفات، فلا يصح الفصل بينها، قال (ومن أحسن دينًا ممن أسلم وجهه لله) هذا واحد، (وهو محسن) هذا الثاني، (واتبع ملة إبراهيم حنيفًا)، فلا وقف إلا على قوله (حنيفًا)، كما نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، وذلك أن صفات أحسن الناس دينًا قد انتهت هنا، ثم ذكر الله سبحانه وتعالى خبرًا عن منزلة إبراهيم عليه السلام عنده سبحانه بعد أن أمر باتباع ملته فقال (واتخذ الله إبراهيم خليلاً)، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

الآية الأخيرة: (ولله ما في السموات وما في الأرض) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة الاسمية المتضمنة بيان أن لله ملك السموات والأرض قد انتهت هنا، ثم جاءت جملةٌ مستأنفةٌ مبدوءةٌ بـ(كان) تضمنت بيان اطلاع الله على كل شيءٍ في قوله (وكان الله بكل شيءٍ محيطًا)، فصح الفصل بينهما، والله تعالى أعلم.

هذا آخر ما في هذا المقطع، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يعلّمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علّمنا، وأن يزيدنا علمًا وعملاً وهدًى وتقًى، والله تعالى أعلم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله الرحمن الرحيم

فوائد ولطائف سورة النساء ١١٦-١٢٦

(إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا):

عن ابن مسعود قال: في خمس آيات من سورة النساء: لهن أحب إلي من الدنيا جميعا: (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم)، وقوله: (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها)، وقوله: (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)، وقوله: (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما)، وقوله: (والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا رحيما). تفسير الطبري (٨/ ٢٥٥).

وقال السعدي: الشرك لا يغفره الله تعالى لتضمنه القدح في رب العالمين وفي وحدانيته، وتسوية المخلوق الذي لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا بمن هو مالك النفع والضر، الذي ما من نعمة إلا منه، ولا يدفع النقم إلا هو، الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه، والغنى التام بجميع وجوه الاعتبارات.
فمن أعظم الظلم وأبعد الضلال عدم إخلاص العبادة لمن هذا شأنه وعظمته، وصرف شيء منها للمخلوق الذي ليس له من صفات الكمال شيء، ولا له من صفات الغنى شيء، بل ليس له إلا العدم. عدم الوجود وعدم الكمال وعدم الغنى، والفقر من جميع الوجوه.
وأما ما دون الشرك من الذنوب والمعاصي فهو تحت المشيئة، إن شاء الله غفره برحمته وحكمته، وإن شاء عذب عليه وعاقب بعدله وحكمته. تفسير السعدي (ص: ٢٠٣).

(إن يدعون من دونه إلا إناثا):

قال البغوي: أراد بالإناث الأوثان، لأنهم كانوا يسمونها باسم الإناث، فيقولون: اللات والعزى ومناة، وكانوا يقولون لصنم كل قبيلة: أنثى بني فلان، فكان في كل واحدة منهن شيطان يتراءى للسدنة والكهنة ويكلمهم، فلذلك قال: (وإن يدعون إلا شيطانا مريدا) هذا قول أكثر المفسرين. تفسير البغوي (١/ ٧٠٢).

وقال ابن كثير: قال جويبر عن الضحاك في قوله: {إن يدعون من دونه إلا إناثا} قال المشركون: إن الملائكة بنات الله، وإنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى، قال: اتخذوها أربابا وصوروهن صور الجواري، فحكموا وقلدوا، وقالوا: هؤلاء يشبهن بنات الله الذي نعبده، يعنون الملائكة. وهذا التفسير شبيه بقوله تعالى: {أفرأيتم اللات والعزى. ومناة الثالثة الأخرى. ألكم الذكر وله الأنثى. تلك إذا قسمة ضيزى. إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان}، وقال تعالى: {وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون}، وقال تعالى: {وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون. سبحان الله عما يصفون}. تفسير ابن كثير (٢/ ٤١٤).

(وإن يدعون إلا شيطانا مريدا):

قال ابن كثير: أي: هو الذي أمرهم بذلك وحسنه لهم وزينه، وهم إنما يعبدون إبليس في نفس الأمر، كما قال تعالى: {ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين}، وقال تعالى إخبارا عن الملائكة أنهم يقولون يوم القيامة عن المشركين الذين ادعوا عبادتهم في الدنيا: {بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون}. تفسير ابن كثير (٢/ ٤١٥).

(وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا):

قال السعدي: {لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا} أي: مقدرا. علم اللعين أنه لا يقدر على إغواء جميع عباد الله، وأن عباد الله المخلصين ليس له عليهم سلطان، وإنما سلطانه على من تولاه، وآثر طاعته على طاعة مولاه. وأقسم في موضع آخر ليغوينهم {لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين} فهذا الذي ظنه الخبيث وجزم به أخبر الله تعالى بوقوعه بقوله: {ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين}. تفسير السعدي (ص: ٢٠٤).

(ولأضلنّهم ولأمنينّهم):

قال البغوي: (ولأضلنهم) يعني: عن الحق، أي: لأغوينهم، يقوله إبليس، وأراد به التزيين، وإلا فليس إليه من الإضلال شيء، كما قال: (لأزينن لهم في الأرض)، (ولأمنّينّهم) قيل: أمنينهم ركوب الأهواء، وقيل: أمنينهم أن لا جنة ولا نار ولا بعث، وقيل: أمنينهم إدراك الآخرة مع ركوب المعاصي. تفسير البغوي (١/ ٧٠٣).

وقال السعدي: {ولأضلنهم} أي: عن الصراط المستقيم، ضلالا في العلم، وضلالا في العمل.
{ولأمنينهم} أي: مع الإضلال، لأمنينهم أن ينالوا ما ناله المهتدون. وهذا هو الغرور بعينه، فلم يقتصر على مجرد إضلالهم حتى زين لهم ما هم فيه من الضلال. وهذا زيادة شر إلى شرهم، حيث عملوا أعمال أهل النار الموجبة للعقوبة، وحسبوا أنها موجبة للجنة، واعتبر ذلك باليهود والنصارى ونحوهم، فإنهم كما حكى الله عنهم {وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم}، {كذلك زينا لكل أمة عملهم}، {قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا * الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا}، وقال تعالى عن المنافقين إنهم يقولون يوم القيامة للمؤمنين: {ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور} . تفسير السعدي (ص: ٢٠٤).

(ولآمرنّهم فليُغَيِّرُنّ خلق الله):

قال الطبري: وأولى الأقوال بالصواب في تأويل ذلك قول من قال: معناه: (ولآمرنهم فليغيرن خلق الله)، قال: دين الله. وذلك لدلالة الآية الأخرى على أن ذلك معناه، وهي قوله: (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم)، وإذا كان ذلك معناه، دخل في ذلك فعل كل ما نهى الله عنه: من خصاء ما لا يجوز خصاؤه، ووشم ما نهي عن وشمه ووشره، وغير ذلك من المعاصي، ودخل فيه ترك كل ما أمر الله به؛ لأن الشيطان لا شك أنه يدعو إلى جميع معاصي الله، وينهى عن جميع طاعته. تفسير الطبري (٩/ ٢٢٢).

وقال البغوي: قيل: تغيير خلق الله هو أن الله تعالى خلق الأنعام للركوب والأكل فحرموها، وخلق الشمس والقمر والأحجار لمنفعة العباد فعبدوها من دون الله. تفسير البغوي (١/ ٧٠٣).

وقال ابن تيمية: (ولآمرنهم فليغيرن خلق الله)، فتغيير ما خلق الله عليه عباده من الدين تغيير لخلقه، والخصاء وقطع الأذن أيضاً تغيير لخلقه. ولهذا شبه النبي صلى الله عليه وسلم أحدهما بالآخر في قوله: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟». فأولئك يغيرون الدين، وهؤلاء يغيرون الصورة بالجدع والخصاء، هذا تغيير لما خلقت عليه نفسه، وهذا تغيير ما خلق عليه بدنه. درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٣٧٧).

وقال ابن كثير: قال الحسن البصري: يعني بذلك الوشم. وفي صحيح مسلم النهي عن الوشم في الوجه، وفي لفظ: (لعن الله من فعل ذلك). وفي الصحيح عن ابن مسعود أنه قال: (لعن الله الواشمات والمستوشمات، والنامصات والمتنمصات، والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله عز وجل)، ثم قال: ألا ألعن من لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو في كتاب الله عز وجل، يعني قوله: {وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا} . تفسير ابن كثير (٢/ ٤١٥).

وقال السعدي: {ولآمرنهم فليغيرن خلق الله} وهذا يتناول تغيير الخلقة الظاهرة بالوشم، والوشر، والنمص والتفلج للحسن، ونحو ذلك مما أغواهم به الشيطان فغيروا خلقة الرحمن. وذلك يتضمن التسخط من خلقته، والقدح في حكمته، واعتقاد أن ما يصنعون بأيديهم أحسن من خلقة الرحمن، وعدم الرضا بتقديره وتدبيره.

ويتناول أيضا تغيير الخلقة الباطنة، فإن الله تعالى خلق عباده حنفاء مفطورين على قبول الحق وإيثاره، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن هذا الخلق الجميل، وزينت لهم الشر والشرك والكفر والفسوق والعصيان. فإن كل مولود يولد على الفطرة، ولكن أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، ونحو ذلك مما يغيرون به ما فطر الله عليه العباد من توحيده وحبه ومعرفته. فافترستهم الشياطين في هذا الموضع افتراس السبع والذئاب للغنم المنفردة. لولا لطف الله وكرمه بعباده المخلصين لجرى عليهم ما جرى على

هؤلاء المفتونين، وهذا الذي جرى عليهم من توليهم عن ربهم وفاطرهم، وتوليهم لعدوهم المريد لهم الشر من كل وجه، فخسروا الدنيا والآخرة، ورجعوا بالخيبة والصفقة الخاسرة. تفسير السعدي (ص: ٢٠٤).

(ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا):

قال السعدي: وأي خسار أبين وأعظم ممن خسر دينه ودنياه وأوبقته معاصيه وخطاياه؟! فحصل له الشقاء الأبدي، وفاته النعيم السرمدي. كما أن من تولى مولاه وآثر رضاه ربح كل الربح، وأفلح كل الفلاح، وفاز بسعادة الدارين، وأصبح قرير العين، فلا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، اللهم تولنا فيمن توليت، وعافنا فيمن عافيت. تفسير السعدي (ص: ٢٠٤).

(يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا):

قال الطبري: وإنما جعل عدته إياهم جل ثناؤه ما وعدهم غرورا، لأنهم كانوا يحسبون أنهم في اتخاذهم إياه وليا على حقيقة من عداته الكذب وأمانيه الباطلة، حتى إذا حصحص الحق، وصاروا إلى الحاجة إليه، قال لهم عدو الله: (إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل). وكما قال للمشركين ببدر، وقد زين لهم أعمالهم: (لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان)، وحصحص الحق، وعاين جد الأمر ونزول عذاب الله بحزبه (نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب)، فصارت عِداة عدو الله إياهم عند حاجتهم إليه غرورا (كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه). تفسير الطبري (٩/ ٢٢٥).

وقال البغوي: وعده وتمنيته ما يوقع في قلب الإنسان من طول العمر ونيل الدنيا، وقد يكون بالتخويف بالفقر فيمنعه من الإنفاق وصلة الرحم، كما قال الله تعالى: (الشيطان يعدكم الفقر)، ويمنيهم بأن لا بعث ولا جنة ولا نار. تفسير البغوي (١/ ٧٠٤).

وقال السعدي: {يعدهم ويمنيهم} أي: يعد الشيطان من يسعى في إضلالهم، والوعد يشمل حتى الوعيد، كما قال تعالى: {الشيطان يعدكم الفقر}، فإنه يعدهم إذا أنفقوا في سبيل الله افتقروا، ويخوفهم إذا جاهدوا بالقتل وغيره، كما قال تعالى: {إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه} الآية. ويخوفهم عند إيثار مرضاة الله بكل ما يمكن وما لا يمكن مما يدخله في عقولهم حتى يكسلوا عن فعل الخير، وكذلك يمنيهم الأماني الباطلة التي هي عند التحقيق كالسراب الذي لا حقيقة له. تفسير السعدي (ص: ٢٠٤).

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا):

قال السعدي: {وعملوا الصالحات} الناشئة عن الإيمان، وهذا يشمل سائر المأمورات من واجب ومستحب، الذي على القلب، والذي على اللسان، والذي على بقية الجوارح. كل له من الثواب المرتب على ذلك بحسب حاله ومقامه، وتكميله للإيمان والعمل الصالح. ويفوته ما رتب على ذلك بحسب ما أخل به من الإيمان والعمل، وذلك بحسب ما علم من حكمة الله ورحمته، وكذلك وعده الصادق الذي يعرف من تتبع كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ولهذا ذكر الثواب المرتب على ذلك بقوله: {سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار} فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، من أنواع المآكل والمشارب اللذيذة، والمناظر العجيبة، والأزواج الحسنة، والقصور والغرف المزخرفة، والأشجار المتدلية، والفواكه المستغربة، والأصوات الشجية، والنعم السابغة، وتزاور الإخوان، وتذكرهم ما كان منهم في رياض الجنان، وأعلى من ذلك كله وأجل رضوان الله عليهم، وتمتع الأرواح بقربه، والعيون برؤيته، والأسماع بخطابه الذي ينسيهم كل نعيم وسرور، ولولا الثبات من الله لهم لطاروا وماتوا من الفرح والحبور، فلله ما أحلى ذلك النعيم وما أعلى ما أنالهم الرب الكريم، وماذا حصل لهم من كل خير وبهجة لا يصفه الواصفون، وتمام ذلك وكماله الخلود الدائم في تلك المنازل العاليات. تفسير السعدي (ص: ٢٠٥).

(ومن أصدق من الله قيلا):

قال ابن كثير: أي: لا أحد أصدق منه قولا وخبرا، لا إله إلا هو، ولا رب سواه. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في خطبته: (إن أصدق الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار). تفسير ابن كثير (٢/ ٤١٦).

(ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب):

سبب النزول: عن ابن عباس في قوله: (ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب)، إلى: (ولا نصيرا) تحاكم أهل الأديان، فقال أهل التوراة: كتابنا خير الكتب، أنزل قبل كتابكم، ونبينا خير الأنبياء! وقال أهل الإنجيل مثل ذلك، وقال أهل الإسلام: لا دين إلا الإسلام، كتابنا نسخ كل كتاب، ونبينا خاتم النبيين، وأمرتم وأمرنا أن نؤمن بكتابكم، ونعمل بكتابنا! فقضى الله بينهم فقال: (ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به)، وخيّر بين أهل الأديان فقال: (ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله إبراهيم خليلا). تفسير الطبري (٩/ ٢٣٠).

عن مجاهد في قوله: (ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به)، قال: قالت العرب: لن نبعث ولن نعذب، وقالت اليهود والنصارى: (لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى)، أو قالوا: (لن تمسنا النار إلا أياما معدودة). تفسير الطبري (٩/ ٢٣٢).

وقال الطبري: وأولى التأويلين بالصواب في ذلك، ما قال مجاهد: من أنه عني بقوله: (ليس بأمانيكم) مشركي قريش. وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب، لأن المسلمين لم يجر لأمانيهم ذكر فيما مضى من الآي قبل قوله: (ليس بأمانيكم)، وإنما جرى ذكر أماني نصيب الشيطان المفروض، وذلك في قوله: (ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام)، وقوله: (يعدهم ويمنيهم)، فإلحاق معنى قوله جل ثناؤه: (ليس بأمانيكم) بما قد جرى ذكره قبل أحق وأولى من ادعاء تأويل فيه لا دلالة عليه من ظاهر التنزيل، ولا أثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا إجماع من أهل التأويل.

وإذ كان ذلك كذلك، فتأويل الآية إذا: ليس الأمر بأمانيكم، يا معشر أولياء الشيطان وحزبه، التي يمنيكموها وليكم عدو الله من إنقاذكم ممن أرادكم بسوء، ونصرتكم عليه وإظفاركم به، ولا أماني أهل الكتاب الذين قالوا اغترارا بالله وبحلمه عنهم: (لن تمسنا النار إلا أياما معدودة) و (لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى)، فإن الله مجاز كل عامل منكم جزاء عمله. تفسير الطبري (٩/ ٢٣٤).

وقال ابن كثير: الدين ليس بالتحلي ولا بالتمني، وليس كل من ادعى شيئا حصل له بمجرد دعواه، ولا كل من قال: إنه هو المحق سمع قوله بمجرد ذلك، حتى يكون له من الله برهان؛ ولهذا قال تعالى: {ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب} أي: ليس لكم ولا لهم النجاة بمجرد التمني، بل العبرة بطاعة الله، واتباع ما شرعه على ألسنة رسله الكرام. تفسير ابن كثير (٢/ ٤١٧).

(من يعمل سوءا يُجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا):

عن أبي هريرة، قال: لما نزلت {من يعمل سوءا يجز به} بلغت من المسلمين مبلغا شديدا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قاربوا، وسددوا، ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة، حتى النكبة يُنكبُها، أو الشوكة يُشاكُها». صحيح مسلم (٤/ ١٩٩٣).

عن عائشة، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا كثرت ذنوب العبد، ولم يكن له ما يكفرها من العمل، ابتلاه الله عز وجل بالحزن ليكفرها عنه). مسند أحمد (٤٢/ ١٣٤).

عن عائشة، قالت: قلت: يا رسول الله، إني لأعلم أشد آية في القرآن؟ قال: «أية آية يا عائشة؟»، قالت: قول الله تعالى: {من يعمل سوءا يجز به}، قال: «أما علمت يا عائشة، أن المؤمن تصيبه النكبة، أو الشوكة فيكافأ بأسوإ عمله، ومن حوسب عذب» قلت: أليس الله يقول: {فسوف يحاسب حسابا يسيرا}، قال: «ذاكم العرض، يا عائشة من نوقش الحساب عُذّب». سنن أبي داود (٣/ ١٨٤).

وقال ابن تيمية: قال تعالى: {من يعمل سوءا يجز به} . وقد سأل أبو بكر النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال: يا رسول الله وأينا لم يعمل سوءا؟ فقال: (يا أبا بكر! ألست تنصب؟ ألست تحزن؟ ألست تصيبك اللأواء؟ فذلك ما تجزون به)، فبين أن المؤمن الذي إذا تاب دخل الجنة قد يجزى بسيئاته في الدنيا بالمصائب التي تصيبه، كما في الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيئها الرياح تقومها تارة وتميلها أخرى، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز، لا تزال ثابتة على أصلها حتى يكون انجعافها مرة واحدة). وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا هم ولا حزن ولا غم ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفّر الله بها من خطاياه)، وفي حديث سعد بن أبي وقاص قلت: يا رسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال: (الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل؛ يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خفف عنه، ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة)، رواه أحمد والترمذي وغيرهما. وقال صلى الله عليه وسلم: (المرض حِطة، يحط الخطايا عن صاحبه كما تحط الشجرة اليابسة ورقها)، والأحاديث في هذا الباب كثيرة. مجموع الفتاوى (٧/ ٨٠-٨١).

وقال السعدي: {من يعمل سوءا يجز به} وهذا شامل لجميع العاملين، لأن السوء شامل لأي ذنب كان من صغائر الذنوب وكبائرها، وشامل أيضا لكل جزاء، قليل أو كثير، دنيوي أو أخروي.

والناس في هذا المقام درجات لا يعلمها إلا الله، فمستقل ومستكثر، فمن كان عمله كله سوءا وذلك لا يكون إلا كافرا. فإذا مات من دون توبة جوزي بالخلود في العذاب الأليم.

ومن كان عمله صالحا، وهو مستقيم في غالب أحواله، وإنما يصدر منه بعض الأحيان بعض الذنوب الصغار فما يصيبه من الهم والغم والأذى وبعض الآلام في بدنه أو قلبه أو حبيبه أو ماله ونحو ذلك - فإنها مكفرات للذنوب، وهي مما يجزى به على عمله، قيضها الله لطفا بعباده، وبين هذين الحالين مراتب كثيرة.

وهذا الجزاء على عمل السوء العام مخصوص في غير التائبين، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، كما دلت على ذلك النصوص. تفسير السعدي (ص: ٢٠٥).

(ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة):

قال الطبري: فإن قال لنا قائل: ما وجه دخول: (مِن) في قوله: (ومن يعمل من الصالحات)، ولم يقل: ومن يعمل الصالحات؟ قيل: لدخولها وجهان:

أحدهما: أن يكون الله قد علم أن عباده المؤمنين لن يطيقوا أن يعملوا جميع الأعمال الصالحات، فأوجب وعده لمن عمل ما أطاق منها، ولم يحرمه من فضله بسبب ما عجزت عن عمله منها قوته.

والآخر منهما: أن يكون تعالى ذكره أوجب وعده لمن اجتنب الكبائر وأدى الفرائض، وإن قصر في بعض الواجب له عليه، تفضلا منه على عباده المؤمنين، إذ كان الفضل به أولى، والصفح عن أهل الإيمان به أحرى. تفسير الطبري (٩/ ٢٤٩).

وقال السعدي: (وهو مؤمن) وهذا شرط لجميع الأعمال، لا تكون صالحة ولا تقبل ولا يترتب عليها الثواب ولا يندفع بها العقاب إلا بالإيمان. فالأعمال بدون الإيمان كأغصان شجرة قطع أصلها، وكبناء بني على موج الماء، فالإيمان هو الأصل والأساس والقاعدة التي يبنى عليه كل شيء، وهذا القيد ينبغي التفطن له في كل عمل أطلق، فإنه مقيد به. تفسير السعدي (ص: ٢٠٥).

(ولا يُظلمون نقيرا):

قال ابن كثير: النقير هو: النقرة التي في ظهر نواة التمرة، وقد تقدم الكلام على الفتيل، وهو الخيط الذي في شق النواة، وهذا النقير، وهما في نواة التمرة، وكذا القطمير، وهو اللفافة التي على نواة التمرة، الثلاثة في القرآن. تفسير ابن كثير (٢/ ٤٢١).

(ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتّبع ملة إبراهيم حنيفا):

قال ابن تيمية: لفظ (أسلم) يتضمن شيئين: أحدهما الإخلاص، والثاني الاتباع والإذلال. كما أن (أسلم) إذا استعمل لازما مثل: (ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك)، وقوله: (أسلمت لرب العالمين)، يتضمن الخضوع لله والإخلاص له. وضد ذلك إما الكبر وإما الشرك، وهما أعظم الذنوب، ولهذا كان الدين عند الله الإسلام، فإن دين الله أن نعبده وحده لا شريك له، وهذا حقيقة قول لا إله إلا

الله، وبه بعثت الرسل جميعها، ومن عبادته وحده أن لا نشرك به، ولا نتكبر عن أمره. جامع المسائل لابن تيمية (٦/ ٢٨).

وقال ابن كثير: {ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله} أخلص العمل لربه عز وجل، فعمل إيمانا واحتسابا، {وهو محسن} أي: اتبع في عمله ما شرعه الله له، وما أَرسل به رسوله من الهدى ودين الحق، وهذان الشرطان لا يصح عمل عامل بدونهما، أي: يكون خالصا صوابا، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون متبعا للشريعة، فيصح ظاهره بالمتابعة، وباطنه بالإخلاص، فمتى فقد العمل أحد هذين الشرطين فسد. فمن فقد الإخلاص كان منافقا، وهم الذين يراءون الناس، ومن فقد المتابعة كان ضالا جاهلا. ومتى جمعهما فهو عمل المؤمنين: {الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون}؛ ولهذا قال تعالى: {واتبع ملة إبراهيم حنيفا} وهم محمد وأتباعه إلى يوم القيامة، كما قال تعالى: {إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين}، وقال تعالى: {قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين}، و {ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين}. تفسير ابن كثير (٢/ ٤٢٢).

وقال البقاعي: لمّا عبّر تعالى عن كمال الاعتقاد بالماضي، شرط فيه الدوام والأعمال الظاهرة بقوله: {وهو} أي والحال أنه {محسن}، أي: مؤمن مراقب، لا غفلة عنده أصلا، بل الإحسان صفة له راسخة، لأنه يعبد الله كأنه يراه. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٤١٣).

وقال البغوي: قال ابن عباس رضي الله عنهما: ومن دين إبراهيم: الصلاة إلى الكعبة، والطواف بها، ومناسك الحج، وإنما خُص بها إبراهيم لأنه كان مقبولا عند الأمم أجمع، وقيل: لأنه صلى الله عليه وسلم بُعث على ملة إبراهيم وزيدت له أشياء. تفسير البغوي (١/ ٧٠٥).

(واتّخذ الله إبراهيم خليلا):

قال الطبري: فإن قال قائل: وما معنى (الخلة) التي أعطيها إبراهيم؟

قيل: ذلك من إبراهيم عليه السلام: العداوة في الله والبغض فيه، والولاية في الله والحب فيه، على ما يعرف من معاني (الخلة). وأما من الله لإبراهيم، فنصرته على من حاوله بسوء، كالذي فعل به إذ أراده نمرود بما أراده به من الإحراق بالنار فأنقذه منها، أو على حجته عليه إذ حاجه، وكما فعل بملك مصر إذ أراده عن أهله، وتمكينه مما أحب، وتصييره إماما لمن بعده من عباده، وقدوة لمن خلْفه في طاعته وعبادته. فذلك معنى مخالّته إياه. تفسير الطبري (٩/ ٢٥١-٢٥٢).

وقال البغوي: قال الزجاج: معنى الخليل: الذي ليس في محبته خلل، والخلة: الصداقة، فسمي خليلا لأن الله أحبه واصطفاه. وقيل: هو من الخلة وهي الحاجة، سمي خليلا، أي: فقيرا إلى الله؛ لأنه لم يجعل فقره وفاقته إلا إلى الله عز وجل، والأول أصح؛ لأن قوله (واتخذ الله إبراهيم خليلا) يقتضي الخلة من الجانبين، ولا تتصور الحاجة من الجانبين. تفسير البغوي (١/ ٧٠٦).

وقال ابن تيمية: وإبراهيم ومحمد كل منهما خليل الله، فإنه قد ثبت في الصحاح من غير وجه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: {إن الله اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا}، وقد ثبت في الصحيح: أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم: يا خير البرية، قال: {ذاك إبراهيم}. فإبراهيم أفضل الخلق بعد محمد صلى الله عليه وسلم. وقوله: (ذاك إبراهيم) تواضع منه، فإنه قد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيح أنه قال: {أنا سيد ولد آدم ولا فخر، آدم فمن دونه تحت لوائي يوم القيامة ولا فخر}. مجموع الفتاوى (١٧/ ٤٨٢).

وقال ابن كثير: {واتخذ الله إبراهيم خليلا} وهذا من باب الترغيب في اتباعه؛ لأنه إمام يقتدى به، حيث وصل إلى غاية ما يتقرب به العباد له، فإنه انتهى إلى درجة الخلة التي هي أرفع مقامات المحبة، وما ذاك إلا لكثرة طاعته لربه، كما وصفه به في قوله: {وإبراهيم الذي وفّى}، قال كثيرون من السلف: أي قام بجميع ما أمر به، ووفى كل مقام من مقامات العبادة، فكان لا يشغله أمر جليل عن حقير، ولا كبير عن

صغير. وقال تعالى: {وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما} الآية. وقال تعالى: {إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم. وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين}.

وقال البخاري:... عن عمرو بن ميمون قال: إن معاذا لما قدم اليمن صلى الصبح بهم: فقرأ: {واتخذ الله إبراهيم خليلا}، فقال رجل من القوم: لقد قرت عين أم إبراهيم.

وقد ذكر ابن جرير في تفسيره، عن بعضهم أنه إنما سماه الله خليلا من أجل أنه أصاب أهل ناحيته جدب، فارتحل إلى خليل له من أهل الموصل -وقال بعضهم: من أهل مصر -ليمتار طعاما لأهله من قبله، فلم يصب عنده حاجته. فلما قرب من أهله مرّ بمفازة ذات رمل، فقال: لو ملأت غرائري من هذا الرمل، لئلا أغم أهلي برجوعي إليهم بغير ميرة، وليظنوا أني أتيتهم بما يحبون، ففعل ذلك، فتحول ما في غرائره من الرمل دقيقا، فلما صار إلى منزله نام، وقام أهله ففتحوا الغرائر، فوجدوا دقيقا، فعجنوا وخبزوا منه، فاستيقظ، فسألهم عن الدقيق الذي منه خبزوا، فقالوا: من الدقيق الذي جئت به من عند خليلك، فقال: نعم، هو من خليلي الله. فسماه الله بذلك خليلا. وفي صحة هذا ووقوعه نظر، وغايته أن يكون خبرا إسرائيليا لا يصدق ولا يكذب، وإنما سمي خليل الله لشدة محبة ربه عز وجل له، لما قام له من الطاعة التي يحبها ويرضاها...

وعن إسحاق بن يسار قال: لما اتخذ الله إبراهيم خليلا ألقى في قلبه الوجل، حتى إن كان خفقان قلبه ليسمع من بعيد كما يسمع خفقان الطير في الهواء. وهكذا جاء في صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه كان يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء. تفسير ابن كثير (٢/ ٤٢٢-٤٢٤).

بسم الله الرحمن الرحيم

العمل بالآيات من سورة النساء ١١٦-١٢٦

١- احذر الشرك كبيره وصغيره، قليله وكثيره، فإنه أعظم الظلم، وأكبر الجُرم، وهو الذنب الذي لا يغفره الله إلا بالتوبة، وهو الذي يُحبط الأعمال كلها، ولا يُقبل معه عمل صالح، ونهايته الخلود في النار، وحقيقته عبادة الشيطان، واتّباع قوله وأمره، ولا يمكنك النجاة منه إلا بمعرفة الشرك للحذر منه، والاستعاذة بالله من الوقوع فيه، فقل دوما: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم، وادعُ بدعوة الخليل عليه السلام: ربّ اجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام (إنّ الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا * إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطانا مريدا * لعنه الله).

٢- احذر وساوس الشيطان ومكائده ودسائسه، فإنه قد أقسم بعزة الله أنه سيسعى في إضلالك وإغوائك، واعلم أنه يمنّيك بالركون إلى الدنيا وزخرفها، ويعدك بطول العمر، وينسيك الموت والآخرة، ويستدرجك بالأماني الكاذبة، ويعلّقك بالأوهام الزائلة، ولو استطاع لأخرجك من الإيمان إلى الكفر، فكن بمكره بصيرا، وبمداخله خبيرا، حتى لا تخسر خسرانا مبينا، فتكون من أهل النار وبئس المصير (وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا * ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنّهم فليبتّكنّ آذان الأنعام ولآمرنّهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا * يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا * أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصا).

٣- لا تطع الشيطان فيما يدعو إليه من النمص والوشم وتغيير خلق الله بالعمليات والمساحيق وغير ذلك، وانصح من يقع في ذلك من محارمك، فإن في ذلك اعتراضا على خلق الله وقدره، وفيه ميل إلى الترف والسرف (ولآمرنّهم فليغيرنّ خلق الله).

٤- تحلّ بالإيمان، وتزيّن بالعمل الصالح لتفوز بوعد الله لك بجنة عرضها السماوات والأرض، حيث النعيم الدائم الذي لا يشوبه كدر ولا هم ولا غم ولا مصيبة ولا أذى، واعلم أن الجنة لا تنال بالأماني الكاذبة التي لا يصحبها إيمان ولا عمل صالح، ولا تنال بالجرأة على عمل السيئات، كما يزيّن ذلك الشيطان وأتباعه، بل تنال بالإيمان والعمل الصالح، فالجزاء من جنس العمل (والذين

آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا وعد الله حقا ومن أصدق من الله قيلا * ليس بأمانيّكم ولا أمانيّ أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا * ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا).

٥- أخلص لله، واستسلم لأمره، وأذعن لشرعه، وأحسن في عبادته، واتّبع ملة إبراهيم الخليل عليه السلام بالميل عن الشرك إلى التوحيد، وعن الباطل إلى الحق، وعن البدعة إلى السنة، لتكون من أحسن الناس دينا، وتسير على الصراط المستقيم، وتفوز بمحبة الله الودود (ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتّبع ملة إبراهيم حنيفا واتّخذ الله إبراهيم خليلا).

٦- الله سبحانه هو الذي يملك ما في السماوات وما في الأرض، وهو الذي يحيط علما بكل شيء، فسله حاجاتك كلها متضرّعا ملحّا وأنت موقن بالإجابة، وأبشر بالخير العظيم (ولله ما في السماوات وما في الأرض وكان الله بكل شيء محيطا).

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة النساء (١٢٧-١٣٥) من التفسير الميسّر

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا (١٢٧)

يطلب الناس منك -أيها النبي- أن تبين لهم ما أشكل عليهم فَهْمُه من قضايا النساء وأحكامهن، قل الله تعالى يبيِّن لكم أمورهن، وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تعطونهن ما فرض الله تعالى لهن من المهر والميراث وغير ذلك من الحقوق، وتحبون نكاحهن أو ترغبون عن نكاحهن، ويبيِّن الله لكم أمر الضعفاء من الصغار، ووجوب القيام لليتامى -وهم الذين مات آباؤهم وهم دون سن البلوغ- بالعدل وترك الجور عليهم في حقوقهم. وما تفعلوا من خير فإن الله تعالى كان به عليمًا، لا يخفى عليه شيء منه ولا من غيره.

وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٢٨)

وإن علمت امرأة من زوجها ترفعًا عنها، وتعاليًا عليها أو انصرافًا عنها فلا إثم عليهما أن يتصالحا على ما تطيب به نفوسهما من القسمة أو النفقة، والصلح أولى وأفضل. وجبلت النفوس على الشح والبخل. وإن تحسنوا معاملة زوجاتكم وتخافوا الله فيهن، فإن الله كان بما تعملون من ذلك وغيره عالمًا لا يخفى عليه شيء، وسيجازيكم على ذلك.

وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (١٢٩)

ولن تقدروا -أيها الرجال- على تحقيق العدل التام بين النساء في المحبة وميل القلب، مهما بذلتم في ذلك من الجهد، فلا تعرضوا عن المرغوب عنها كل الإعراض، فتتركوها كالمرأة التي ليست بذات زوج ولا هي مطلقة فتأثموا. وإن تصلحوا أعمالكم فتعدلوا في قَسْمكم بين زوجاتكم، وتراقبوا الله تعالى وتخشوه فيهن، فإن الله تعالى كان غفورًا لعباده، رحيمًا بهم.

وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللهُ وَاسِعًا حَكِيمًا (١٣٠)

وإن وقعت الفرقة بين الرجل وامرأته، فإن الله تعالى يغني كلا منهما من فضله وسعته؛ فإنه سبحانه وتعالى واسع الفضل والمنة، حكيم فيما يقضي به بين عباده.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (١٣١)

ولله ملك ما في السموات وما في الأرض وما بينهما. ولقد عهدنا إلى الذين أُعطوا الكتاب من قبلكم من اليهود والنصارى، وعهدنا إليكم كذلك -يا أمة محمد- بتقوى الله تعالى، والقيام بأمره واجتناب نهيه، وبيَّنَّا لكم أنكم إن تجحدوا وحدانية الله تعالى وشرعه فإنه سبحانه غني عنكم؛ لأن له جميع ما في السموات والأرض. وكان الله غنيّا عن خلقه، حميدًا في صفاته وأفعاله.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا (١٣٢)

ولله ملك ما في هذا الكون من الكائنات، وكفى به سبحانه قائمًا بشؤون خلقه حافظًا لها.

إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا (١٣٣)

إن يشأ الله يُهلكُّم أيها الناس، ويأت بقوم آخرين غيركم. وكان الله على ذلك قديرًا.

مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (١٣٤)

من يرغب منكم -أيها الناس- في ثواب الدنيا ويعرض عن الآخرة، فعند الله وحده ثواب الدنيا والآخرة، فليطلب من الله وحده خيري الدنيا والآخرة، فهو الذي يملكهما. وكان الله سميعًا لأقوال عباده، بصيرًا بأعمالهم ونياتهم، وسيجازيهم على ذلك.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥)

يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، كونوا قائمين بالعدل، مؤدين للشهادة لوجه الله تعالى، ولو كانت على أنفسكم، أو على آبائكم وأمهاتكم، أو على أقاربكم، مهما كان شأن المشهود عليه غنيًّا أو فقيرًا؛ فإن الله تعالى أولى بهما منكم، وأعلم بما فيه صلاحهما، فلا يحملنَّكم الهوى والتعصب على ترك العدل، وإن تحرفوا الشهادة بألسنتكم فتأتوا بها على غير حقيقتها، أو تعرضوا عنها بترك أدائها أو بكتمانها، فإن الله تعالى كان عليمًا بدقائق أعمالكم، وسيجازيكم بها.

بسم الله الرحمن الرحيم

معاني كلمات سورة النساء (١٢٧-١٣٥)

الكلمة	المعنى
بالقِسط	بالعدل
بعلِها	زوجِها
نُشُوزا	ترفّعا عنها وعدم رغبة فيها
واُحضِرت الأنفس الشُحّ	وجُبِلت النفوس على البُخل
فتذرُوها كالمُعلّقة	فتتركوها لا هي مطلّقة ولا ذات زوج
وَكِيلا	شهيدا وقائما بتدبير شؤون خلقه
يُذهِبكم	يُهلككم
تَلوُوا	تَحرِفوا الشهادة عن وجهها
أو تُعرِضوا	أو تتركوا القيام بالشهادة أصلا

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقف والابتداء في سورة النساء ١٢٧-١٣٥

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذه الفقرة المتعلقة بالوقف والابتداء في الآيات من سورة النساء من الآية السابعة والعشرين بعد المائة، وحتى الآية الخامسة والثلاثين بعد المائة.

أبدأ بالآية الأولى وهي قول الله تعالى (ويستفتونك في النساء) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه بعض علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن ما استفتوا عنه قد انتهى هنا، ثم جاء الجواب عن استفتائهم بقوله (قل الله يفتيكم فيهن)، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (قل الله يفتيكم فيهن)؟

الجواب: لا يصح، نص على ذلك ابن الأنباري والنحاس والسجاوندي والأشموني، ووجه ذلك أن قوله بعدها (وما يتلى عليكم) يحتمل أن يكون معطوفًا على اسم الله سبحانه وتعالى، فتقدير الجملة: قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب يفتيكم فيهن، ويحتمل أن يكون معطوفًا على مذهب الكوفيين على الهاء والنون في قوله (فيهن) يعني يكون تقدير الجملة: قل الله يفتيكم فيهن ويفتيكم فيما يتلى عليكم في الكتاب، وهذا لا يصح على مذهب البصريين، لأن فيه عطفًا لظاهرٍ على مضمرٍ بدون تكرار حرف الجر، وبالتالي لا يصح الوقف على قوله (قل الله يفتيكم فيهن).

وهل يصح الوقف على قوله (اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن)؟

الجواب: لا يصح، نص على ذلك النحاس والأشموني، ووجه ذلك أن قوله بعدها (وترغبون أن تنكحوهن) معطوفٌ على ما قبله، وهو من تتمة بيان حال يتامى النساء، يعني أنكم ترغبون في نكاحهن، لكنكم لا تؤتونهن ما كتب لهن، فلم يصح الوقف هنا.

وهل يصح الوقف على قوله (وترغبون أن تنكحوهن)؟

الجواب: لا يصح، نص على ذلك السجاوندي والأشموني، ووجه ذلك أن قوله بعدها (والمستضعفين من الولدان) معطوفٌ على قوله (يتامى النساء) فتقدير الجملة: وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء وفي المستضعفين من الولدان، فلم يصح الوقف هنا.

وهل يصح الوقف على قوله (والمستضعفين من الوالدان)؟

الجواب: لا يصح، نص على ذلك السجاوندي والأشموني، ووجه ذلك أن قوله (وأن تقوموا لليتامى بالقسط) معطوفٌ على (يتامى النساء) وتقدير الجملة: وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء وفي المستضعفين من الولدان وفي أن تقوموا لليتامى بالقسط، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وأن تقوموا لليتامى بالقسط)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أنه قد انتهى هنا ذكر ما أفتاهم الله فيه، ثم جاءت جملةٌ شرطيةٌ مستأنفةٌ للحث على فعل الخير حيث كان ولمن كان، في قوله (وما تفعلوا من خيرٍ فإن الله كان به عليمًا) فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (وإن امرأةٌ خافت من بعلها نشوزًا أو إعراضًا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحًا) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة الشرطية التي ابتُدئت بها الآية قد انتهت هنا بفعلها وجوابها، ثم جاء خبرٌ عن أهمية الصلح بجملةٍ معترضةٍ في قوله (والصلح خير)، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (والصلح خير)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة الاسمية المعترضة قد انتهت هنا، ثم جاءت جملةٌ في بيان حال الناس تجاه حقوقهم، وهي جملةٌ إما معطوفةٌ أو مستأنفةٌ، وحتى لو كانت معطوفةً فإنها جملةٌ مستقلةٌ بنفسها، وذلك في قوله (وأُحضِرت الأنفس الشحّ)، فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وأُحضِرت الأنفس الشحّ)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أنه قد انتهى هنا الخبر عن حال الأنفس، ثم جاءت جملةٌ شرطيةٌ في الأمر بالإحسان والتقوى، وهي جملةٌ مستأنفةٌ في قوله (وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرًا)، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

الآية التي تليها: (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة النفي التي بينت عدم القدرة على العدل القلبي قد انتهت هنا، ثم جاءت جملة نهيٍ معطوفةٌ بفاءٍ رابطةٍ لجواب شرطٍ مقدرٍ تقديره: فإذا كان

ذلك كذلك فلا تميلوا كل الميل، وهي جملةٌ تضمنت بيان عدم جواز الظلم الحسي في الحقوق من النفقة والقسم ونحوهما، وإن لم يستطع أن يعدل في الميل القلبي، فصار بينهما نوع ارتباطٍ، لكن الجملة الثانية قائمةٌ بنفسها لفظًا، لذلك صح الفصل بينهما، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمُعلّقة)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن النفي وما عطف عليه قد انتهى هنا، ثم جاءت جملة شرطٍ مستأنفة للحث على الصلح والتقوى في قوله (وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورًا رحيمًا)، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

الآية التي تليها: (وإن يتفرّقا يغن الله كلاًّ من سعته) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة الشرط التي ابتُدئت بها الآية قد انتهت هنا، ثم جاءت جملةٌ مستأنفةٌ مبدوءةٌ بـ (كان) لبيان سعة عطاء الله وفضله في قوله (وكان الله واسعًا حكيمًا)، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

الآية التي تليها: (ولله ما في السموات وما في الأرض) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الخبر عن ملك الله لما في السموات والأرض قد انتهى هنا، ثم جاءت جملة قسمٍ تضمنت ذكر وصية الله للناس أجمعين في قوله (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله)، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (أن اتقوا الله)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة القسم قد انتهت هنا بذكر ما وصى الله به الناس جميعًا، ثم جاءت جملةٌ شرطيةٌ تضمنت بيان حال من كفر بالله وأنه لا يضر الله شيئًا في قوله (وإن تكفروا فإن لله ما في السموات وما في الأرض)، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وإن تكفروا فإن لله ما في السموات وما في الأرض)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة الشرط قد انتهت هنا، ثم جاءت جملةٌ مستأنفةٌ مبدوءةٌ بـ (كان) تضمنت بيان غنى الله عن طاعة الطائعين في قوله (وكان الله غنيًا حميدًا)، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

الآية التي تليها: (ولله ما في السموات وما في الأرض) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الخبر عن ملك الله لما في السموات والأرض قد انتهى هنا، ثم جاءت جملةٌ فعليةٌ مستأنفةٌ في قوله (وكفى بالله وكيلاً) فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

الآية التي تليها: (إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأتِ بآخرين) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة الشرطية قد انتهت هنا بجوابها وما عُطف على الجواب، الجواب في قوله (يذهبْكم)، وعطف عليه (ويأتِ بآخرين)، ثم جاءت جملةٌ مستأنفةٌ مبدوءةٌ بـ (كان) لبيان قدرة الله على الذهاب بالناس جميعًا في قوله (وكان الله على ذلك قديرًا)، فصح الفصل بينهما، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة الشرط التي ابتُدئت بها الآية قد انتهت هنا، ثم جاءت جملةٌ مستأنفةٌ مبدوءةٌ بـ (كان) في قوله (وكان الله سميعًا بصيرًا)، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

الآية الأخيرة: (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، نص على ذلك الأشموني، لماذا؟ لأن قوله بعدها (ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين) مبالغةٌ فيما قبله، فهو إذًا من تتمة الجملة السابقة، فلما أمر بالقيام بالعدل نبه إلى أهمية ذلك حتى لو كان المشهود عليه هو النفس أو الوالدين أو الأقربين، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (أو الوالدين والأقربين)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة الأمر وما ارتبط بها قد انتهت هنا، ثم جاءت جملةٌ شرطيةٌ لبيان وجوب العدل بغض النظر عن حال المشهود له أو عليه إن كان غنيًّا أو فقيرًا في قوله تعالى (إن يكن غنيًّا أو فقيرًا فالله أولى بهما)، فلما قامت هذه الجملة بنفسها من حيث اللفظ صح الوقف قبلها، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فالله أولى بهما)؟

الجواب: نعم، نص عليه بعض علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة الشرط قد انتهت هنا بفعلها وجوابها، ثم جاءت جملة نهيٍ مبدوءة بفاء تعليلٍ في قوله (فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا)، أو هي فاءٌ رابطةٌ

لجواب شرطٍ مقدرٍ، كأنه قال: فإن كان الأمر كذلك فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا، وعلى كلا التقديرين يصح الوقف هنا لأن جملة النهي قائمةٌ بنفسها هنا في قوله (فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا)، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة النهي قد انتهت هنا، ثم جاءت جملةٌ شرطيةٌ مستأنفةٌ أو معطوفةٌ في قوله (وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرًا)، تضمنت بيان حال من يلوي لسانه بالشهادة أو يعرض عن أدائها مع وجوبها عليه، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

هذا آخر ما في هذا المقطع، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يعلّمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علّمنا، وأن يزيدنا علمًا وعملاً وهدًى وتقًى، والله تعالى أعلم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله الرحمن الرحيم

فوائد ولطائف سورة النساء ١٢٧-١٣٥

(ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهنّ وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهنّ):

عن عروة بن الزبير، أنه سأل عائشة رضي الله عنها، عن قول الله تعالى: {وإن خفتم ألا تقسطوا} إلى {ورباع}، فقالت: «يا ابن أختي هي اليتيمة تكون في حجر وليها تشاركه في ماله، فيعجبه مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها، بغير أن يقسط في صداقها، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن، ويبلغوا بهن أعلى سنتهن من الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن» قال عروة: قالت عائشة: ثم إن الناس استفتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية، فأنزل الله: {ويستفتونك في النساء} إلى قوله {وترغبون أن تنكحوهن}، والذي ذكر الله أنه يتلى عليكم في الكتاب الآية الأولى التي قال فيها: {وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء}، قالت عائشة: وقول الله في الآية الأخرى: {وترغبون أن تنكحوهن}، يعني هي رغبة أحدكم ليتيمته التي تكون في حجره، حين تكون قليلة المال والجمال، فنهوا أن ينكحوا ما رغبوا في مالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط، من أجل رغبتهم عنهن. صحيح البخاري (٣/ ١٤٠)، صحيح مسلم (٤/ ٢٣١٣).

وعن سعيد بن جبير يقول في قوله: (ويستفتونك في النساء...) الآية، قال: كان لا يرث إلا الرجل الذي قد بلغ، لا يرث الرجل الصغير ولا المرأة. فلما نزلت آية المواريث في سورة النساء شق ذلك على الناس، وقالوا: يرث الصغير الذي لا يعمل في المال ولا يقوم فيه، والمرأة التي هي كذلك، فيرثان كما يرث الرجل الذي يعمل في المال! فرجوا أن يأتي في ذلك حدث من السماء، فانتظروا، فلما رأوا أنه لا يأتي حدث قالوا: لئن تم هذا إنه لواجب ما منه بد! ثم قالوا: سلوا. فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله: (ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب) في أول السورة (في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن). قال سعيد بن جبير: وكان الولي إذا كانت المرأة ذات جمال ومال رغب فيها ونكحها واستأثر بها، وإذا لم تكن ذات جمال ومال أنكحها ولم ينكحها. تفسير الطبري (٩/ ٢٥٤-٢٥٥).

(والمستضعفين من الولدان وأن تقوموا لليتامى بالقسط):

عن ابن عباس قال: (والمستضعفين من الولدان وأن تقوموا لليتامى بالقسط)، وذلك أنهم كانوا لا يورثون الصغير والضعيف شيئا، فأمر الله أن يعطى نصيبه من الميراث. تفسير الطبري (٩/ ٢٦٦).

وقال السعدي: (وأن تقوموا لليتامى بالقسط) أي: بالعدل التام، وهذا يشمل القيام عليهم بإلزامهم أمر الله وما أوجبه على عباده، فيكون الأولياء مكلفين بذلك، يلزمونهم بما أوجبه الله. ويشمل القيام عليهم في مصالحهم الدنيوية بتنمية أموالهم وطلب الأحظ لهم فيها، وأن لا يقربوها إلا بالتي هي أحسن، وكذلك لا يحابون فيهم صديقا ولا غيره، في تزوج وغيره على وجه الهضم لحقوقهم. وهذا من رحمته تعالى بعباده، حيث حث غاية الحث على القيام بمصالح من لا يقوم بمصلحة نفسه لضعفه وفقد أبيه. تفسير السعدي (ص: ٢٠٦).

(وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا):

عن عائشة رضي الله عنها في هذه الآية: {وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا} قالت: الرجل تكون عنده المرأة، ليس بمستكثر منها، يريد أن يفارقها، فتقول: أجعلك من شأني في حل، فنزلت هذه الآية في ذلك. صحيح البخاري (٣/ ١٣٠)، صحيح مسلم (٤/ ٢٣١٦).

وعن عائشة رضي الله عنها: {وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا}، قالت: «هو الرجل يرى من امرأته ما لا يعجبه، كبرا أو غيره، فيريد فراقها»، فتقول: أمسكني واقسم لي ما شئت، قالت: «فلا بأس إذا تراضيا». صحيح البخاري (٣/ ١٨٤).

وعن ابن عباس، قال: خشيت سودة أن يطلقها النبي صلى الله عليه وسلم، فقالت: لا تطلقني وأمسكني، واجعل يومي لعائشة، ففعل، فنزلت: {فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير} فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز. سنن الترمذي (٥/ ٩٩).

وعن خالد بن عرعرة: أن رجلا سأل عليا رضي الله عنه عن قوله: (فلا جناح عليهما أن يُصلحا بينهما صلحا)، قال: تكون المرأة عند الرجل دميمة، فتنبو عينه عنها من دمامتها أو كبرها، فإن جعلت له من أيامها أو مالها شيئا فلا جناح عليه. تفسير الطبري (٩/ ٢٦٩).

وقال ابن كثير: الظاهر من الآية أن صلحهما على ترك بعض حقها للزوج، وقبول الزوج ذلك، خير من المفارقة بالكلية، كما أمسك النبي صلى الله عليه وسلم سودة بنت زمعة على أن تركت يومها لعائشة، رضي الله عنها، ولم يفارقها بل تركها من جملة نسائه، وفعله ذلك لتتأسى به أمته في مشروعية ذلك وجوازه. تفسير ابن كثير (٢/ ٤٢٩).

(والصلح خير وأُحضِرت الأنفس الشحّ):

قال ابن القيم: ندب الله سبحانه وتعالى إلى الصلح بين الطائفتين في الدماء فقال: {وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما}، وندب الزوجين إلى الصلح عند التنازع في حقوقهما، فقال: {وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير}، وقال تعالى: {لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس}، وأصلح النبي صلى الله عليه وسلم بين بني عمرو بن عوف لما وقع بينهم، ولما تنازع كعب بن مالك وابن أبي حدرد في دين على ابن أبي حدرد، أصلح النبي صلى الله عليه وسلم بأن استوضع من دين كعب الشطر وأمر غريمه بقضاء الشطر، وقال لرجلين اختصما عنده: «اذهبا فاقتسما ثم توخيا الحق ثم استهما، ثم ليحلل كل منكما صاحبه»، وقال: «من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرض أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه»، وجوّز في دم العمد أن يأخذ أولياء القتيل ما صولحوا عليه، ولما «استشهد عبد الله بن حرام الأنصاري، والد جابر، وكان عليه دين، سأل النبي صلى الله عليه وسلم غرماءه أن يقبلوا ثمر حائطه ويحللوا أباه» . إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ٨٤).

وقال السعدي: {والصلح خير} يؤخذ من عموم هذا اللفظ والمعنى أن الصلح بين من بينهما حق أو منازعة في جميع الأشياء أنه خير من استقصاء كل منهما على كل حقه، لما فيها من الإصلاح وبقاء الألفة والاتصاف بصفة السماح. وهو جائز في جميع الأشياء إلا إذا أحل حراما أو حرم حلالا فإنه لا يكون صلحا وإنما يكون جورا.

واعلم أن كل حكم من الأحكام لا يتم ولا يكمل إلا بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه، فمن ذلك هذا الحكم الكبير الذي هو الصلح، فذكر تعالى المقتضي لذلك ونبه على أنه خير، والخير كل عاقل يطلبه ويرغب فيه، فإن كان مع ذلك قد أمر الله به وحث عليه ازداد المؤمن طلبا له ورغبة فيه. وذكر المانع بقوله: {وأحضرت الأنفس الشح} أي: جبلت النفوس على الشح، وهو: عدم الرغبة في بذل ما على الإنسان، والحرص على الحق الذي له، فالنفوس مجبولة على ذلك طبعا، أي: فينبغي لكم أن تحرصوا على قلع هذا الخلق الدنيء من نفوسكم، وتستبدلوا به ضده وهو السماحة، وهو بذل الحق الذي عليك؛ والاقتناع ببعض الحق الذي لك.

فمتى وفق الإنسان لهذا الخلق الحسن سهل حينئذ عليه الصلح بينه وبين خصمه ومعامله، وتسهلت الطريق للوصول إلى المطلوب. بخلاف من لم يجتهد في إزالة الشح من نفسه، فإنه يعسر عليه الصلح والموافقة، لأنه لا يرضيه إلا جميع ماله، ولا يرضى أن يؤدي ما عليه، فإن كان خصمه مثله اشتد الأمر. تفسير السعدي (ص: ٢٠٧).

(ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كلّ الميل فتذروها كالمعلّقة):

عن ابن عباس: (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم)، يقول: لا تستطيع أن تعدل بالشهوة فيما بينهن ولو حرصت. تفسير الطبري (٩/ ٢٨٦).

وقال البغوي: وإذا تزوج جديدة على قديمات عنده يخص الجديدة بأن يبيت عندها سبع ليال على التوال إن كانت بكرا، وإن كانت ثيبا فثلاث ليال ثم يسوي بعد ذلك بين الكل، ولا يجب قضاء هذه الليالي للقديمات... عن أنس رضي الله عنه قال: من السنة إذا تزوج البكر على الثيب أقام عندها سبعا، ثم قسم، وإذا تزوج الثيب أقام عندها ثلاثا، ثم قسم...

وإذا أراد الرجل سفر حاجة فيجوز له أن يحمل بعض نسائه مع نفسه بعد أن يقرع بينهن فيه، ثم لا يجب عليه أن يقضي للباقيات مدة سفره وإن طالت، إذا لم يزد مقامه في بلده على مدة المسافرين، والدليل عليه... عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أنها قالت: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد السفر أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها)، أما إذا أراد سفر نقلة فليس له تخصيص بعضهن لا بالقرعة ولا بغيرها. تفسير البغوي (١/ ٧١٠).

وقال الزركشي: قوله تعالى: {فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة} مع قوله في أواخر السورة: {ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم}، فالأولى تفهم إمكان العدل، والثانية تنفيه.
والجواب: أن المراد بالعدل في الأولى العدل بين الأزواج في توفية حقوقهن، وهذا ممكن الوقوع وعدمه. والمراد به في الثانية الميل القلبي، فالإنسان لا يملك ميل قلبه إلى بعض زوجاته دون بعض، وقد كان صلى الله عليه وسلم يقسم بين نسائه ثم يقول: (اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تؤاخذني بما لا أملك)، يعني ميل القلب، وكان عمر يقول: (اللهم قلبي فلا أملكه، وأما ما سوى ذلك فأرجو أن أعدل). البرهان في علوم القرآن (٢/ ٥٨).

وقال ابن كثير: {ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم} أي: لن تستطيعوا أيها الناس أن تساووا بين النساء من جميع الوجوه، فإنه وإن حصل القسم الصوري: ليلة وليلة، فلا بد من التفاوت في المحبة والشهوة والجماع، كما قاله ابن عباس، وعبيدة السلماني، ومجاهد، والحسن البصري، والضحاك بن مزاحم...
وعن ابن أبي مليكة قال: نزلت هذه الآية: {ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم} في عائشة. يعني: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحبها أكثر من غيرها... وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما، جاء يوم القيامة وأحد شقيه ساقط). تفسير ابن كثير (٢/ ٤٣٠).

(وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورا رحيما):

قال السعدي: {وإن تصلحوا} ما بينكم وبين زوجاتكم، بإجبار أنفسكم على فعل ما لا تهواه النفس، احتسابا وقياما بحق الزوجة، وتصلحوا أيضا فيما بينكم وبين الناس، وتصلحوا أيضا بين الناس فيما تنازعوا فيه، وهذا يستلزم الحث على كل طريق يوصل إلى الصلح مطلقا كما تقدم.

{وتتقوا} الله بفعل المأمور وترك المحظور، والصبر على المقدور. {فإن الله كان غفورا رحيما} يغفر ما صدر منكم من الذنوب والتقصير في الحق الواجب، ويرحمكم كما عطفتم على أزواجكم ورحمتموهن. تفسير السعدي (ص: ٢٠٧).

(وإن تكفروا فإن لله ما في السماوات وما في الأرض وكان الله غنيا حميدا):

قال ابن كثير: كما قال تعالى إخبارا عن موسى أنه قال لقومه: {إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله لغني حميد}، وقال: {فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني حميد} أي: غني عن عباده. تفسير ابن كثير (٢/ ٤٣١).

وقال السعدي: (وكان الله غنيا حميدا) له الجود الكامل والإحسان الشامل الصادر من خزائن رحمته، التي لا ينقصها الإنفاق، ولا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، لو اجتمع أهل السماوات وأهل الأرض أولهم وآخرهم، فسأل كل واحد منهم ما بلغت أمانيه ما نقص من ملكه شيئا، ذلك بأنه جواد واجد ماجد، عطاؤه كلام، وعذابه كلام، إنما أمره لشيء إذا أراد أن يقول له كن فيكون.

ومن تمام غناه أنه كامل الأوصاف، إذ لو كان فيه نقص بوجه من الوجوه لكان فيه نوع افتقار إلى ذلك الكمال، بل له كل صفة كمال، ومن تلك الصفة كمالها.

ومن تمام غناه أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، ولا شريكا في ملكه ولا ظهيرا، ولا معاونا له على شيء من تدابير ملكه.

ومن كمال غناه افتقار العالم العلوي والسفلي في جميع أحوالهم وشؤونهم إليه، وسؤالهم إياه جميع حوائجهم الدقيقة والجليلة، فقام تعالى بتلك المطالب والأسئلة وأغناهم وأقناهم، ومنّ عليهم بلطفه وهداهم.

وأما الحميد فهو من أسماء الله تعالى الجليلة الدالة على أنه هو المستحق لكل حمد ومحبة وثناء وإكرام، وذلك لما اتصف به من صفات الحمد، التي هي صفة الجمال والجلال، ولما أنعم به على خلقه من النعم الجزال، فهو المحمود على كل حال. تفسير السعدي (ص: ٢٠٨).

(ولله ما في السماوات وما في الأرض):

قال البغوي: فإن قيل: فأي فائدة في تكرار قوله تعالى: (ولله ما في السماوات وما في الأرض)؟ قيل: لكل واحد منها وجه:

أما الأول: معناه لله ما في السموات وما في الأرض، وهو يوصيكم بالتقوى فاقبلوا وصيته.

وأما الثاني يقول: (فإن لله ما في السموات وما في الأرض وكان الله غنيا) أي: هو الغني وله الملك فاطلبوا منه ما تطلبون.

وأما الثالث يقول: (ولله ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا) أي: له الملك فاتخذوه وكيلا ولا تتوكلوا على غيره. تفسير البغوي (١/ ٧١١).

(إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا):

قال ابن كثير: أي: هو قادر على إذهابكم وتبديلكم بغيركم إذا عصيتموه، وكما قال تعالى: {وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم} . وقال بعض السلف: ما أهون العباد على الله إذا أضاعوا أمره! وقال تعالى: {إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد. وما ذلك على الله بعزيز} أي: ما هو عليه بممتنع. تفسير ابن كثير (٢/ ٤٣٢).

وقال السعدي: {إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين} غيركم هم أطوع لله منكم وخير منكم، وفي هذا تهديد للناس على إقامتهم على كفرهم وإعراضهم عن ربهم، فإن الله لا يعبأ بهم شيئا إن لم يطيعوه، ولكنه يمهل ويملي ولا يهمل. تفسير السعدي (ص: ٢٠٨).

(من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة):

قال ابن كثير: أي: يا من ليس همه إلا الدنيا، اعلم أن عند الله ثواب الدنيا والآخرة، وإذا سألته من هذه وهذه أعطاك وأغناك وأقناك، كما قال تعالى: {فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق. ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار. أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب}، وقال تعالى: {من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب}، وقال تعالى: {من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا. ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا. كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا. انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا}.

وقد زعم ابن جرير أن المعنى في هذه الآية: {من كان يريد ثواب الدنيا} أي: من المنافقين الذين أظهروا الإيمان لأجل ذلك، {فعند الله ثواب الدنيا} وهو ما حصل لهم من المغانم وغيرها مع المسلمين. وقوله: {والآخرة} أي: وعند الله ثواب الآخرة، وهو ما ادخره لهم من العقوبة في نار جهنم. وجعلها كقوله: {من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون. أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون}. ولا شك أن هذه الآية معناها ظاهر، وأما تفسير الآية الأولى بهذا ففيه نظر؛ فإن قوله {فعند الله ثواب الدنيا والآخرة} ظاهر في حضور الخير في الدنيا والآخرة، أي: بيده هذا وهذا، فلا يقتصرن قاصر الهمة على السعي للدنيا فقط، بل لتكن همته سامية إلى نيل المطالب العالية في الدنيا والآخرة، فإن مرجع ذلك كله إلى الذي بيده الضر والنفع، وهو الله الذي لا إله إلا هو، الذي قد قسم السعادة والشقاوة في الدنيا والآخرة بين الناس، وعدل بينهم فيما علمه فيهم، ممن يستحق هذا، وممن يستحق هذا. تفسير ابن كثير (٢/ ٤٣٢).

(يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما):

عن ابن عباس قوله: (كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين)، قال: أمر الله المؤمنين أن يقولوا الحق ولو على أنفسهم أو آبائهم أو أبنائهم، ولا يحابوا غنيا لغناه، ولا يرحموا

مسكينا لمسكنته، وذلك قوله: (إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا)، فتذروا الحق، فتجوروا. تفسير الطبري (٩/ ٣٠٤).

وقال ابن جماعة: (كونوا قوامين بالقسط شهداء لله)، وفي المائدة: (قوامين لله شهداء بالقسط)؟
جوابه: أن الآية هنا تقدمها نشوز الرجال وإعراضهم عن النساء، والصلح على مال، وإصلاح حال الزوجين، والإحسان إليهن، وقوله تعالى: (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء)، وقوله تعالى: (وأن تقوموا لليتامى بالقسط)، وشبه ذلك، فناسب تقديم القسط وهو العدل أي: كونوا قوامين بالعدل بين الأزواج وغيرهن، واشهدوا لله لا لمراعاة نفس أو قرابة.
وآية المائدة جاءت بعد أحكام تتعلق بالدين والوفاء بالعهود والمواثيق، لقوله تعالى في أول السورة: (أوفوا بالعقود) إلى آخره، وقوله تعالى قبل هذه الآية: (واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به) الآية، ولما تضمنته الآيات قبلها من أمر ونهي، فناسب تقديم: (لله) أي: كونوا قوامين بما أُمرتم أو نُهيتم لله. كشف المعاني في المتشابه من المثاني (ص: ١٤٢).

وقال ابن تيمية: شهادة المرء على نفسه في القرآن يراد بها: إقراره، فمن أقر بحق عليه فقد شهد به على نفسه. قال تعالى: {كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين}، وهذا مما احتج به الفقهاء على قبول الإقرار. وفي حديث ماعز بن مالك: فلما شهد على نفسه أربع مرات رجمه رسول الله صلى الله عليه وسلم، أي أقرّ أربع مرات. ومنه قوله تعالى: {ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر}، فإنهم كانوا مقرين لما هو كفر، فكان ذلك شهادتهم على أنفسهم. وقال تعالى: {يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين}، فشهادتهم على أنفسهم هو إقرارهم. درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٤٨٥).

وقال ابن كثير: {ولو على أنفسكم} أي: اشهد بالحق ولو عاد ضررها عليك، وإذا سئلت عن الأمر فقل الحق فيه وإن كان مضرة عليك، فإن الله سيجعل لمن أطاعه فرجا ومخرجا من كل أمر يضيق عليه.

وقوله: {أو الوالدين والأقربين} أي: وإن كانت الشهادة على والديك وقرابتك، فلا تراعهم فيها، بل اشهد بالحق وإن عاد ضررها عليهم، فإن الحق حاكم على كل أحد، وهو مقدم على كل أحد.
وقوله: {إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما} أي: لا ترعاه لغناه، ولا تشفق عليه لفقره، الله يتولاهما، بل هو أولى بهما منك، وأعلم بما فيه صلاحهما. تفسير ابن كثير (٢/ ٤٣٣).

وقال السعدي: يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا {قوامين بالقسط شهداء لله}، والقوام صيغة مبالغة، أي: كونوا في كل أحوالكم قائمين بالقسط الذي هو العدل في حقوق الله وحقوق عباده، فالقسط في حقوق الله أن لا يستعان بنعمه على معصيته، بل تصرف في طاعته. والقسط في حقوق الآدميين أن تؤدي جميع الحقوق التي عليك كما تطلب حقوقك. فتؤدي النفقات الواجبة، والديون، وتعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به من الأخلاق والمكافأة وغير ذلك.
ومن أعظم أنواع القسط القسط في المقالات والقائلين، فلا يحكم لأحد القولين أو أحد المتنازعين لانتسابه أو ميله لأحدهما، بل يجعل وجهته العدل بينهما، ومن القسط أداء الشهادة التي عندك على أي وجه كان، حتى على الأحباب بل على النفس، ولهذا قال: {شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما} أي: فلا تراعوا الغني لغناه، ولا الفقير بزعمكم رحمة له، بل اشهدوا بالحق على من كان. تفسير السعدي (ص: ٢٠٨).

(فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا):

قال ابن كثير: أي: فلا يحملنكم الهوى والعصبية وبغضة الناس إليكم، على ترك العدل في أموركم وشؤونكم، بل الزموا العدل على أي حال كان، كما قال تعالى: {ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى}، ومن هذا القبيل قول عبد الله بن رواحة، لما بعثه النبي صلى الله عليه وسلم يخرص على أهل خيبر ثمارهم وزرعهم، فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم، فقال: والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إليّ، ولأنتم أبغض إليّ من أعدادكم من القردة والخنازير، وما يحملني حبي إياه وبغضي لكم على ألا أعدل فيكم. فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض. تفسير ابن كثير (٢/ ٤٣٣).

وقال السعدي: والقيام بالقسط من أعظم الأمور وأدلها على دين القائم به وورعه ومقامه في الإسلام، فيتعين على من نصح نفسه وأراد نجاتها أن يهتم له غاية الاهتمام، وأن يجعله نصب عينيه ومحل إرادته، وأن يزيل عن نفسه كل مانع وعائق يعوقه عن إرادة القسط أو العمل به.

وأعظم عائق لذلك اتباع الهوى، ولهذا نبه تعالى على إزالة هذا المانع بقوله: {فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا} أي: فلا تتبعوا شهوات أنفسكم المعارضة للحق، فإنكم إن اتبعتموها عدلتم عن الصواب، ولم توفقوا للعدل، فإن الهوى إما أن يعمي بصيرة صاحبه حتى يرى الحق باطلا والباطل حقا، وإما أن يعرف الحق ويتركه لأجل هواه، فمن سلم من هوى نفسه وفق للحق وهدي إلى الصراط المستقيم. تفسير السعدي (ص: ٢٠٨).

(وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا):

عن ابن عباس في قول الله: (وإن تلووا أو تعرضوا) قال: هما الرجلان يجلسان بين يدي القاضي، فيكون لي القاضي وإعراضه لأحدهما على الآخر. تفسير الطبري (٩/ ٣٠٧).

عن مجاهد في قوله: (وإن تلووا) أي: تبدلوا الشهادة (أو تعرضوا) قال: تكتموها. تفسير الطبري (٩/ ٣٠٨).

وقال السعدي: {فإن الله كان بما تعملون خبيرا} أي: محيط بما فعلتم، يعلم أعمالكم خفيها وجليها، وفي هذا تهديد شديد للذي يَلوي أو يُعرض. ومن باب أولى وأحرى الذي يحكم بالباطل أو يشهد بالزور، لأنه أعظم جرما، لأن الأولَين تركا الحق، وهذا ترك الحق وقام بالباطل. تفسير السعدي (ص: ٢٠٩).

بسم الله الرحمن الرحيم

العمل بالآيات من سورة النساء ١٢٧-١٣٥

١- أكمل الرجال وأعقلهم من يعطف على الضعفة من النساء والولدان واليتامى، ويعطيهم حقوقهم المالية والنفسية، ويحسن إليهم قولا وفعلا، ويردّ عنهم كل ظلم وأذى وبغي واعتداء، فكن منهم، فإن الإسلام قد عظّم حقوق الضعفة (ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهنّ وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كُتب لهنّ وترغبون أن تنكحوهنّ والمستضعفين من الولدان وأن تقوموا لليتامى بالقسط وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما).

٢- الصلح خير، الصلح خير، الصلح خير، وإنما يكون الصلح بتنازل كل واحد عن شيء من حقه للطرف الآخر، ولا يتم الصلح إلا بإزالة الشُحّ من النفوس، وتعويدها على الإحسان، وتربيتها على التقوى، والسعي في الإصلاح بين الناس سبب لمغفرة الله ورحمته (وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يُصلحا بينهما صُلحا والصلح خير وأُحضِرت الأنفس الشحّ وإن تحسنوا وتتّقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا)، و(وإن تصلحوا وتتّقوا فإن الله كان غفورا رحيما).

٣- يجب عليك أيها الرجل إن كنت معدّدا أن تعدل بين نسائك في الأمور الظاهرة من النفقة والقَسم وغير ذلك، وأما ما يتعلق بالمحبة القلبية فلا يستطاع العدل فيها، وهو أمر تُعذر فيه، لكن لا يجوز لك أن تميل عن إحدى نسائك فتتركها كليّا، بل إما إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلّقة).

٤- إدامة عقد الزوجية من أعظم الأمور المقصودة للشارع، والطلاق أبغض الحلال إلى الله، فيجب البعد عنه قدر الإمكان، وبذل كل الوسائل للمحافظة على الأسرة مترابطة، لكن إذا سُدّت الطرق ولم يمكن الإصلاح فقد يكون في الطلاق خير، فيعوّض الله الرجل بامرأة خير له منها، ويعوّض المرأة برجل خير لها منه، ورزق الله واسع (وإن يتفرّقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعا حكيما).

٥- الله سبحانه هو الذي يملك ما في السماوات وما في الأرض، وهو الغني الحميد، وهو الوكيل القائم بتدبير شؤون خلقه، فاتّق الله حق تقاته، وثق بعطائه وفضله ومنّه وكرمه وإحسانه ولطفه وجوده،

واحذر من عصيانه، فإنه سبحانه غني عنك وعن عبادتك، ولو شاء سبحانه لأهلك الناس جميعا، واستبدلهم بقوم آخرين يطيعونه ويستغفرونه (ولله ما في السماوات وما في الأرض ولقد وصّينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتّقوا الله وإن تكفروا فإن لله ما في السماوات وما في الأرض وكان الله غنيا حميدا * ولله ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا * إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا).

٦- اسأل الله من خيري الدنيا والآخرة، فبيده سبحانه كل خير في الدنيا والآخرة، وهو الذي يهب الخير لمن يشاء من عباده متى شاء وكيف شاء، ولا تجعل الدنيا أكبر همّك، ولا مبلغ علمك (من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعا بصيرا).

٧- العدل هو الذي قامت به السماوات والأرض، فالزمه في كل أمورك، واشهد به ولو على نفسك أو والديك أو أقاربك، ولو كان الحق على غني أو فقير، فحق الله أولى، وإياك وهوى نفسك فإنه العائق الأكبر عن العدل، واعلم أن الظلم ظلمات في الدنيا والآخرة، وأن الحق إذا خفي في الدنيا فلن يخفى يوم القيامة، وأن المؤاخذة في الآخرة شديدة، فالعدل العدل (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتّبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تُعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا).

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة النساء (١٣٦-١٤٧) من التفسير الميسّر

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١٣٦)

يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه داوموا على ما أنتم عليه من التصديق الجازم بالله تعالى وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ومن طاعتهما، وبالقرآن الذي نزله عليه، وبجميع الكتب التي أنزلها الله على الرسل. ومن يكفر بالله تعالى، وملائكته المكرمين، وكتبه التي أنزلها لهداية خلقه، ورسله الذين اصطفاهم لتبليغ رسالته، واليوم الآخر الذي يقوم الناس فيه بعد موتهم للعرض والحساب، فقد خرج من الدين، وبَعُدَ بعدًا كبيرًا عن طريق الحق.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (١٣٧)

إن الذين دخلوا في الإيمان، ثم رجعوا عنه إلى الكفر، ثم عادوا إلى الإيمان، ثم رجعوا إلى الكفر مرة أخرى، ثم أصرُّوا على كفرهم واستمروا عليه، لم يكن الله ليغفر لهم، ولا ليدلهم على طريق من طرق الهداية، التي ينجون بها من سوء العاقبة.

بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨)

بشّر -أيها الرسول- المنافقين -وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر- بأن لهم عذابًا موجعًا.

الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩)

الذين يوالون الكافرين، ويتخذونهم أعوانًا لهم، ويتركون ولاية المؤمنين، ولا يرغبون في مودتهم. أيطلبون بذلك النصرة والمنعة عند الكافرين؟ إنهم لا يملكون ذلك، فالنصرة والعزة والقوة جميعها لله تعالى وحده.

وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠)

وقد نزل عليكم -أيها المؤمنون- في كتاب ربكم أنه إذا سمعتم الكفر بآيات الله والاستهزاء بها فلا تجلسوا مع الكافرين والمستهزئين، إلا إذا أخذوا في حديث غير حديث الكفر والاستهزاء بآيات الله. إنكم إذا جالستموهم، وهم على ما هم عليه، فأنتم مثلهم؛ لأنكم رضيتم بكفرهم واستهزائهم، والراضي بالمعصية كالفاعل لها. إن الله تعالى جامع المنافقين والكافرين في نار جهنم جميعًا، يلْقَون فيها سوء العذاب.

الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (١٤١)

المنافقون هم الذين ينتظرون ما يحلُّ بكم -أيها المؤمنون- من الفتن والحرب، فإن منَّ الله عليكم بفضله، ونصركم على عدوكم وغنمتم، قالوا لكم: ألم نكن معكم نؤازركم؟ وإن كان للجاحدين لهذا الدين قَدْرٌ من النصر والغنيمة، قالوا لهم: ألم نساعدكم بما قدَّمناه لكم ونَحْمِكُم من المؤمنين؟ فالله تعالى يقضي بينكم وبينهم يوم القيامة، ولن يجعل الله للكافرين طريقًا للغلبة على عباده الصالحين، فالعاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة.

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢)

إنَّ طريقة هؤلاء المنافقين مخادعة الله تعالى، بما يظهرونه من الإيمان وما يبطنونه من الكفر، ظنًّا أنه يخفى على الله، والحال أن الله خادعهم ومجازيهم بمثل عملهم، وإذا قام هؤلاء المنافقون لأداء الصلاة، قاموا إليها في فتور، يقصدون بصلاتهم الرياء والسمعة، ولا يذكرون الله تعالى إلا ذكرًا قليلا.

مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (١٤٣)

إنَّ مِن شأن هؤلاء المنافقين التردد والحَيْرة والاضطراب، لا يستقرون على حال، فلا هم مع المؤمنين ولا هم مع الكافرين. ومن يصرف الله قلبه عن الإيمان به والاستمساك بهديه، فلن تجد له طريقًا إلى الهداية واليقين.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (١٤٤)

يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، لا توالوا الجاحدين لدين الله، وتتركوا موالاة المؤمنين ومودتهم. أتريدون بمودَّة أعدائكم أن تجعلوا لله تعالى عليكم حجة ظاهرة على عدم صدقكم في إيمانكم؟

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥)

إن المنافقين في أسفل منازل النار يوم القيامة، ولن تجد لهم -أيها الرسول- ناصرًا يدفع عنهم سوء هذا المصير.

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦)

إلا الذين رجعوا إلى الله تعالى وتابوا إليه، وأصلحوا ما أفسدوا من أحوالهم باطنًا وظاهرًا، ووالوا عباده المؤمنين، واستمسكوا بدين الله، وأخلصوا له سبحانه، فأولئك مع المؤمنين في الدنيا والآخرة، وسوف يعطي الله المؤمنين ثوابًا عظيمًا.

مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧)

ما يفعل الله بعذابكم إن أصلحتم العمل وآمنتم بالله ورسوله، فإن الله سبحانه غني عمَّن سواه، وإنما يعذب العباد بذنوبهم. وكان الله شاكرًا لعباده على طاعتهم له، عليمًا بكل شيء.

بسم الله الرحمن الرحيم

معاني كلمات سورة النساء (١٣٦-١٤٧)

الكلمة	المعنى
أيبتغون عندهم العِزّة	أيطلبون عندهم النُصرة والمَنَعة
يتربّصون بِكُم	ينتظرون ما يحِلّ بِكُم
فتحٌ	نصرٌ وغنيمة
ألمْ نَستَحوِذ عليكم	ألمْ نساعدْكم
مُذبذبين بين ذلك	متردّدين بين الكفر والإيمان
سُلطانا مُبينا	حجةً ظاهرةً
الدّرْك	المنزلة
واعتَصَموا بالله	واستمسَكوا بدين الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقف والابتداء في سورة النساء ١٣٦-١٤٧

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذه الفقرة المتعلقة بالوقف والابتداء في الآيات من سورة النساء من الآية السادسة والثلاثين بعد المائة وحتى الآية السابعة والأربعين بعد المائة.

أبدأ بالآية الأولى وهي قول الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل) لا يصح الوقف إلا هنا؛ لأن الأوامر التي أمر الله بها معطوفة على بعضها ولم تنته إلا هنا، ثم جاءت جملة شرط لبيان حال من يكفر بأركان الإيمان، فصح الوقف هنا، كما نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء.

ثم لا يصح الوقف بعد ذلك إلا في نهاية الآية؛ لأن جملة الشرط الواردة في قوله تعالى: (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر) لم يأت جوابها إلا في قوله: (فقد ضل ضلالا بعيدا).

الآية التي تليها: (إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، نص على ذلك الأشموني، لماذا؟ لأن خبر (إنّ) لم يأت بعد؛ إذ خبرها في قوله: (لم يكن الله ليغفر لهم)، وما سبق هو اسمها وما عطف على اسمها، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها لا وقف فيها أيضا، في قوله تعالى: (بشّر المنافقين بأن لهم عذابا أليما)؛ لأنها جملة واحدة تضمنت بشارة المنافقين بالعذاب الأليم.

الآية التي تليها: (الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين)، هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نصّ عليه جماعة من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن وصف المنافقين وما تضمنه من كونهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين قد انتهى هنا، ثم جاءت جملة استفهامٍ للإنكار على فعلهم في قوله: (أيبتغون عندهم العزة)، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (أيبتغون عندهم العزة)؟

نص على جواز الوقف هنا الإمام نافع، ولم ينص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، وذلك أنه قد جاء بعدها: (فإن العزة لله جميعا)، وهذه الجملة تعليلٌ عن جواب الاستفهام، فكأنه قال: كيف يبتغون عندهم العزة والعزة لله جميعا، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (وقد نزّل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره) لا يصح الوقف قبل هذه الكلمة، وهل يصح الوقف عليها؟

نص على الوقف هنا الهبطي، وجوّزه الأشموني، ونص السجاوندي على أنه قد يجوز، والوصل أجوز، ووضعت علامة الوقف الجائز هنا في مصحف الشمرلي، وإذا تأملنا فإن الله سبحانه وتعالى قال بعد هذه الجملة: (إنكم إذاً مثلهم)، وهذه الجملة هي في الحقيقة جملة تعليلية مقررة لمضمون الجواب المفهوم من سياق الكلام، وذلك أنه قال: (إنكم إذًا) يعني إذا قعدتم معهم وهم يكفرون بآيات الله ويستهزؤون بها فإنكم مثلهم، بالإضافة إلى أن قوله تعالى: (إنكم إذا مثلهم) قد تضمن ضميرين: ضمير راجع إلى الكافرين المستهزئين، وضمير راجع إلى القاعدين معهم، فدل على أنها جملة مرتبطة ارتباطا قويا بالجملة التي قبلها، فالأوجه عدم الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (إنكم إذًا مثلهم)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة التي تضمنت النهي عن القعود مع الكافرين بآيات الله والمستهزئين بها وعاقبة من فعل ذلك قد انتهت هنا، ثم جاءت جملة مستأنفة مبدوءة بإنّ لبيان مصير المنافقين والكافرين يوم القيامة، وذلك في قوله: (إنّ الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا)، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

الآية التي تليها: (الذين يتربصون بكم) هل يصح الوقف هنا؟

جوّز الوقف هنا السجاوندي وحده دون بقية علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن قوله بعدها: (فإن كان لكم فتحٌ من الله) جملة شرطية تضمنت بيان تربصهم بالمؤمنين، وذلك أنهم إذا وجدوا فتحا وغنيمة ادعوا أنهم مع المؤمنين، وإذا صار للكافرين نصيب ادعوا أنهم منعوهم من المؤمنين، وبناءً على ذلك لا يصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم)؟

نص السجاوندي على أنه قد يجوز؛ لابتداء شرطٍ آخر في قوله: (وإن كان للكافرين نصيب)، قال: والوصل أحسن لإتمام بيان النفاق، ولم ينص بقية علماء الوقف والابتداء على وقف هنا، وهو الأصح؛ لأن قوله تعالى: (وإن كان للكافرين نصيب) وإن كانت جملة شرطية إلا أنها تتمة لبيان تربصهم وما يترتب عليه، فلا يصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين)؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن قوله: (الذين يتربصون بكم) نعتٌ للمنافقين، وانتهى النعت وبيان حقيقة التربص هنا، ثم جاءت جملة اسمية مستأنفة في قوله: (فالله يحكم بينكم يوم القيامة)، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (فالله يحكم بينكم يوم القيامة)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعة من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الخبر عن حكم الله بينهم يوم القيامة قد انتهى هنا، ثم جاءت جملة نفي لبيان أمرٍ جديدٍ وهو أن الله لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا، وهذا على جعل هذه الجملة عامة في الدنيا والآخرة، بمعنى أن الله لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا في الدنيا ولا في الآخرة، ونص بعض العلماء على أن هذا في الآخرة خاصة، وجعل هذه الجملة وهي (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) مرتبطة بالجملة السابقة في قوله: (فالله يحكم بينكم يوم القيامة)، أي: أنه لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا يوم القيامة، وهذا وجه محتمل، والوقف بناءً على هذا محتمل في هذا الموضع، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (إنّ المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا جماعة من علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن جملة (إنّ) قد انتهت هنا باسمها وخبرها، وتضمنت بيان حقيقة المنافقين، ثم جاءت جملة شرطية لبيان حال المنافقين في العبادة في قوله: (وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى)، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى)؟ نص النحاس والأشموني على أن الوقف هنا كاف إن جعلنا قوله بعدها (يراءون الناس) مستأنفا، وعلى أنه لا يصح الوقف إن جعل قوله (يراءون الناس) في موضع حال، والأمر في هذا محتمل، والله أعلم.

الآية التي تليها: (مذبذبين بين ذلك) هل يصح الوقف هنا؟

نص السجاوندي على أنه قد قيل بالوقف هنا على وجه الابتداء في قوله: (لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) أي: كأنه قال: لا هم إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ولم ينص بقية علماء الوقف والابتداء على وقف هنا، وهو الأقرب، وذلك أن قوله: (لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) هو لبيان تذبذبهم، فلم يصح الفصل بينهما، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (ولا إلى هؤلاء)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعة من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أنه قد انتهى هنا من ذكر حال المنافقين، ثم جاءت جملة شرطية مستأنفة لبيان حال من يضله الله عموما، في قوله: (ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا)، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعة من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة النهي عن اتخاذ الكفار أولياء من دون المؤمنين قد انتهت هنا، ثم جاءت جملة استفهام مستأنفة للإنكار على من يتخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، في قوله: (أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا)، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

الآية التي تليها: (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء تجويزا وتحسينا، وإذا تأملنا فإن جملة (إنّ) التي ابتُدئت بها الآية قد انتهت هنا، وقد تضمنت بيان مصير المنافقين، ثم جاءت جملة نفي تضمنت أن المنافقين لن يجدوا لهم نصيرا من دون الله سبحانه وتعالى، فمن جعل هذا من تتمة جزائهم، وأن من جزائهم أن الله سبحانه وتعالى لن يهيئ لهم من ينصرهم أو يخرجهم من النار فإنه لم يصحح الوقف هنا، وهو الذي عليه أكثر علماء الوقف والابتداء، ومن نظر إلى أن جملة النفي قائمة بنفسها لفظا صحح الوقف هنا، والأمر في هذا محتمل، والله أعلم.

الآية التي تليها: (إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعة من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الاستثناء الذي ابتُدئت به الآية وما تضمنه من حكم المستثنين وأنهم مع المؤمنين يعني في الجنة قد انتهى هنا، ثم جاءت جملة مبدوءة بسوف لبيان جزاء المؤمنين عموما، في قوله: (وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما)، فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

الآية الأخيرة: (ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعة من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة الاستفهام التي ابتدئت بها الآية وتضمنت بيان أن الله سبحانه وتعالى غني عن تعذيب عباده المؤمنين الشاكرين قد انتهت هنا، ثم جاءت جملة مستأنفة مبدوءة بكان لبيان أن الله شاكر عليم، في قوله: (وكان الله شاكرا عليما)، فصح الفصل بينهما، والله تعالى أعلم.

هذا آخر ما في هذا المقطع، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يعلّمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علّمنا، وأن يزيدنا علمًا وعملاً وهدًى وتقًى، والله تعالى أعلم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله الرحمن الرحيم

فوائد ولطائف سورة النساء ١٣٦-١٤٧

(يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزّل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل):

قال الطبري: يعني بذلك جل ثناؤه: (يا أيها الذين آمنوا) بمن قبل محمد من الأنبياء والرسل، وصدقوا بما جاؤوهم به من عند الله (آمِنوا بالله ورسوله) يقول: صدقوا بالله وبمحمد رسوله أنه لله رسول مرسل إليكم... (والكتاب الذي أنزل من قبل) الذي تزعمون أنكم به مؤمنون، فإنكم لن تكونوا به مؤمنين وأنتم بمحمد مكذبون، لأن كتابكم يأمركم بالتصديق به وبما جاءكم به، فآمنوا بكتابكم في اتباعكم محمدا، وإلا فأنتم به كافرون. فهذا وجه أمرهم بالإيمان بما أمرهم بالإيمان به، بعد أن وصفهم بما وصفهم بقوله: (يا أيها الذين آمنوا)... (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر) بعقب خطابه أهل الكتاب وأمره إياهم بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، تهديدا منه لهم، وهم مقرون بوحدانية الله والملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر، سوى محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به من الفرقان. تفسير الطبري (٩/ ٣١٢-٣١٤).

وقال البغوي: قال مجاهد: أراد به المنافقين، يقول: (يا أيها الذين آمنوا) باللسان (آمِنوا) بالقلب.
وقال أبو العالية وجماعة: هذا خطاب للمؤمنين، يقول: (يا أيها الذين آمنوا آمِنوا) أي: أقيموا واثبتوا على الإيمان، كما يقال للقائم: قم حتى أرجع إليك، أي اثبت قائما. تفسير البغوي (١/ ٧١٣).

وقال ابن كثير: يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بالدخول في جميع شرائع الإيمان وشعبه وأركانه ودعائمه، وليس هذا من باب تحصيل الحاصل، بل من باب تكميل الكامل وتقريره وتثبيته والاستمرار عليه، كما يقول المؤمن في كل صلاة: {اهدنا الصراط المستقيم} أي: بصرنا فيه، وزدنا هدى، وثبتنا عليه. فأمرهم بالإيمان به وبرسوله، كما قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله}. تفسير ابن كثير (٢/ ٤٣٤).

وقال السعدي: اعلم أن الأمر إما أن يوجه إلى من لم يدخل في الشيء ولم يتصف بشيء منه، فهذا يكون أمرا له في الدخول فيه، وذلك كأمر من ليس بمؤمن بالإيمان، كقوله تعالى: {يأيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم} الآية.

وإما أن يوجه إلى من دخل في الشيء فهذا يكون أمره ليصحّح ما وجد منه، ويحصّل ما لم يوجد، ومنه ما ذكره الله في هذه الآية من أمر المؤمنين بالإيمان، فإن ذلك يقتضي أمرهم بما يصحح إيمانهم من الإخلاص والصدق، وتجنب المفسدات، والتوبة من جميع المنقصات. ويقتضي أيضا الأمر بما لم يوجد من المؤمن من علوم الإيمان وأعماله، فإنه كلما وصل إليه نص وفهم معناه واعتقده فإن ذلك من الإيمان المأمور به. وكذلك سائر الأعمال الظاهرة والباطنة، كلها من الإيمان كما دلت على ذلك النصوص الكثيرة، وأجمع عليه سلف الأمة. ثم الاستمرار على ذلك والثبات عليه إلى الممات كما قال تعالى: {يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون} . تفسير السعدي (ص: ٢٠٩).

(ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالا بعيدا):

قال الشوكاني: ذكر الرسل هنا لذكر الكتب جملة، فناسبه ذكر الرسل جملة، وتقديم الملائكة على الرسل: لأنهم الوسائط بين الله وبين رسله. فتح القدير للشوكاني (١/ ٦٠٥).

(إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا):

عن قتادة قوله: هم اليهود والنصارى، آمنت اليهود بالتوراة ثم كفرت، وآمنت النصارى بالإنجيل ثم كفرت، وكفرهم به: تركهم إياه، ثم ازدادوا كفرا بالفرقان وبمحمد صلى الله عليه وسلم. فقال الله: (لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا) يقول: لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريق هدى، وقد كفروا بكتاب الله، وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم. تفسير الطبري (٩/ ٣١٥-٣١٦).

عن علي رضي الله عنه: يستتاب المرتد ثلاثا. ثم قرأ: (إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا). تفسير الطبري (٩/ ٣١٧).

وقال البغوي: فإن قيل: ما معنى قوله: (لم يكن الله ليغفر لهم)، ومعلوم أنه لا يغفر الشرك وإن كان أول مرة؟ قيل: معناه أن الكافر إذا أسلم أول مرة ودام عليه يُغفر له كفره السابق، فإن أسلم ثم كفر ثم أسلم ثم كفر لا يغفر له كفره السابق الذي كان يُغفر له لو دام على الإسلام. تفسير البغوي (١/ ٧١٣).

وقال ابن تيمية: هؤلاء الذين لا تقبل توبتهم قد ذكروا فيهم أقوالا: قيل: لنفاقهم، وقيل: لأنهم تابوا مما دون الشرك ولم يتوبوا منه، وقيل: لن تقبل توبتهم بعد الموت. وقال الأكثرون: كالحسن وقتادة وعطاء الخراساني والسدي: لن تقبل توبتهم حين يحضرهم الموت، فيكون هذا كقوله: {وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار} . وكذلك قوله: {إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا} قال مجاهد وغيره من المفسرين: (ازدادوا كفرا) ثبتوا عليه حتى ماتوا. قلت: وذلك لأن التائب راجع عن الكفر، ومن لم يتب فإنه مستمر يزداد كفرا بعد كفر، فقوله: {ثم ازدادوا} بمنزلة قول القائل: ثم أصروا على الكفر، واستمروا على الكفر، وداموا على الكفر، فهم كفروا بعد إسلامهم ثم زاد كفرهم، ما نقص، فهؤلاء لا تقبل توبتهم، وهي التوبة عند حضور الموت؛ لأن من تاب قبل حضور الموت فقد تاب من قريب، ورجع عن كفره، فلم يزدد بل نقص؛ بخلاف المصر إلى حين المعاينة فما بقي له زمان يقع لنقص كفره فضلا عن هدمه. وفي الآية الأخرى قال: {لم يكن الله ليغفر لهم} وذكر أنهم آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا، قيل: لأن المرتد إذا تاب غفر له كفره، فإذا كفر بعد ذلك ومات كافرا حبط إيمانه، فعوقب بالكفر الأول والثاني، كما في الصحيحين عن ابن مسعود قال: {قيل: يا رسول الله أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية؟ فقال: من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر} ... والفقهاء إذا تنازعوا في قبول توبة من تكررت ردته أو قبول توبة الزنديق فذاك إنما هو في الحكم الظاهر؛ لأنه لا يوثق بتوبته، أما إذا قُدّر أنه أخلص التوبة لله في الباطن فإنه يدخل في قوله: {يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم} . مجموع الفتاوى (١٦/ ٢٧-٣١).

وقال السعدي: من تكرر منه الكفر بعد الإيمان فاهتدى ثم ضل، وأبصر ثم عمي، وآمن ثم كفر، واستمر على كفره وازداد منه، فإنه بعيد من التوفيق والهداية لأقوم الطريق، وبعيد من المغفرة لكونه أتى بأعظم مانع يمنعه من حصولها، فإن كفره يكون عقوبة وطبعا لا يزول، كما قال تعالى: {فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم}، {ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة}، ودلت الآية: أنهم إن لم يزدادوا كفرا بل رجعوا إلى الإيمان، وتركوا ما هم عليه من الكفران، فإن الله يغفر لهم، ولو تكررت منهم الردة. وإذا كان هذا الحكم في الكفر فغيره من المعاصي التي دونه من باب أولى أن العبد لو تكررت منه ثم عاد إلى التوبة، عاد الله له بالمغفرة. تفسير السعدي (ص: ٢٠٩).

(الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا):

قال ابن عطية: نص تعالى في صفة المنافقين على أشدها ضررا على المؤمنين، وهي موالاتهم الكفار واطّراحهم المؤمنين، ونبه على فساد ذلك ليدعه من عسى أن يقع في نوع منه من المؤمنين غفلة أو جهالة أو مسامحة. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ١٢٥).

وقال الزركشي: {الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا}، {من كان يريد العزة فلله العزة جميعا}، قد علم الله عز وجل أنهم كانوا يريدون الاعتزاز؛ لأن الإنسان مجبول على طلب العزة، فمخطئ أو مصيب، فمعنى الآية والله أعلم: بلّغ هؤلاء المتخذين الكافرين أولياء من دون الله من ابتغاء العزة بهم أنهم قد أخطؤوا مواضعها، وطلبوها في غير مطلبها، فإن كانوا يَصدُقون أنفسهم في طلبها فليوالوا الله جل جلاله، وليوالوا من والاه: {ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين}. البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٣١).

وقال ابن كثير: وصفهم بأنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، بمعنى أنهم معهم في الحقيقة، يوالونهم ويسرون إليهم بالمودة، ويقولون لهم إذا خلوا بهم: إنما نحن معكم، إنما نحن مستهزئون. أي: بالمؤمنين في إظهارنا لهم الموافقة. قال الله تعالى منكرا عليهم فيما سلكوه من موالاة الكافرين: {أيبتغون عندهم العزة}؟ ثم أخبر تعالى بأن العزة كلها لله وحده لا شريك له، ولمن جعلها له. كما قال في الآية

الأخرى: {من كان يريد العزة فلله العزة جميعا}، وقال تعالى: {ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون} . والمقصود من هذا التهييج على طلب العزة من جناب الله، والالتجاء إلى عبوديته، والانتظام في جملة عباده المؤمنين الذين لهم النصرة في هذه الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد. تفسير ابن كثير (٢/ ٤٣٥).

وقال السعدي: والحال أن العزة لله جميعا، فإن نواصي العباد بيده، ومشيئته نافذة فيهم. وقد تكفل بنصر دينه وعباده المؤمنين، ولو تخلل ذلك بعض الامتحان لعباده المؤمنين، وإدالة العدو عليهم إدالة غير مستمرة، فإن العاقبة والاستقرار للمؤمنين، وفي هذه الآية الترهيب العظيم من موالاة الكافرين؛ وترك موالاة المؤمنين، وأن ذلك من صفات المنافقين، وأن الإيمان يقتضي محبة المؤمنين وموالاتهم، وبغض الكافرين وعداوتهم. تفسير السعدي (ص: ٢١٠).

(وقد نزّل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره):

قال البغوي: هذا إشارة إلى ما أنزل الله في سورة الأنعام: (وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره)، قال الضحاك، عن ابن عباس رضي الله عنهما: دخل في هذه الآية كل محدث في الدين، وكل مبتدع إلى يوم القيامة... وإن خاضوا في حديث غيره فلا بأس بالقعود معهم مع الكراهة، وقال الحسن: لا يجوز القعود معهم وإن خاضوا في حديث غيره، لقوله تعالى: (وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين)، والأكثرون على الأول، وآية الأنعام مكية وهذه مدنية، والمتأخر أولى. تفسير البغوي (١/ ٧١٤).

وقال البقاعي: ولما كانت آية الأنعام مكية اقتصر فيها على مجرد الإعراض وقطع المجالسة لعدم التمكن من الإنكار بغير القلب، وأما هذه الآية فمدنية: فالتغيير عند إنزالها باللسان واليد ممكن لكل مسلم، فالمجالس من غير نكير راض. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٤٣٨).

وقال السعدي: ويدخل في ذلك مجادلة الكفار والمنافقين لإبطال آيات الله ونصر كفرهم، وكذلك المبتدعون على اختلاف أنواعهم، فإن احتجاجهم على باطلهم يتضمن الاستهانة بآيات الله؛ لأنها لا تدل إلا على حق، ولا تستلزم إلا صدقا، بل وكذلك يدخل فيه حضور مجالس المعاصي والفسوق التي يستهان فيها بأوامر الله ونواهيه، وتقتحم حدوده التي حدها لعباده. تفسير السعدي (ص: ٢١٠).

(إنكم إذًا مثلهم):

قال الطبري: يعني: فأنتم إن لم تقوموا عنهم في تلك الحال مثلهم في فعلهم، لأنكم قد عصيتم الله بجلوسكم معهم، وأنتم تسمعون آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها، كما عصوه باستهزائهم بآيات الله. فقد أتيتم من معصية الله نحو الذي أتوه منها، فأنتم إذا مثلهم في ركوبكم معصية الله، وإتيانكم ما نهاكم الله عنه، وفي هذه الآية الدلالة الواضحة على النهي عن مجالسة أهل الباطل من كل نوع، من المبتدعة والفسقة عند خوضهم في باطلهم. تفسير الطبري (٩/ ٣٢٠).

عن إبراهيم التيمي، عن أبي وائل، قال: إن الرجل ليتكلم بالكلمة في المجلس من الكذب ليُضحك بها جلساءه، فيسخط الله عليهم. قال: فذكرت ذلك لإبراهيم النخعي، فقال: صدق أبو وائل، أوليس ذلك في كتاب الله: (أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم) تفسير الطبري (٩/ ٣٢١).

وقال ابن تيمية: لا يجوز لأحد أن يحضر مجالس المنكر باختياره لغير ضرورة، كما في الحديث أنه قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يشرب عليها الخمر». ورُفع لعمر بن عبد العزيز قوم يشربون الخمر، فأمر بجلدهم، فقيل له: إن فيهم صائما، فقال: ابدؤوا به، أما سمعتم الله يقول: {وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم}. بين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أن الله جعل حاضر المنكر كفاعله، ولهذا قال العلماء: إذا دعي إلى وليمة فيها منكر كالخمر والزَّمر لم يجز حضورها، وذلك أن الله تعالى قد أمرنا بإنكار المنكر بحسب الإمكان، فمن حضر المنكر باختياره ولم ينكره فقد عصى الله ورسوله بترك

ما أمره به من بغض إنكاره والنهي عنه، وإذا كان كذلك فهذا الذي يحضر مجالس الخمر باختياره من غير ضرورة، ولا ينكر المنكر كما أمره الله، هو شريك الفساق في فسقهم فيلحق بهم. الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٤/ ٤٧٧).

وقال ابن تيمية: هجرة الفجار نوعان: هجرة ترك وهجرة تعزير. أما الأولى فقد دل عليها قوله تعالى: {واهجرهم هجرا جميلا}، وقوله: {وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره}. ومن هذا الباب هجرة المسلم من دار الحرب. فالمقصود بهذا أن يهجر المسلم السيئات ويهجر قرناء السوء الذين تضره صحبتهم إلا لحاجة أو مصلحة راجحة. وأما هجر التعزير فمثل هجر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الثلاثة الذين خلفوا، وهجر عمر والمسلمين لصبيغ، فهذا من نوع العقوبات، فإذا كان يحصل بهذا الهجر حصول معروف أو اندفاع منكر فهي مشروعة، وإن كان يحصل بها من الفساد ما يزيد على فساد الذنب فليست مشروعة. مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢١٦-٢١٧).

وقال ابن تيمية: جعل القاعد المستمع من غير إنكار بمنزلة الفاعل، ولهذا يقال: المستمع شريك المغتاب. وفي الأثر: من شهد المعصية وكرهها كان كمن غاب عنها، ومن غاب عنها ورضيها كان كمن شهدها. فإذا شهدها لحاجة أو لإكراه أنكرها بقلبه؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم {من رأى منكم منكرا فليغيره بيده. فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان}. مجموع الفتاوى (٣٠/ ٢١٣).

(إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا)

قال ابن كثير: أي: كما اشتركوا في الكفر، كذلك شارك الله بينهم في الخلود في نار جهنم أبدا، وجمع بينهم في دار العقوبة والنكال والقيود والأغلال. وشراب الحميم والغسلين لا الزلال. تفسير ابن كثير (٢/ ٤٣٦).

(وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين):

قال ابن كثير: {وإن كان للكافرين نصيب} أي: إدالة على المؤمنين في بعض الأحيان، كما وقع يوم أحد، فإن الرسل تبتلى ثم يكون لها العاقبة {قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين}؟ أي: ساعدناكم في الباطن، وما ألوناهم خبالا وتخذيلا حتى انتصرتم عليهم. تفسير ابن كثير (٢/ ٤٣٦).

وقال السعدي: {وإن كان للكافرين نصيب} ولم يقل: فتح؛ لأنه لا يحصل لهم فتح يكون مبدأ لنصرتهم المستمرة، بل غاية ما يكون أن يكون لهم نصيب غير مستقر، حكمة من الله. تفسير السعدي (ص: ٢١٠).

(فالله يحكم بينكم يوم القيامة):

قال ابن كثير: أي: بما يعلمه منكم أيها المنافقون من البواطن الرديئة، فلا تغتروا بجريان الأحكام الشرعية عليكم ظاهرا في الحياة الدنيا، لما له تعالى في ذلك من الحكمة، فيوم القيامة لا تنفعكم ظواهركم، بل هو يوم تبلى فيه السرائر، ويحصل ما في الصدور. تفسير ابن كثير (٢/ ٤٣٦).

(ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا):

قال الطبري: يعني: حجة يوم القيامة. وذلك وعد من الله المؤمنين أنه لن يُدخل المنافقين مدخلهم من الجنة، ولا المؤمنين مدخل المنافقين، فيكون بذلك للكافرين على المؤمنين حجة بأن يقولوا لهم إن أدخلوا مدخلهم: ها أنتم كنتم في الدنيا أعداءنا، وكان المنافقون أولياءنا، وقد اجتمعتم في النار، فجمع بينكم وبين أوليائنا! فأين الذي كنتم تزعمون أنكم تقاتلوننا من أجله في الدنيا؟ فذلك هو (السبيل) الذي وعد الله المؤمنين أن لا يجعلها عليهم للكافرين. تفسير الطبري (٩/ ٣٢٤).

وقال ابن القيم: والمقصود أن المبطلين لا سبيل لهم على أتباع الرسول البتة، قال تعالى {ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا}. قيل: بالحجة والبرهان، فإن حجتهم داحضة عند ربهم.
وقيل: هذا في الآخرة، وأما في الدنيا فقد يتسلطون عليهم بالضرر لهم والأذى.

وقيل: لا يجعل لهم عليهم سبيلا مستقرة، بل وإن نُصروا عليهم في وقت فإن الدائرة تكون عليهم، ويستقر النصر لأتباع الرسول.

وقيل: بل الآية على ظاهرها وعمومها، ولا إشكال فيها بحمد الله، فإن الله سبحانه ضمن أن لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا، فحيث كانت لهم سبيل ما عليهم فهم الذين جعلوها بتسببهم ترك بعض ما أقروا به أو ارتكاب بعض ما نهوا عنه، فهم جعلوا لهم السبيل عليهم بخروجهم عن طاعة الله ورسوله فيما أوجب تسلط عدوهم عليهم من هذه الثغرة التي أخلوها، كما أخلى الصحابة يوم أحد الثغرة التي أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بلزومها وحفظها، فوجد العدو منها طريقا إليهم، فدخلوا منها، قال تعالى {أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير}، فذكر السبب الذي أصيبوا به، وذكر القدرة التي هي مناط الجزاء، فذكر عدله فيهم بما ارتكبوه من السبب، وقدرته عليهم بما نالهم به من المكروه. وقال تعالى {وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير}، وفي الحديث الصحيح الإلهي (يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه). الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٤/ ١٣٩٣-١٣٩٤).

وقال ابن كثير: يحتمل أن يكون المراد: {ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا} أي: في الدنيا، بأن يسلطوا عليهم استيلاء استئصال بالكلية، وإن حصل لهم ظفر في بعض الأحيان على بعض الناس، فإن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: {إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد. يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار}. وعلى هذا فيكون ردا على المنافقين فيما أملوه وتربصوه وانتظروه من زوال دولة المؤمنين، وفيما سلكوه من مصانعتهم الكافرين، خوفا على أنفسهم منهم إذا هم ظهروا على المؤمنين فاستأصلوهم، كما قال تعالى: {فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين}. تفسير ابن كثير (٢/ ٤٣٦-٤٣٧).

وقال السعدي: {ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا} أي: تسلطا واستيلاء عليهم، بل لا تزال طائفة من المؤمنين على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، ولا يزال الله يحدث من أسباب النصر للمؤمنين، ودفع لتسلط الكافرين، ما هو مشهود بالعيان. حتى إن بعض المسلمين الذين تحكمهم الطوائف الكافرة، قد بقوا محترمين لا يتعرضون لأديانهم، ولا يكونون مستصغرين عندهم، بل لهم العز التام من الله، فله الحمد أولا وآخرا، وظاهرا وباطنا. تفسير السعدي (ص: ٢١٠).

(إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم):

عن السدي: قال: يعطيهم يوم القيامة نورا يمشون به مع المسلمين كما كانوا معهم في الدنيا، ثم يسلبهم ذلك النور فيطفئه، فيقومون في ظلمتهم، ويضرب بينهم بالسور. تفسير الطبري (٩/ ٣٢٩).

وقال ابن كثير: قوله: {وهو خادعهم} أي: هو الذي يستدرجهم في طغيانهم وضلالهم، ويخذلهم عن الحق والوصول إليه في الدنيا، وكذلك في يوم القيامة، كما قال تعالى: {يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب. ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور. فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير). تفسير ابن كثير (٢/ ٤٣٧).

(وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس):

قال ابن تيمية: فأما المرائي بالفرائض فكل أحد يعلم قبح حاله، وأن الله يعاقبه لكونه لم يعبده مخلصا له الدين، والله تعالى يقول: {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة}، وقال تعالى: {إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين. ألا لله الدين الخالص}، فهذا في القرآن كثير. وأما المرائي بنوافل الصلاة والصوم والذكر وقراءة القرآن فلا يظن الظان أنه يكتفى فيه بحبوط عمله فقط، بحيث يكون لا له ولا عليه، بل هو مستحق للذم والعقاب على قصده

شهرة عبادة غير الله، إذ هي عبادات مختصة، ولا تصح إلا من مسلم، ولا يجوز إيقاعها على غير وجه التقرب. مجموع الفتاوى (٢٢/ ٥٠٧).

وقال ابن تيمية: أخبر الله عن المنافقين أنهم يصلون ويزكون وأنه لا يقبل ذلك منهم. قال تعالى: {إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا}، وقال تعالى: {قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوما فاسقين. وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون}. مجموع الفتاوى (٧/ ٤٧٠-٤٧١).

وقال ابن تيمية: من نهى عن أمر مشروع بمجرد زعمه أن ذلك رياء، فنهيه مردود عليه من وجوه:
أحدها: أن الأعمال المشروعة لا ينهى عنها خوفا من الرياء، بل يؤمر بها وبالإخلاص فيها، ونحن إذا رأينا من يفعلها أقررناه، وإن جزمنا أنه يفعلها رياء، فالمنافقون الذين قال الله فيهم: {إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا}. فهؤلاء كان النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون يقرونهم على ما يظهرونه من الدين، وإن كانوا مرائين، ولا ينهونهم عن الظاهر؛ لأن الفساد في ترك إظهار المشروع أعظم من الفساد في إظهاره رياء، كما أن فساد ترك إظهار الإيمان والصلوات أعظم من الفساد في إظهار ذلك رياء؛ ولأن الإنكار إنما يقع على الفساد في إظهار ذلك رئاء الناس.
الثاني: لأن الإنكار إنما يقع على ما أنكرته الشريعة، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس، ولا أن أشق بطونهم». وقد قال عمر بن الخطاب: من أظهر لنا خيرا أحببناه وواليناه عليه، وإن كانت سريرته بخلاف ذلك. ومن أظهر لنا شرا أبغضناه عليه، وإن زعم أن سريرته صالحة.
الثالث: أن تسويغ مثل هذا يفضي إلى أن أهل الشر والفساد ينكرون على أهل الخير والدين، إذا رأوا من يظهر أمرا مشروعا مسنونا، قالوا: هذا مراء، فيترك أهل الصدق والإخلاص إظهار الأمور المشروعة،

حذرا من لمزهم وذمهم، فيتعطل الخير، ويبقى لأهل الشر شوكة يظهرون الشر ولا أحد ينكر عليهم، وهذا من أعظم المفاسد.

الرابع: أن مثل هذا من شعائر المنافقين، وهو الطعن على من يظهر الأعمال المشروعة، قال الله تعالى: {الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم}، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما حض على الإنفاق عام تبوك جاء بعض الصحابة بصرة كادت يده تعجز من حملها، فقالوا: هذا مراء، وجاء بعضهم بصاع، فقالوا: لقد كان الله غنيا عن صاع فلان، فلمزوا هذا وهذا، فأنزل الله ذلك، وصار عبرة فيمن يلمز المؤمنين المطيعين لله ورسوله. الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٢/ ٢٦٣-٢٦٤).

وقال ابن كثير: هذه صفة المنافقين في أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها، وهي الصلاة. إذا قاموا إليها قاموا وهم كسالى عنها؛ لأنهم لا نية لهم فيها، ولا إيمان لهم بها ولا خشية، ولا يعقلون معناها كما روى ابن مردويه... عن ابن عباس أنه كان يكره أن يقوم الرجل إلى الصلاة وهو كسلان، ولكن يقوم إليها طلق الوجه، عظيم الرغبة، شديد الفرح، فإنه يناجي الله تعالى، وإن الله أمامه، يغفر له ويجيبه إذا دعاه، ثم يتلو ابن عباس هذه الآية: {وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى} ...

فقوله تعالى: {وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى} هذه صفة ظواهرهم، كما قال: {ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى}، ثم ذكر تعالى صفة بواطنهم الفاسدة، فقال: {يراءون الناس} أي: لا إخلاص لهم ولا معاملة مع الله، بل إنما يشهدون تقية من الناس ومصانعة لهم؛ ولهذا يتخلفون كثيرا عن الصلاة التي لا يُرون غالبا فيها، كصلاة العشاء وقت العتمة، وصلاة الصبح في وقت الغلس، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوا، ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام، ثم آمر رجلا فيصلي بالناس، ثم أنطلق معي برجال معهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة، فأحرق عليهم بيوتهم بالنار). وفي رواية: (والذي نفسي بيده، لو علم أحدهم أنه يجد عَرقا سمينا أو مِرمَاتين حسنتين لشهد الصلاة، ولولا ما في البيوت من النساء والذرية لحرقت عليهم بيوتهم بالنار). تفسير ابن كثير (٢/ ٤٣٨).

(ولا يذكرون الله إلا قليلا):

قال الطبري: ولا يذكرون الله إلا ذكر رياء ليدفعوا به عن أنفسهم القتل والسباء وسلب الأموال، لا ذكر موقن مصدق بتوحيد الله، مخلص له الربوبية. فلذلك سماه الله (قليلا)؛ لأنه غير مقصود به الله، ولا مبتغى به التقرب إلى الله، ولا مراد به ثواب الله وما عنده. فهو وإن كثر من وجه نصَب عامله وذاكره في معنى السراب الذي له ظاهر بغير حقيقة ماء. تفسير الطبري (٩/ ٣٣١).

وقال البغوي: قال ابن عباس رضي الله عنهما والحسن: إنما قال ذلك لأنهم يفعلونها رياء وسمعة، ولو أرادوا بذلك القليل وجه الله تعالى لكان كثيرا، وقال قتادة: إنما قلّ ذكر المنافقين لأن الله تعالى لم يقبله، وكل ما قبل الله فهو كثير. تفسير البغوي (١/ ٧١٥).

وقال ابن تيمية: روى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: {تلك صلاة المنافق. يمهل حتى إذا كانت الشمس بين قرني شيطان قام فنقر أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلا}، فأخبر أن المنافق يضيع وقت الصلاة المفروضة، ويضيع فعلها وينقرها، فدل ذلك على ذم هذا وهذا، وإن كان كلاهما تاركا للواجب. وذلك حجة واضحة في أن نقر الصلاة غير جائز، وأنه من فعل من فيه نفاق، والنفاق كله حرام... وقال الله تعالى: {إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا}، وهذا وعيد شديد لمن ينقر في صلاته فلا يتم ركوعه وسجوده بالاعتدال والطمأنينة. والمثل الذي ضربه النبي صلى الله عليه وسلم من أحسن الأمثال فإن الصلاة قوت القلوب كما أن الغذاء قوت الجسد. فإذا كان الجسد لا يتغذى باليسير من الأكل فالقلب لا يقتات بالنقر في الصلاة، بل لا بد من صلاة تامة تقيت القلوب... وفي صحيح البخاري... أن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه رأى رجلا لا يتم ركوعه ولا سجوده، فلما قضى صلاته دعاه وقال له حذيفة: ما صليت، ولو مت مت على غير الفطرة التي فطر الله عليها محمدا صلى الله عليه وسلم. مجموع الفتاوى (٢٢/ ٥٣٧-٥٤٠).

وقال الألوسي: (ولا يذكرون الله إلا قليلا) لأنهم لا يذكرونه إلا باللسان، وعند حضورهم بين الناس، بخلاف المؤمنين الصادقين فإنهم إذا قاموا إلى الصلاة يطيرون إليها بجناحي الرغبة والرهبة، بل يحنّون إلى أوقاتها. حنين أعرابية حنت إلى ... أطلال نجد فارقته ومرخةِ

ومن هنا كان صلى الله عليه وسلم يقول لبلال: «أرحنا بها يا بلال»، يريد عليه الصلاة والسلام أقم لنا الصلاة لنصلي فنستريح بها لا منها. روح المعاني (٣/ ١٧٤).

(مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء):

قال ابن كثير: يعني: المنافقين متحيرين بين الإيمان والكفر، فلا هم مع المؤمنين ظاهرا وباطنا، ولا مع الكافرين ظاهرا وباطنا، بل ظواهرهم مع المؤمنين، وبواطنهم مع الكافرين. ومنهم من يعتريه الشك، فتارة يميل إلى هؤلاء، وتارة يميل إلى أولئك {كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا} الآية. تفسير ابن كثير (٢/ ٤٣٩).

وقال السعدي: هذه الأوصاف المذمومة تدل بتنبيهها على أن المؤمنين متصفون بضدها، من الصدق ظاهرا وباطنا، والإخلاص، وأنهم لا يُجهل ما عندهم، ونشاطهم في صلاتهم وعباداتهم، وكثرة ذكرهم لله تعالى، وأنهم قد هداهم الله ووفقهم للصراط المستقيم. فليعرض العاقل نفسه على هذين الأمرين، وليختر أيهما أولى به. تفسير السعدي (ص: ٢١١).

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا):

قال ابن كثير: ينهى تعالى عباده المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، يعني: مصاحبتهم ومصادقتهم ومناصحتهم وإسرار المودة إليهم، وإفشاء أحوال المؤمنين الباطنة إليهم، كما قال تعالى: {لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه} أي: يحذركم عقوبته في ارتكابكم نهيه. ولهذا قال هاهنا: {أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا} أي: حجة عليكم في عقوبته إياكم. تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤١).

وقال الألوسي: (أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا) أي: حجة ظاهرة في العذاب، وفيه دلالة على أن الله تعالى لا يعذب أحدا بمقتضى حكمته إلا بعد قيام الحجة عليه، ويُشعر بذلك كثير من الآيات، وقيل: أتريدون بذلك أن تجعلوا له تعالى حجة بينة على أنكم منافقون، فإن موالاة الكافرين أوضح أدلة النفاق. روح المعاني (٣/ ١٧٠).

وقال السعدي: وفيه التحذير من المعاصي؛ فإن فاعلها يجعل لله عليه سلطانا مبينا. تفسير السعدي (ص: ٢١١).

(إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا):

قال البقاعي: {إن المنافقين في الدرك} أي: البطن والمنزل، {الأسفل من النار} لأن ذلك أخفى ما في النار وأستره وأدناه وأوضعه، كما أن كفرهم أخفى الكفر وأدناه، وهو أيضا أخبث طبقات النار، كما أن كفرهم أخبث أنواع الكفر... وسميت طبقات النار أدراكا لأنها متداركة متتابعة إلى أسفل، كما أن الدرَج متراقية إلى فوق. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٤٤٤).

وقال السعدي: يخبر تعالى عن مآل المنافقين أنهم في أسفل الدركات من العذاب، وأشر الحالات من العقاب. فهم تحت سائر الكفار؛ لأنهم شاركوهم بالكفر بالله ومعاداة رسله، وزادوا عليهم المكر والخديعة والتمكن من كثير من أنواع العداوة للمؤمنين، على وجه لا يُشعر به ولا يُحسّ. ورتبوا على ذلك جريان أحكام الإسلام عليهم، واستحقاق ما لا يستحقونه، فبذلك ونحوه استحقوا أشد العذاب. تفسير السعدي (ص: ٢١١).

(إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما):

قال السعدي: من اتصف بهذه الصفات {فأولئك مع المؤمنين} أي: في الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة {وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما} لا يعلم كنهه إلا الله، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا

خطر على قلب بشر. وتأمل كيف خص الاعتصام والإخلاص بالذكر مع دخولهما في قوله: {وأصلحوا}؛ لأن الاعتصام والإخلاص من جملة الإصلاح، لشدة الحاجة إليهما خصوصا في هذا المقام الحرج الذي يمكَّن من القلوب النفاق، فلا يزيله إلا شدة الاعتصام بالله، ودوام اللجأ والافتقار إليه في دفعه، وكون الإخلاص منافيا كل المنافاة للنفاق، فذكرهما لفضلهما، وتوقف الأعمال الظاهرة والباطنة عليهما، ولشدة الحاجة في هذا المقام إليهما.

وتأمل كيف لما ذكر أن هؤلاء مع المؤمنين لم يقل: وسوف يؤتيهم أجرا عظيما، مع أن السياق فيهم. بل قال: {وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما} لأن هذه القاعدة الشريفة لم يزل الله يبدئ فيها ويعيد، إذا كان السياق في بعض الجزئيات، وأراد أن يرتب عليه ثوابا أو عقابا، وكان ذلك مشتركا بينه وبين الجنس الداخل فيه، رتب الثواب في مقابلة الحكم العام الذي تندرج تحته تلك القضية وغيرها، ولئلا يتوهم اختصاص الحكم بالأمر الجزئي، فهذا من أسرار القرآن البديعة، فالتائب من المنافقين مع المؤمنين وله ثوابهم. تفسير السعدي (ص: ٢١٢).

(ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما):

قال البغوي: فيه تقديم وتأخير، تقديره: إن آمنتم وشكرتم، لأن الشكر لا ينفع مع عدم الإيمان، وهذا استفهام بمعنى التقرير، معناه: إنه لا يعذب المؤمن الشاكر، فإن تعذيبه عباده لا يزيد في ملكه، وتركه عقوبتهم على فعلهم لا ينقص من سلطانه... (وكان الله شاكرا عليما) فالشكر من الله تعالى هو الرضى بالقليل من عباده وإضعاف الثواب عليه، والشكر من العبد: الطاعة، ومن الله: الثواب. تفسير البغوي (١/ ٧١٦).

بسم الله الرحمن الرحيم

العمل بالآيات من سورة النساء ١٣٦-١٤٧

١- اثبت على إيمانك، وتمسّك به، وعُضّ عليه بالنواجذ، واحرص على زيادته ونمائه، واحذر من نقصانه وضعفه، فإنه رأس مالك، ومصدر نجاتك، وابتعد عن التعرّض للشبهات القادحة في الإيمان، أو الاستماع في مسائل الدين لكل أحد، فإن أعداء الدين لا يزالون بالمسلم حتى يسلخوه من دينه بالكلية، فيخسر دنياه وآخرته (يا أيها الذين آمنوا آمِنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزّل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالا بعيدا).

٢- احذر من الألفاظ الكفرية التي تجري على ألسنة بعض الناس من سب الله أو رسوله أو الدين، أو الاستهزاء بالآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية أو الأحكام الشرعية، واعلم أن من تكرر ذلك منه فإنه يُطمس على قلبه ويُحرم التوبة (إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا)، (ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا).

٣- احذر من النفاق ومن علامات المنافقين، ومن أعظمها تذبذبهم وحيرتهم واضطرابهم وترددهم، فلا هم مع المؤمنين ولا مع الكافرين، واعلم أن عذاب المنافق في الآخرة أشد العذاب وأخزاه، لعظم خطره على الإسلام والمسلمين، وكبير جرمه في محاولة مخادعة الله والناس أجمعين (بشّر المنافقين بأن لهم عذابا أليما)، (إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا)، (مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء)، (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا).

٤- لا تجالس أهل الكفر والشرك والنفاق والبدعة والفسوق حال خوضهم في باطلهم، ومنهم أولئك الذين يتطاولون على أوامر الله، ويتّخذون آيات الله هزوا، ويتلاعبون بالنصوص، ويضربون كتاب الله بعضه ببعض، فمن جالسهم وهم على هذه الحال فقد صار مثلهم في مخالفة أمر الله (وقد نزّل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذًا مثلُهم).

٥- احرص على المحافظة على دينك ولو خسرت دنياك، ولا تكن كالمنافق الذي يحرص على دنياه ولو خسر دينه، ويتلوّن لأجل ذلك (الذين يتربّصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين).

٦- اعلم علم اليقين أننا إذا حقّقنا الإيمان في أنفسنا بالاستقامة على طاعة الله واجتناب نواهيه واتباع سنة النبي صلى الله عليه وسلم، وفي مجتمعنا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلن يتسلّط علينا كافر أبدا، لا في الدنيا بالغلبة، ولا في الآخرة بالحجة (فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا).

٧- حتى تكون صلاتك صلاة المؤمنين احذر من صفة صلاة المنافقين، فقم إلى صلاتك نشيطا طيب النفس مخلصا ذاكرا لله كثيرا، لا كسولا، ولا مرائيا، ولا ذاكرا لله قليلا (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا).

٨- إياك واتخاذ الكفار أولياء من دون المؤمنين، والميل إليهم دون المؤمنين، ومحبتهم أكثر من المؤمنين، والدفاع عنهم أكثر من المؤمنين، فإن ذلك علامة نفاق ومرض في القلب، ومن فعل ذلك فقد جعل لله على نفسه سلطانا مبينا وحجة ظاهرة على نفاقه واستحقاقه للعذاب، ولا تغترّ بما وصل إليه الكفار من حضارة ورُقيّ وتقدّم فإنهم لا يملكون من العزة شيئا، بل لله العزة جميعا، فسله أن يهبك إياها (الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا)، (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا).

٩- مهما عظمت ذنوبك، وكثرت معاصيك، وتنوّعت خطاياك فلا تيأس من رحمة الله، فإن الله قد عرض التوبة على المنافق الذي هو من أسوأ الناس كفرا وأشنعهم إثما، فاعقد العزم على التوبة بالإصلاح والاعتصام بالله وإخلاص الدين لله واللحاق بركب الصالحين، فإن الله غني عن تعذيبك (إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما * ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما).